مكتبة الطفل

فرانسيس هوجسن بيرنت

أميرة صغيرة

ترجمة: رشا سعيد





أميرة صغيرة

مكتبة الطفل

الكاتب: فرانسيس هوجسن بيرنت

عنوان الكتاب: أميرة صغيرة

ترجمة: رشا سعيد

لوحة الغلاف: جيمس سانت

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-24-3

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

3000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw



www.takweenkw.com @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain



www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

فرانسيس هوجسن بيرنت

أميرة صغيرة

رواية

ترجمة

رشا سعيد





مقدّمة الناشر

لربّما كان من المتع القليلة التي يحصل عليها الكبار في قراءة رواياتٍ تبدو وكأنّها معدّة للصغار حصراً؛ أنّهم يقاسمون الكُتّاب بعضاً ممّا هو مبثوث فيها من أفكار موجّهة للطفولة، هي واقعاً خزينهم من سنوات النشأة والتكوين الذي لم يستطيعوا أن يعبّروا عنه حينها لقصور في اللغة والمشاعر.

وهكذا ففي وقت يكون فيه الوعي، بدرجة ما، أكثر حسّاسيّة حيال الأشياء التي جرت للكبار في سنواتهم الأولى؛ سيكون لهم أن يعاودوا استذكار تلك الأشياء، واستحضار العصيّ منها على الإمساك، لتكون في درجة متقدّمة من اليسر. هكذا هو الأمر في قراءة الكبار لما أعدّ خصّيصاً لأن يقرأه الصغار.

هذا الأمر ينطبق على بالغ لا يرى بأساً من أن يستمتع بقراءة (بيتر بان) أو (سندريلاّ) بقدر مغاير لاستمتاع اليافع، هو أعلى منه مرتبة بالتأكيد، متأتّ من الوشيجة السريّة التي يُمسك بها في مسايرته للكاتب.

كما ينطبق هذا الأمر عملياً، وبدرجة ما، كبيرة، على هذه الرواية التي اكتسبت شهرتها العربيّة من مسلسل (أنيمي) ياباني شهير أُنتج عام ١٩٨٥، حمل بالنسخة التي دُبلجت إلى العربيّة اسم (سالي). بيد أنّ السينما كانت قبل ذاك قد قدّمت الرواية للمشاهد في فيلم تم إنتاجه في العام ١٩٣٩ حاز على شهرة إضافيّة لما كان عليه هذا الأثر الكلاسيكيّ الخالد، ثمّ أعيد تصويره للسينما عام ١٩٩٥. ناهيك عن المسلسلات التليفزيونية التي أنتجت لعدة مرات عن الرواية إيّاها.

وعلى الرغم من التحفظات التي أفرزتها المفاهيم الحديثة حيال التمييز بين الأعراق البشريّة -ما يُعدّ عنصريّاً منها الآن- فإن ما كُتب في زمن متقدّم من أدب بشكل عام، رُوعي فيه أن يبقى إرثاً عالميّاً تُغضّ عنه الأبصار احتراماً للمصداقيّة التاريخيّة. وعليه، فقد نجد في هذا الموضع أو ذاك من الرواية، ما يتناول العرق أو اللون أو التراتبيّة الاجتماعيّة بشكل يمكن معه أن يُعدّ عنصراً هامّاً لا يمكن التفريط به بالرغم من مآخذنا تلك. فرواية تتحدّث عن ابنة لضابط بريطاني نشأت في إحدى المستعمرات وعن خادمة وسيّد وهنديّ.. إلخ، من المؤكّد أن يرد فيها ما يُشير إلى بعض الفوارق الطبقيّة التي يرتكز عليها هذا العمل الأدبي، لكنّ ما يشفع له لأن يبقى إرثاً خالداً هو الأمانة الأدبيّة.

لقد جهدنا في أن يخرج هذا العمل في ترجمة جديدة نضعها أمام القارئ العربي، راعينا فيها أن تكون ذات لغة أدبية عالية المستوى بدرجة ما، تحفّز الصغير على أن يسأل على معنى هذه العبارة أو تلك،

وتدفع الكبير لأن يسترجع ذلك الجزء الغائص من الطفولة، حيث الذكرى.

الرواية بالأصل هي عمل للكاتبة الأمريكيّة من أصل بريطاني (فرانسيس هوجسن بيرنت) - (١٨٤٩-١٩٢٤) وضعته كقصّة صدرت عام ١٨٨٨ بعد أن كانت قد نشرته قبلها في مجلة أطفال محليّة وعلى عدّة أجزاء تحت عنوان (سارا كرو، أو ما حدث في منزل الآنسة منشن)، ثم أُعدّت لتعرض كمسرحيّة بعد ذلك عام ١٩٠٢، وللنجاح الذي لاقاه ذلك العمل إضافة لسمعة السيدة (بيرنت) الحسنة ككاتبة، فقد صدر عام ١٩٠٥ كرواية تحمل عنوان (أميرة صغيرة، القصّة الكاملة لسارا كرو)، وبصيغتها النهائية التي اعتُمِدت في هذه الترجمة. ويجدر القول إن الرواية، كمجمل أعمال الكاتبة، قد لاقت استحساناً كبيراً منذ صدورها حتّى الآن، وقد وُضعت ضمن أفضل مائة كتاب للأطفال في عدّة تصنيفات، كما أنها تُرجمت إلى كلّ اللغات الحيّة تقريباً.

(١)

سارا

في نهار شتويّ معتم، حطّ فيه الضباب الأصفر كثيفاً وثقيلاً على شوارع لندن، لدرجة أن ضوّأت معه المصابيح وأوقدت القناديل الغازية في واجهات المتاجر، بمثلما يحصل عادة في الليل؛ جلست ذات مرّة فتاة صغيرة غريبة المظهر برفقة أبيها في عربة أجرة تسير على الطرقات ببطء.

كانت قد جلست متربّعة، متكئة على والدها الذي أحاطها بذراعه، فيما كانت تحدّق عبر النافذة إلى السابلة، وفي عينيها الواسعتين تأمّل غامض يشي بنضوج.

لقد كانت من الصِغر بدرجة لا يمكن معها للمرء توقّع أن مثل هذه النظرة تبدر من ذلك الوجه الصغير. فتلك النظرة تُعدّ ناضجة حتى لو بدرت من طفل في الثانية عشرة، أمّا (سارا كرو) فقد كانت بعمر السابعة فحسب. والحقيقة هي أنها لطالما كانت تحلم وتفكّر في أشياء غريبة، وهي نفسها لا تتذكّر وقتاً مرّ عليها دون أن كانت تراودها فيه خواطر عن البالغين والعالم

الذي ينتمون إليه. لقد كانت تشعر كما لو أنها عاشت حياة طويلة؛ طويلة للغاية.

كانت في تلك اللحظة تستذكر الرحلة البحرية التي قطعتها للتو من بومباي، صحبة والدها النقيب (كرو). فلقد كانت تفكّر في السفينة الكبيرة، وفي البحارة الهنود الذين كانوا يقطعونها ذهاباً وإياباً وهم صامتون، وفي لهو الأطفال على سطحها اللاهب، وفي زوجات الضباط الشباب اللواتي كان البعض منهنّ يحاولن أن يستدرجنها إلى الحديث معهن، كي يضحكن على الأشياء التي تقولها.

لقد كان جلّ تفكيرها منصباً حول المفارقة في أن يكون المرء في وقتٍ ما تحت شمس الهند الحارقة، ثم يصبح في عرض المحيط، ومن ثم راكباً عربة غريبة في شوارع غريبة حيث النهار معتمٌ كالليل. لقد وجدت هذا الأمر محيّراً، فتقرّبت إلى أبيها أكثر.

قالت في صوت خفيض ملتبس، أقرب إلى أن يكون همساً:

- بابا. بابا!

أجاب النقيب كرو، وهو يضمّها إليه متطلعاً إلى وجهها:

- ما الأمر يا عزيزتي؟ تُرى فيم تفكّر سارا؟

همست وقد ازدادت التصاقاً به:

- أهذا هو المكان؟ هل هذا هو يا بابا؟

- أجل يا سارا الصغيرة، إنه كذلك. وها قد وصلنا أخيراً.

ورغم كونها في السابعة فقط من عمرها، إلا أنها أدركت وطأة الحزن الذي كان يعتريه وهو يجيبها بذلك.

لقد بدا لها أنّ العديد من الأعوام قد مرّت منذ أن شرع والدها بتهيئتها للـ«مكان»، كما كانت تسميه دائماً. كانت والدتها قد توفّيت إثر ولادتها، لذا فهي لم تعرفها أو تشتَق إليها قطّ. وتراءى لها والدها الشاب الحنون، وسيم الطلعة واسع الثراء، وكأنّه قريبها الوحيد في هذا العالم. لطالما كانا يلهوان معاً، وقد تعلّق أحدهما بالآخر.

ولم تعرف أنه كان ثرياً إلا عندما سمعت الناس يردّدون ذلك مصادفة، عندما ظنّوا أنها لن تسمعهم، كما سمعتهم يقولون أيضاً إنها عندما تكبر ستكون ثرية هي الأخرى. ولم تدرك كنه أن يكون المرء ثريّاً، فلطالما عاشت في منزلٍ خشبيّ جميل ذي طابق واحد، وقد أَلِفت فيه رؤية الخدم الكثيرين، الذين كانوا يبادرونها بتحية السلام، وينادونها «ميسي صاحب»[1]، ويتركونها لتقوم كيفما بدا لها، بكل ما تطيب نفسها به. كانت لديها ألعاب وحيوانات أليفة ومربيّة هندية تعشقها حدّ العبادة، وهكذا أدركت تدريجياً أن الأثرياء فقط هم من يحظون بمثل تلك الأشياء. وهذا هو جلّ ما استوعبته من الأمر برمّته.

ولكن ثمّة شيء وحيد أقلقها طوال حياتها القصيرة، وكان ذلك هو «المكان» الذي ستؤخذ إليه يوماً ما. فقد كان مناخ الهند ذا ضررٍ كبير على الأطفال، لذا فهم يُبعَدون عنه في أسرع وقت

(١) لقب بمعنى سيّد أو سيّدة يُخاطب به الهنود شخصاً أوروبياً ذا مكانة أو منصب رسمي.

ممكن، عادة إلى إنجلترا لكي يدخلوا المدارس. وهي بنفسها كانت قد شهدت أطفالاً آخرين يُرسلون بعيداً، وسمعت آباءهم وأمهاتهم وهم يتحدثون عن الرسائل التي تصل من أطفالهم إليهم. كانت قد عرفت في قرارتها أنها ستُجبر على الرحيل مثلهم، ورغم أنّ حكايات والدها عن الرحلة البحرية والبلاد الجديدة كانت تغريها أحياناً، إلا أنها كانت تضطرب من فكرة مفارقته.

كانت في الخامسة من عمرها عندما سألت والدها:

- بابا، ألا يمكنك مرافقتي إلى ذلك «المكان»؟ ألا تدخل المدرسة أيضاً؟ ولسوف أساعدك في دروسك.

ولكنه دائماً ما كان يقول لها:

- لن يتحتم عليك البقاء هناك لزمن طويل، يا صغيرتي سارا. ستذهبين إلى منزلٍ لطيف فيه فتيات صغيرات كثيرات، ولسوف تلعبن معاً، أمّا أنا فسأرسل إليك العديد من الكتب. ولسوف تكبرين بسرعة حتّى ليبدو معها أنه بالكاد قد مرّت سنة، قبل أن تكبري وتكوني ذكية بما فيه الكفاية، لتعودي إلى بابا، وتعتني به.

لقد أحبت سارا تلك الفكرة، أن تعتني في المنزل بوالدها، وتركب معه، وتجلس على رأس طاولته عندما يقيم حفلات العشاء، وأن تتحدث معه وتقرأ كتبه. كان هذا غاية ما تتمناه من هذا العالم. أمّا إذا كان يتحتّم على المرء أن يرحل بعيداً إلى «المكان» في إنجلترا، لكي يتحقّق ما يتمناه؛ فعليها إذن أن تحزم أمرها وتذهب. لم تكن

تكترث بالفتيات الصغيرات الأخريات، ولكنّها لو تحصّلت على العديد من الكتب، فلسوف تسلّي نفسها فيها. فهي تحب الكتب أكثر من أيّ شيء آخر، وفي الحقيقة فهي لطالما كانت تختلق حكاياتٍ عن أشياء جميلة وتحكيها لنفسها. وأحياناً كانت تحكيها لوالدها، الذي كان يحبّ تلك القصص بقدر ما أحبتها هي.

قالت بوداعة:

- حسناً يا بابا، ما دمنا قد وصلنا إلى هنا، فقد صار علينا إذن أن نستكين للأمر.

ضحك الأب على نمط ابنته القديم في الحديث، ثمّ قبّلها. أمّا من جانبه، فهو لم يكن في الحقيقة مستكيناً تماماً للأمر، وإن كان يدرك أنّ عليه أن يُبقي على الأمر سراً. فلطالما كانت صغيرته الظريفة سارا رفيقة رائعة له، ولقد شعر بأنه سيكون رجلاً وحيداً، عندما يعود إلى الهند، ويدخل إلى منزله وفي علمه ألا ينتظر رؤية تلك الفتاة الصغيرة وهي تستقبله في ثوبها الأبيض. لذا ضمّها بين ذراعيه بشدة، فيما كانت عربة الأجرة تنسلّ إلى الساحة الفسيحة الكئيبة، التي يقع فيها المنزل الذي كانت وجهتهم إليه.

لقد كان منزلاً كبيراً مبنيّاً من الطوب، كئيب المنظر، يشبه تماماً كلّ المنازل التي تجاوره، ولكن على مدخله ثمّة لوح نحاسي لامع، محفور عليه بحروف سوداء:

الآنسة منشن

معهد النخبة للآنسات اليافعات

قال النقيب كرو في صوتٍ حاول أن يبدو مشجّعاً قدر ما أمكنه:

- ها قد وصلنا، يا سارا.

ثم قام بحملها وإنزالها من سيارة الأجرة، فارتقيا السلالم، وقرع الجرس. وغالباً ما خطر لسارا، فيما بعد، بأن المنزل كان بطريقة ما يشبه الآنسة منشن، بالضبط. لقد كان منزلاً مهيباً، حسن التأثيث، ورغم ذلك فقد كان كل شيء فيه قبيحاً، حتّى المقاعد ذوات المساند، فقد كانت تُشعر المرء كما لو أنها محشوة بعظام قاسية. في الردهة كان كل شيء مصقولاً وجامداً، حتّى الوجنتين الحمراوين للقمر على الساعة الطويلة في الركن، كانتا تحملان سيماء صارمة مصقولة بالورنيش. أمّا غرفة الاستقبال التي اقتيدا إليها، فقد كانت مفروشة بسجاد ذي مربعات، عليها مقاعد مربعة، وهناك تقف ساعة رخاميّة ثقيلة على رفّ الموقد الرخاميّ.

وفيما كانت تجلس على واحد من مقاعد خشب الماهوغاني اليابسة، ألقت سارا بواحدة من نظراتها السريعة حولها، وقالت:

- لا أحبّ المكان يا بابا، وهل أجرؤ على قول إنّ الجنود، وحتّى الشجعان منهم، يكرهون الذهاب إلى المعركة.

انفجر النقيب كرو ضاحكاً لقولها هذا. فقد كان شاباً مفعماً بالمرح، ولم يكن يملّ أبداً من كلام ابنته الغريب. قال:

- أوه يا سارا الصغيرة، ماذا سأفعل عندما لا يبقى معي أحدٌ ليخبرني بأشياء رزِنة؟ لا أحد برزانتك!

سألته سارا:

- ولكن لمَ تثير ضحكك بهذا الشكل، الأشياء الرزِنة؟

أجابها، وهو يرفع عقيرته بالضحك أكثر:

- لأنّك تبدين بغاية الطرافة وأنتِ تقولينها.

ثم اجتذبها فجأة بين ذراعيه وقبّلها بشدّة، وكان قد توقف عن الضحك تماماً، وبدت عيناه وكأنهما قد اغرورقتا بالدموع.

كانت في تلك اللحظة بالذات أن دخلت الآنسة منشن إلى الغرفة. وشعرت سارا أنّها تشبه منزلها جداً؛ فهي طويلة، كئيبة، وقورة وقبيحة. وكان لها عينان واسعتان باردتان مريبتان، وابتسامة واسعة باردة ومريبة، وقد اتسعت أكثر عندما رأت سارا والنقيب كرو. إذ أنها كانت قد سمعت الكثير من الأشياء المرضية عن العسكريّ الشاب من السيّدة التي أوصت له بالمدرسة، ومن بين ما سمعته، أنّه كان أباً ثريّاً ومستعدّاً لإنفاق مبالغ طائلة على ابنته الصغيرة.

قالت، فيما كانت تمسك بيد سارا وتربّت عليها:

- سيكون شرفاً عظيماً أن أتولّى رعاية طفلة جميلة وواعدة كابنتك أيّها النقيب كرو. لقد أخبرتني السيّدة ميريدث عن ذكائها الاستثنائي. والطفل الذكي يعدّ كنزاً ثميناً في مؤسسة كمؤسستي.

أمّا سارا فقد وقفت بهدوء، فيما عيناها مثبّتتان على وجه الآنسة منشن، وكانت كعادتها تفكّر في شيء غريب، فكّرت: «لِم تقول إنّي

طفلة جميلة؟ أنا لست جميلة على الإطلاق. الصغيرة إيزوبيل ابنة الكولونيل غرانج، تلك فتاة جميلة، فهي لديها غمّازتان ووجنتان ورديّتان وشعر طويل بلون الذهب. بينما أنا شعري قصير أسود اللون، وعيناي خضراوان، كما أنّي طفلة نحيلة، وبشرتي ليست بذلك البياض مطلقاً. أنا إحدى أقبح الصغيرات اللائي رأيتهنّ في حياتي. ها هي ذي تستهل البداية باختلاق الأقاصيص».

لكنها كانت واهمة في اعتقادها بأنّها طفلة قبيحة. صحيح أنها لم تشبه إيزوبيل ابنة غرانج، التي كانت تعدّ جميلة جميلات الفوج، لكنّها كانت تملك سحراً متفرّداً بها. لقد كانت مخلوقة غضّة ونحيفة، طويلة القامة بالنسبة لعمرها، ولها وجه صغير مُعبّر وجذّاب. شعرها سميك حالك السواد، مجعّد الأطراف. وصحيح أنّ عينيها رماديّتان مخضرّتان، لكّنهما مذهلتان وواسعتان ولهما أهداب سود طوال، ورغم أنّها كانت لا تحب لون عينيها، إلا أن الكثيرين أحبّوه. لكنّ سارا، مع كلّ ذلك، كانت تمتلك اعتقاداً راسخاً مفاده أنّها صغيرة قبيحة، لذا لم تشعر بالغبطة من مديح الآنسة منشن لها إطلاقاً.

فكّرت: «سأبدو كمن يروي حكاية خياليّة إن قلت إنّها جميلة، وأنا أعلم الناس بأنها محض خيال، لاعتقادي بأنّي قبيحة مثلها، ولكن بطريقتي الخاصة. إذن ما هي غايتها ممّا قالته؟».

لكنّ سارا وبعد أن خبرت الآنسة منشن لفترة أطول، أدركت المقصد من وراء ذلك الكلام. فقد اكتشفت أنّها كانت تردّد نفس العبارات لكلّ والدين يأتيان بطفلتهما إلى المدرسة.

وقفت سارا بجانب والدها مستمعة إلى حديثه مع الآنسة منشن. لقد أُحضرت إلى هذا المعهد لأن كِلتا ابنتَي الآنسة مريديث الصغيرتين كانتا قد درستا هنا، وكان النقيب كرو يثق كامل الثقة بخبرة السيّدة مريديث. لقد كان يفترِض أن تصبح سارا واحدة ممن سيطلق عليهم لقب (نخبة المدارس الداخلية)، وكانت موعودة بأن تتمتّع بامتيازات أكبر حتّى من أولئك التلاميذ النخبويين. فهي ستحظى بغرفة نوم جميلة وغرفة جلوس خاصة بها، ومُهر صغير وعربة، وخادمة تحلّ محلّ مربّيتها التي اعتنت بها في الهند.

قال النقيب كرو بضحكته المرحة وهو يمسك بيد سارا ويربت عليها:

- لستُ قلقاً البتّة بشأن تعليمها. بل تكمن الصعوبة في منعها عن التعلم أسرع وأكثر من اللازم. فهي تمضي جلّ وقتها وأنفها محشور في الكتب. إنّها لا تقرأها يا آنسة منشن، بل تلتهمها وكأنّها ذئب صغير لا فتاة صغيرة. وهي على الدوام تتضوّر جوعاً لكتب جديدة تلتهمها، وهي تريد أن تقرأ كتب البالغين، تلك الكتب الضخمة الدسمة، باللغتين الفرنسيّة والألمانيّة بالإضافة للإنجليزيّة. في التاريخ والجغرافيا والشعر وكلّ أنواع الأشياء. لذا عليك أن تجرّيها بعيداً عن الكتب عندما تجدينها قد أسرفت في القراءة لوقت طويل. ولتدفعيها إلى امتطاء مهرها والتنزه في الشوارع أو ابتياع دُمية جديدة. عليها أن تلهو أكثر مع الدمى.

قالت سارا:

- كما ترى يا بابا، لو أنني اشتريتُ دمية كلّ بضعة أيّام، فسيصبح لديّ أكثر مما أستطيع أن أحبّه من الدمى. فالدمى وجدت لتكون كأصدقاء حميمين لنا. إميلي هي التي ستكون صديقتي الحميمة.

نظر النقيب كرو إلى الآنسة منشن فبادلته النظر. ثمّ استفسرت:

- ومن هي إميلي؟

قال النقيب كرو بابتسامة:

- أخبريها يا سارا!

بدت عينا سارا الخضراوان الرماديتان، في غاية الرزانة والعطف وهي تجيب:

- إنها دمية لم أحصل عليها بعد، وسيبتاعها لي بابا، سنذهب معاً لنبحث عنها. لقد أسميتها إميلي، وستكون صديقتي عندما يغادر بابا. أريدها كي أتحدّث معها عنه.

عندها غدت الابتسامة المريبة للآنسة منشن، أكثر تملّقاً، وقالت:

- يا لها من طفلة بديعة! يا لها من مخلوقة صغيرة أثيرة!

قال النقيب كرو وهو يسحب سارا لتقترب منه:

- أجل. إنّها مخلوقة صغيرة أثيرة. فلتعتني بها بالغ العناية لأجلي يا آنسة منشن.

أقامت سارا مع والدها في فندقه لعدّة أيّام، وفي الواقع، كانت قد بقيت معه حتّى عاد مبحراً إلى الهند. لقد تجوّلا وزارا معاً الكثير من المتاجر الكبيرة، وابتاعا العديد من الأشياء. أشياء أكثر ممّا قد تحتاج إليها سارا بكثير، لكن النقيب كرو كان شابّاً بسيطاً مندفعاً، وأراد لابنته أن تحصل على كلّ ما كان قد أعجبها، وكلّ ما كان هو بنفسه قد أعجبه. لذا فما بين رغباتها ورغباته، كانا قد انتهيا إلى جمع خزانة ثياب أكبر من أن تكون لفتاة في السابعة من عمرها. فكانت ثمّة فساتين مخمليّة مزيّنة بالفراء الثمين، وفساتين من الدانتيلا، وأخرى مطرّزة، وقبّعات مزيّنة بريش نعام طويل ناعم، ومعاطف وواقيات يدين من فرو السمّور، وصناديق من القفّازات الصغيرة والمناديل والجوارب الحريريّة، وبكميّات وفيرة، دفعت حتّى النساء الشابّات المهذّبات خلف مناضد البيع، لتبادل الهمسات فيما بينهن عن كون الفتاة الصغيرة الغريبة صاحبة العينين الوقورتين، لابد أن تكون -على الأقل- أميرة أجنبيّة ما، أو ربما ابنة صغيرة لمهراجا هندي.

في نهاية المطاف عثرا على إميلي، لكنهما قبل ذلك كانا قد زارا عدداً من متاجر الألعاب وتفقدا كمّاً كبيراً من الدمى قبل أن يجدا ضالتهما أخيراً.

قالت سارا:

- لا أريدها أن تبدو كدمية. أريد لها أن تبدو وكأنّها تستمع عندما أتحدّث معها، إنّ مشكلة الدمى يا بابا..

أمالت برأسها، وتفكّرت فيما كانت ستقوله:

- مشكلة الدمى هي أنّها لا تستمع أبداً.

وهكذا فقد تفقّدا دمىً كبيرة وأخرى صغيرة، ودمىً بعيون سود وأخرى زرق، ودمى بشعر بنّي مجعّد وأخرى بضفائر ذهبيّة، ودمى ترتدي ثياباً وأخرى دون ثياب.

قالت سارا وهما يعاينان دمية لا ترتدي ثياباً:

- كما ترى، عندما أجدها، ستكون بلا ثياب، فيمكننا حينئذٍ أن نأخذها لخيّاط يصنع لها ثياباً على مقاسها. وستناسبها أكثر إذا جرّبَتها أولاً.

وبعد سلسلة من الإحباطات، قرّرا أن يمشيا ويتفرّجا على واجهات المتاجر، على أن يلحق بهما سائق عربة الأجرة. تجاوزا متجرين أو ثلاثة دون أن يدخلا، وفيما كانا يقتربان من متجر لم يكن بذي حجمٍ، انطلقت سارا فجأة وأمسكت بذراع والدها. صاحت:

- أوه، بابا.. ها هي إميلي!

تصاعدت الحمرة في وجنتيها وبدا على عينيها الرماديّتين الخضراوين تعبير وكأنّها ميّزت للتوّ شخصاً كانت تحبّه ولها علاقة حميمة معه. قالت:

- إنّها تنتظرنا! هيا لنمضي إليها.

قال النقيب كرو:

- يا إلهي. أشعر أنّ من الواجب علينا أن نجد أحداً ما ليقدّمنا لها.

قالت سارا:

- سأقدّمك أنا ولتقدّمني أنت. لكنّني عرفتها في اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليها، لذا، فلربّما ستعرفني هي الأخرى.

ربّما تكون الدمية قد تعرّفت على إميلي بالفعل، فمن الواضح أنها كانت تحمل نظرة ذكيّة للغاية في عينيها عندما حملتها سارا بين ذراعيها. كانت دمية كبيرة، ولكنّها ليست أكبر من أن تُحمل بسهولة. كان لها شعر طبيعيّ ذهبيّ اللون مجعّد، غطّاها كالعباءة، وعيناها كانتا بلون أزرق رماديّ غامقٍ وصافٍ، ولها أهداب ناعمة كثيفة حقيقيّة وليست مجرّد خطوط مرسومة. قالت سارا وهي تتطلّع إلى وجهها وقد أجلستها على ركبتيها:

- بالتأكيد. بالتأكيد يا بابا. هذه هي إميلي.

وبذا اشتريا إميلي وأخذاها لخيّاط متخصص في ثياب الأطفال، أخذ قياساتها ليصنع لها ثياباً بنفس كمّية ثياب سارا. أصبح لديها فساتين دانتيلا وفساتين مخمليّة وقطنيّة وقبّعات ومعاطف وثياب داخليّة مزينة بالدانتيلا وقفّازات ومناديل، وفراء أيضاً. قالت سارا:

- أريدها أن تبدو كطفلة تملك أُمّاً جيّدة. أنا أمّها، رغم أني سأكون رفيقتها.

كان النقيب كرو سيستمتع بجولة التسوق هذه كثيراً، لولا أنّ

فكرة حزينة كانت تجول بخلده. وهي أنّ كلّ هذا يعني أنّه سيفارق عزيزته، رفيقته الصغيرة الغريبة.

استيقظ تلك الليلة في منتصف الليل وذهب ينظر واقفاً إلى سارا التي كانت نائمة وإميلي بين ذراعيها. كان شعرها الأسود منثوراً على الوسادة متشابكاً مع شعر إميلي البنيّ المذهّب. كلّاهما ترتديان قميص نوم له كشاكش من الدانتيلا، وكلاهما تمتلكان أهداباً طويلة ارتخت على الخدّين. بدت إميلي كطفلة حقيقيّة جعلت من النقيب كرو سعيداً لأنّها كانت هناك. تنهّد بعمق وفتل شاربيه، فيما بدا على وجهه تعبير صبيانيّ.

قال لنفسه:

- يا للحسرة يا سارا الصغيرة! لا أعتقد أنّك تعرفين كم سيشتاق إليك والدك.

في اليوم التالي، أخذها إلى معهد الآنسة منشن وتركها هناك لأنه كان سيبحر في الصباح التالي، وأخبر الآنسة منشن أنّ شركة المحاماة التي تدير أموره في إنجلترا هي للسادة بارو وسكيبوورث، وأنّهم سيقدمون لها النصح في أيّ أمر تطلبه، كما أنهم سيدفعون الفواتير التي ترسلها لأجل مصاريف سارا. وأنّه سيكتب لسارا مرّتين في الأسبوع، وطالب بأن يُسمح لها بفعل كلّ ما تريد، قائلاً:

- إنّها طفلة عاقلة ولن ترغب في شيء غير آمن.

ثم صعد مع سارا إلى غرفة الجلوس الخاصّة بها وودّع بعضهما

البعض. جلست سارا على ركبتيه ثمّ أمسكت بيديها الصغيرتين بتلابيب معطفه وأمعنت النظر إلى وجهه طويلاً وعميقاً.

قال وهو يمسّد شعرها:

- صغيرتي سارا، هل تحاولين حفظ شكلي عن ظهر قلب؟

أجابت:

- كلاّ. إنّني أحفظ شكلك تماماً يا أبي. فأنت في داخل قلبي.

ثم احتضنا وقبّلا بعضهما، كما لو أنهما لن يُفلت أحدهما الآخر.

عندما غادرت عربة الأجرة من أمام الباب، كانت سارا تجلس على أرضية غرفة الجلوس الخاصة بها، ويداها إلى أسفل ذقنها، فيما كانت عيناها تلحقان بالعربة حتّى انعطفت في زاوية الساحة. كانت إميلي تجلس إلى جانبها وتراقب العربة أيضاً. وعندما أرسلت السيّدة منشن أختها أميليا لتتفقّد حال الطفلة، وجدت أنّها لا تتمكّن من فتح الباب. قال من الداخل صوت صغير غريب بلهجة مهذّبة:

- لقد أقفلته بالمفتاح. أريد أن اختلي مع نفسي إذا سمحتِ.

كانت الآنسة أميليا هذه بدينة وقصيرة، وكانت ترتعب من أختها جداً. ورغم أنّها ذات الطبيعة الأطيب بين الأختين، إلا أنّها لم تكن تخالف أوامر الآنسة منشن أبداً. نزلت السلالم وهي تبدو قلقة. قالت:

- لم يسبق لي أن رأيتُ طفلة غريبة ورصينة كهذه يا أختي. لقد أغلقت الباب على نفسها، ولم تصدر منها أدنى جلبة، قطّ.

أجابت الآنسة منشن:

- هذا أفضل بكثير من أن تصرخ وتركل كما تفعل بعضهنّ. توقّعتُ أن فتاة مدلّلة مثلها ستقيم المنزل ولا تقعده. إذا كان ثمّة طفل أُعطي كلّ ما يريد في الحياة، فهي تلك الفتاة.

قالت الآنسة أميليا:

- لقد فتحتُ صناديقها ورتّبتُ أغراضها. لم أرَ شيئاً كهذا من قبل، فراء السمّور وابن عرس على معاطفها، ودانتيلا فالنسيانيّ حقيقيّ على ثيابها الداخليّة. أنتِ أيضاً رأيتِ بعض ثيابها. ما رأيك؟

أجابت الآنسة منشن بحدّة:

- أعتقد أنّها سخيفة تماماً. ولكنها ستبدو حسنة المظهر لكي تكون في مقدمة الصف عندما نأخذ طالبات المدرسة إلى الكنيسة يوم الأحد. لقد اعتُني بها وكأنّها أميرة صغيرة.

داخل الغرفة المغلقة في الطابق العلويّ، جلست سارا وإميلي على الأرضيّة تراقبان الانعطافة التي اختفت بعدها عربة الأجرة، فيما كان النقيب كرو ينظر خلفه ويلوّح بيده ويقبّلها، وكأنّه لا يستطيع أن يحمل نفسه على التوقّف.

(٢)

درس فرنسيّ

في الصباح التالي، عندما دخلت سارا غرفة الصفّ، راقبها الجميع بعيون فضوليّة متّسعة. وبحلول ذلك الوقت كانت جميع الطالبات قد سمعن الكثير عنها، بدءاً من لاڤينيا هربرت التي كانت تبلغ الثالثة عشر من عمرها تقريباً وتشعر بأنّها ناضجة جداً، وصولاً إلى لوتي ليج التي لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات، وهي أصغر طفلة في المدرسة.

لقد أدركن دون شكّ أنّها طالبة فخريّة بالنسبة للآنسة منشن، وأنّ في وجودها شرفاً للمؤسسة. وقد لمحت واحدة أو اثنتين منهنّ خادمتها الفرنسيّة ماربيت التي كانت قد وصلت في الليلة السابقة. وتدبّرت لاڤينيا المرور من أمام غرفتها والباب مفتوح، ورأت ماربيت وهي تفتح صندوقاً وصل متأخّراً من أحد المتاجر.

همست لصديقتها جيسي وهي تحني رأسها على كتاب الجغرافيا:

- لقد كان مليئاً بالتنّورات الداخليّة المزيّنة بكشاكش من الدانتيل، الكثير والكثير من الكشاكش. رأيتها وهي تنفضها.

وسمعت الآنسة منشن تخبر الآنسة أميليا أنّ ثيابها فاخرة إلى درجة أنّها تبدو سخيفة على طفلة. تقول أمّي إنّ على الأطفال أن يرتدوا ثياباً بسيطة. على أيّة حال، إنّها ترتدي واحدة من هذه التنّورات الداخليّة الآن، لقد رأيتها عندما كانت تهمّ بالجلوس.

همست جيسي وهي بدورها تنحني على كتاب الجغرافيا الخاصّ بها:

- إنّها ترتدي جوارب حريريّة أيضاً! يا لهما من قدمين صغيرتين! لم أرَ قدمين بهذا الصِغر من قبل.

شهقت لاڤينيا في حقد:

- أوه، إنّ ذلك يعود للطريقة التي صُنعت بها أحذيتها. تقول أمي إنّ الأقدام الكبيرة أيضاً يمكن أن تبدو صغيرة إذا ما كان لديكِ إسكافيّ حاذق. لا أعتقد أنّها جميلة أبداً، كما أنّ لون عينيها غريب.

قالت جيسي وهي تختلس النظر من خلال الغرفة:

- هي فعلاً ليست جميلة على الوجه الذي يبدو عليه الأشخاص الجميلون، ولكن، ثمّة شيء ما فيها يدفعكِ إلى إرجاع النظر إليها. أهدابُها بالغة الطول، ولون عينيها أخضر تقريباً.

كانت سارا تجلس بهدوء على مقعدها، في انتظار أن يخبرها أحد بما يجب عليها فعله، وكانت قد أُجلست بالقرب من طاولة الآنسة

منشن. لم تكن محرجة من كثرة العيون التي تراقبها، بل شعرت بالفضول، وبادلت الفتيات اللواتي نظرن إليها النظر، وتساءلت فيم يُفكّرن، وإن كنّ يحببن الآنسة منشن، وإن كنّ يُبدين اهتماماً بدروسهنّ، أو إن كان لدى أيّ منهنّ أبٌ كأبيها. في ذلك الصباح تحدّثت مع إميلي مطولاً عن والدها، قالت لها:

- إنّه الآن في البحر يا إميلي. لذا يجب أن نصبح صديقتين جيّدتين ونخبر بعضنا البعض بالأشياء. انظري إليّ يا إميلي، أنتِ تمتلكين أجمل عينين رأيتهما في حياتي، لكن ليتك تستطيعين الكلام.

كانت سارا طفلة مليئة بالخيال والأفكار الغريبة، وكانت إحدى خيالاتها تفترض أنه سيكون هنالك قدرٌ كبير من الراحة التي تنشدها، لو تظاهرت أن إميلي حيّة وأنّها تستطيع أن تسمع وتفهم. بعد أن ألبسَتها مارييت ثوبها المدرسيّ الأزرق الداكن وربطت شعرها بشريط له نفس اللون، ذهبت سارا إلى حيث تجلس إميلي على مقعد خاص بها وأعطتها كتاباً، ثم قالت:

- يمكنُك أن تقرئي هذا عندما أكون في الطابق الأسفل.

وعندما لاحظت أنّ مارييت تراقبها بفضول، قالت لها بوجه صغير جاد:

- ما أعتقده بشأن الدمى هو أنها تقدم على فعل أشياء لن تدعنا نعرف بشأنها. ولربّما كان حقاً بإمكان إميلي أن تقرأ وتتكلّم وتتحرّك، لكنّها تفعل ذلك فقط عندما لا يكون هناك أحد

في الغرفة. هذا هو سرّها. وكما ترين، فلو عرف الناس أنّ الدمى تستطيع فعل الأشياء فسوف يسخّرونها للعمل. لذا، على الأغلب، تعاهدت الدمى مع بعضها بإبقاء الأمر سرّاً. إذا بقيتِ في الغرفة، فستبقى إميلي جالسة في مكانها تحدّق، ولكن إن خرجتِ، فهي على الأغلب ستبدأ بقراءة الكتاب، أو ربما تنهض وتتفرّج من النافذة. وعندما تسمع أنّ إحدانا عائدة إلى الغرفة، فأنّها تسرع عائدة أيضاً، وتقفز إلى مقعدها وتتظاهر على أنّها كانت هناك طوال الوقت.

قالت مارييت لنفسها بالفرنسيّة:

- كم هي مضحكة!

وعندما نزلت إلى الأسفل، أخبرت مدبّرة المنزل بما حدث. لكنها كانت قد بدأت تحبّ هذه الفتاة الصغيرة الغريبة ذات الوجه الصغير الذكيّ والأخلاق الحسنة. سبق لمارييت أن قامت على رعاية أطفال غير مهذّبين، بينما كانت سارا، فتاة صغيرة مهذبة، ولديها طريقة لطيفة تُظهر فيها امتنانها وهي تقول «شكراً مارييت»، «لو سمحتِ مارييت»، وقد كان هذا ساحراً للغاية. أخبرت مارييت مدبّرة المنزل أنّها كانت تقدّم شكرها كما لو أنها تقدّمه لسيّدة. وقالت بالفرنسيّة «هذه الصغيرة، تشبه الأميرات». حقيقة، لقد كانت سعيدة للغاية مع سيّدتها الصغيرة الجديدة، كما أنّها أحبّت المكان كثيراً.

بعد أن جلست سارا على مقعدها في الصفّ لبضع دقائق

والطالبات يراقبنها، طرقت الآنسة منشن بطريقة وقورة على منضدتها قائلة:

- أيّتها الآنسات الشابّات، أقدّم لكنّ زميلتكنّ الجديدة.

وقفت الفتيات الصغيرات في أماكنهنّ، ووقفت سارا أيضاً. أكملت:

- أتوقّع منكنّ أن تكنّ لطيفات مع الآنسة كرو، فقد أتت إلينا للتوّ من مكان بعيد للغاية، من الهند بالتحديد. وبمجرد أن تنتهي الدروس عليكنّ أن تتعرّفن على بعضكنّ.

انحنت الطالبات بطريقة رسميّة، فقامت بالمقابل سارا بانحناءة صغيرة، ثم جلسن من جديد وعُدن لتبادل النظر.

قالت الآنسة منشن بذلك الأسلوب الذي يُستخدم داخل الفصل الدراسي:

- سارا، تعالي إلى هنا!

كانت قد التقطت كتاباً من على منضدتها وأخذت تقلّب صفحاته، أطاعتها سارا في أدب. قالت:

- بما أنّ والدك أحضر لك خادمة فرنسيّة، فقد استنتجتُ أنّه يرغب في أن تدرسي اللغة الفرنسيّة بشكل خاص.

شعرت سارا بشيء من الإحراج، قالت:

- أعتقد أنّه أحضرها، لأنّه.. لأنّه اعتقد أنّي سأحبّها يا آنسة منشن.

قالت الآنسة منشن بابتسامة فجّة خفيفة:

- أخشى أنّكِ لطالما كنت فتاة صغيرة مدلّلة، وتتوقعين أنّ الأشياء تحدث فقط لأنّها تعجبك. لكنّ انطباعي هو أنّ والدك أراد لك أن تتعلّمي الفرنسيّة.

ولو أنّ سارا كانت أكبر عمراً، أو أقلّ حرصاً على أدبها مع الناس، لكانت شرحت موقفها بكلمات قليلة للغاية. لكن لكونها على الطبيعة التي هي عليها، فقد شعرت بالحمرة تتصاعد في خديّها. كانت الآنسة منشن شخصية جافة وتحبّ فرض إرادتها، لذا بدت متأكّدة للغاية أنّ سارا لا تعرف أيّ شيء عن الفرنسيّة، فشعرت سارا بأنّه سيكون من قلّة التهذيب أن تصحّح لها خطأها. والحقيقة أنّ سارا لا تتذكر وقتاً مرّ عليها لم تكن تعرف فيه الفرنسيّة. كان والدها يتحدّث معها بالفرنسيّة منذ أن كانت طفلة صغيرة، فقد كانت أمها امرأة فرنسيّة، وكان النقيب كرو يحبّ لغتها، لذا كانت سارا تسمعها دائماً وتألفها. قالت بخجل، محاوِلة أن توضّح موقفها:

- أنا.. أنا لم أتعلّم الفرنسيّة من قبل، لكن.. لكن..

إنّ أحد أكبر أسرار الآنسة منشن التي تضايقها هي أنّها نفسها لا تتحدّث الفرنسيّة، وكانت تودّ إخفاء هذه الحقيقة المزعجة. لذا لم تكن لديها نيّة مناقشة الأمر وتعريض نفسها للمساءلة البريئة من قبل طالبة جديدة صغيرة.

قالت في سخطٍ مهذّب:

- يكفي هذا. إذا كنتِ لم تتعلّمي فيجب أن تبدئي فوراً. معلّم اللغة الفرنسيّة، مسيو دوڤارج، سيكون هنا خلال دقائق. خذي هذا الكتاب وراجعيه ريثما يصل.

شعرت سارا بحرارة في خدّيها. عادت إلى مقعدها وفتحت الكتاب. تفقدّت الصفحة الأولى بوجه متجهّم. كانت تدرك أنّه سيكون من الوقاحة أن تبتسم، وكانت مصمّمة على أن لا تكون وقحة. ولكنّها كانت تجده أمراً غريباً أن يُتوقع منها دراسة صفحة كُتب فيها أنّ (le père) تعني الأب، وأنّ (la mère) تعني الأمّ.

راقبتها الآنسة منشن بدقة. قالت:

- تبدين منزعجة يا سارا، من المؤسف أنّك لا تحبّين فكرة تعلّم الفرنسيّة.

أجابت سارا، وهي تنوي أن تحاول ثانية:

- أنا مولعة بها، لكن..

عندها قالت الآنسة منشن:

- يجب أن لا تقولي (لكن) عندما تُؤمرين بفعل الأشياء، انظري في كتابك!

فعلت سارا ما أُمرت به، ولم تبتسم حتّى عندما قرأت أنّ (le fils) تعني الابن، وأنّ (le frère) تعني الأخ. وفكّرت: «عندما يأتي مسيو دوڤارج، سأشرح له الأمر».

بعدها بقليل وصل مسيو دوڤارج. كان رجلاً فرنسيّاً في منتصف

العمر، يبدو عليه الذكاء واللطف، وبدا فضولياً عندما وقعت عيناه على سارا وهي تحاول بأدب أن تُظهر نفسها مستغرقة في كتاب العبارات الصغير.

قال للآنسة منشن:

- هل هذه هي طالبتي الجديدة يا آنسة؟ أتمنى أن يكون حظّي جيداً.

قالت الآنسة منشن:

- إنّ أباها النقيب كرو متلهّف لأن تتعلّم ابنته اللغة. لكن ما أخشاه هو أنّها تملك تحيّزاً طفوليّاً ضدّها. يبدو أنّها لا تريد أن تتعلّم.

قال لسارا بعطف:

- هذا مؤسف يا مدموزيل. فلربّما أستطيع أن أظهر لك أيّة لغة ساحرة هي، عندما نبدأ بالتعلّم معاً.

وقفت سارا الصغيرة في مكانها. كانت قد بدأت تفقد الأمل وشعرت وكأنّها قامت بفعل مُشين. نظرت إلى وجه مسيو دوڤارج بعينيها الخضراوين الرماديّتين الواسعتين، ولكم كانتا تسحران ببراءة. كانت تعلم أنّه سيفهم بمجرد أن تبدأ التحدّث. فبدأت تشرح ببساطة وبلغة فرنسيّة سلسلة وجميلة، بأن مدام منشن لم تفهمها. صحيح أنّها لم تتعلم الفرنسيّة من الكتب، لكنّ أباها والأشخاص الآخرين كانوا يحاورونها بها. وقد تعلّمت قراءتها وكتابتها بمثلما

تعلّمت قراءة وكتابة اللغة الإنجليزيّة. بابا يحب اللغة الفرنسيّة، وهي بدورها كانت تحبّها لأنه أحبّها. أمّها العزيزة التي توفّيت عندما ولدتها كانت امرأة فرنسيّة. وستكون بالتأكيد سعيدة لتعلّم أيّ شيء يعلّمها إيّاه المسيو، لكنّ ما كانت تحاول شرحه للمدام هو أنّها تعرف العبارات المكتوبة في الكتاب بالفعل.

ثم حملت كتاب العبارات الصغير، وعندما بدأت تقرأ، طفحت الآنسة منشن بالغضب، ثمّ حدّقت بسارا بسخط من فوق نظّارتيها حتّى انتهت. علت وجه مسيو دوڤارج ابتسامة رضىً عظيم، فسماع هذا الصوت الطفوليّ الجميل يتحدّث لغته ببساطة وجمال جعله يشعر وكأنّه في بلاده التي تبدو له أحياناً بعيدة للغاية في الأيّام اللندنيّة الضبابيّة المعتمة. وعندما انتهت، أخذ منها كتاب العبارات بنظرة محبّة، ووجّه حديثه للآنسة منشن، قائلاً:

– آه، مدام. لا يوجد الكثير لأعلّمها إيّاه. أنّها لم تتعلّم الفرنسيّة، أنّها فتاة فرنسيّة لكنتُها متقنة.

استدارت الآنسة منشن لسارا وصاحت وهي تشعر بالخزي:

– كان عليكِ إخباري!

قالت سارا:

– أنا.. أنا حاولت. أعتقد.. أعتقد أنّي لم أشرح الأمر جيّداً.

كانت الآنسة منشن تعلم أنّها حاولت، وأنّه لم يكن خطؤها أنّها لم تسمح لها بشرح الأمر. ولكن عندما رأت أنّ الطالبات كنّ

يستمعن، وأن لافينيا وجيسي كانتا تقهقهان خلف كتاب قواعد اللغة الفرنسيّة، شعرت بغضب عارم.

قالت بعصبية وهي تضرب على الطاولة:

- صمتاً، أيتها الشابّات! اصمتن حالاً!

وبدأت منذ تلك اللحظة، تضمر الضغينة لتلميذتها الفخريّة.

(٣)
إرمينغارد

في صباح اليوم الأوّل ذاك، عندما جلست سارا بجانب الآنسة منشن، وهي مدركة أنّ الصف بأكمله كان يكرّس نفسه لمراقبتها، انتبهت بعد مدّة وجيزة إلى أنّ هنالك فتاة صغيرة معيّنة، قريبة من عمرها، تنظر إليها نظرة فاحصة بعينين زرقاوين باهتتين، يظهر عليهما شيء من البلادة. كانت طفلة بدينة لا يبدو عليها الذكاء بأيّة حال، لكنّها تملك فماً يوحي بالطيبة، مبرطماً. شعرها قشّي اللون مضفور في جديلة مربوطة بشريط، وكانت قد سحبت ضفيرتها حول رقبتها، وأخذت تعضّ طرف الشريط، متّكئة بمرفقيها على الطاولة، وهي تحدق في الطالبة الجديدة بدهشة. عندما بدأ مسيو دوفارج يتحدث مع سارا، بدت الفتاة خائفة قليلاً، وعندما تقدمت سارا ونظرت إليه بعينيها البريئتين الجذّابتين، وبدون سابق انذار أجابته بالفرنسيّة؛ جفلت الفتاة الصغيرة البدينة، واحمرّت من فرط ذهولها ودهشتها. هي كانت قد ذرفت دموع اليأس لأسابيع وهي تحاول أن تتذكر أن (la mère) تعني الأم وأنّ (le père) تعني الأب؛ عندما يتحدث المرء بإنجليزية معقولة.

بدا أكثر من قابليتها على الاستيعاب أن تجد نفسها بغتة وهي تستمع إلى طفلة في نفس عمرها، ولم تكن تلك الطفلة تألف هذه الكلمات فحسب، بل وغيرها الكثير، كما وتستطيع مزجها مع الأفعال وكأنّها مجرّد تفاهات.

كانت تحدّق في الطالبة الجديدة بتركيز وتعضّ طرف الشريط بسرعة لدرجة اثارت معها انتباه الآنسة منشن، التي كانت تشعر بغضب شديد في تلك اللحظة، فانقضّت عليها على الفور.

صاحت بصرامة:

- آنسة سانت جون! ماذا تعنين بتصرفك هذا؟ أنزلي مرفقيك! أخرجي شريطك من فمك! قوّمي جلستك فوراً!

إثر ذلك جفلت الآنسة سانت جون مرّة أخرى، وعندما بدأت لافينيا وجيسي تضحكان ضحكة مكتومة، احمرّ وجهها أكثر من أيّ وقت مضى، حتّى بدا وكأن الدموع ستطفر من عينيها المسكينتين البليدتين الطفوليتين. رأتها سارا وشعرت بالأسف لأجلها لدرجة أنّها أحبّتها وأرادتها لتصبح صديقتها. فلطالما كان في طبيعتها أنّها تثِب إلى أي نزاعٍ ترى فيه شخصاً حزيناً أو منزعجاً.

اعتاد والدها أن يقول:

- لو أنّ سارا كانت صبيّاً وعاشت قبل بضعة قرون، لمضت في البلاد شاهرة سيفها، لتُنقذ وتدافع عن كلّ شخص يقع في ضائقة. إنّها ترغب في القتال دوماً عندما ترى أناساً متورّطين في متاعب.

لذا فإنّها أُعجبت بالآنسة جون البدينة والبليدة، وظلّت تتلفّت باتّجاهها طوال النهار. رأت أنّ الدروس لم تكن سهلة بالنسبة إليها، وأنّها لم تكن بأيّة حال في خطر أن يُفسدها أحد بتدليلها كطالبة فخريّة. كانت دروسها الفرنسيّة مثيرة للشفقة. نطقها كان يجعل مسيو دوڤارج يبتسم رغماً عنه، بينما لاڤينيا وجيسي وبقية الفتيات الأوفر حظاً يقهقهن أو يحدّقن بها في ازدراء وتعجّب. لكنّ سارا لم تضحك. حاولت أن تتظاهر بأنّها لم تسمع الآنسة سانت جون وهي تنطق جملة (le bon pain) التي تعني: خبز لذيذ (لو بونغ بانغ). كانت تملك مزاجاً عصبيّاً حادّاً صغيراً خاصّاً بها، فشعرت بحسّ التوحّش يستيقظ في داخلها عندما سمعت الضحكات المكتوّمة، ورأت وجه الطفلة البليدة المسكينة المنكوبة.

قالت من بين أسنانها المطبقة وهي تنحني على كتابها:

- هذا ليس مضحكاً بالمرّة. يجب ألّا يضحكن.

عندما انتهت الدروس وتجمّعت الطالبات في مجموعات ليتحدّثن، راحت سارا تبحث عن الآنسة سانت جون، فوجدتها متكوّمة على نفسها بتعاسة فوق المقعد المجاور للنافذة، فكان أن ذهبت إليها وتحدّثت معها. وقالت فقط تلك الأشياء التي تردّدها الفتيات الصغيرات لبعضهنّ دائماً كطريقة لبدء التعارف. كان هنالك شيء ودود في طبيعة سارا، وكان الناس يشعرون به دائماً.

قالت:

- ما اسمُك؟

ولنفهم سبب اندهاش الآنسة سانت جون، يجب أن يتذكّر المرء أنّ أيّة طالبة جديدة، تبقى مخلوقاً غامضاً إلى حدّ ما لبعض الوقت، وهذه الطالبة الجديدة بالذات تحدّثت عنها المدرسة كلّها طوال الليلة السابقة، حتّى نام الجميع من التعب والحماس والقصص المتناقضة. طالبة جديدة قدمت في رحلة بحريّة من الهند، وتملك عربة ومهراً وخادمة. إن عليهنّ مناقشة كلّ هذه الأمور، ولم يكن هذا بالشيء المعتاد.

أجابت:

- اسمي هو إرمينغارد سانت جون.

قالت سارا:

- اسمي هو سارا كرو، اسمك جميل للغاية. يبدو كعنوان لكتاب حكاية.

قالت إرمينغارد بارتباك:

- هل يعجبك؟ أنا.. أنا يعجبني اسمك.

كانت المشكلة العظمى في حياة الآنسة سانت جون هي أنّها تملك أباً ذكيّاً، وكان هذا يشكّل مصيبة كبيرة بالنسبة لها. فإذا كان والدك يعرف كلّ شيء، ويتحدث سبع أو ثمان لغات، ويملك آلاف المجلّدات التي يحفظها عن ظهر قلب، فإنّه يتوقّع منك أن تعرفي محتويات كتبك الدراسيّة على الأقل، وليس مستبعداً أن يشعر بأنّ عليك تذكّر بعض حوادث التاريخ، وأن تكتبي دروساً بالفرنسيّة.

بالمقابل كانت إرمينغارد محنة قاسية وقعت على السيد سانت جون. فهو لم يستطع أن يفهم أبداً كيف يمكن أن تكون ابنته بوضوح لا ريب فيه، مخلوقاً بليداً لا يفلح في أيّ شيء.

لقد قال وأكثر من مرة، فيما كان يحدّق فيها:

- يا إلهي الرحيم! أحياناً أعتقد أنّها بلهاء كعمّتها إليزا!

ولو كانت عمّتها إليزا بطيئة التعلّم وسريعة النسيان لكلّ شيء تتعلّمه، فإنّ إرمينغارد ستضاهيها بطريقة مدهشة. لقد كانت النصب الرمزي للغباء في المدرسة، ما من إنكار لهذا.

قال والدها للآنسة منشن:

- يجب أن تجبريها على التعلّم.

نتيجة لذلك، أمضت إرمينغارد النصيب الأكبر من حياتها في تعاسة أو في نحيب. تعلّمت الأشياء ونسيتها، ولو تذكّرتها، فلا تفهمها، لذا كان من الطبيعيّ، مادام أنّها تعرفت على سارا، أن تجلس وتحدّق بها بإعجاب عميق.

قالت باحترام:

- هل تستطيعين التحدّث بالفرنسيّة؟

جلست سارا مقرفصة على المقعد المجاور للنافذة، وكان كبيراً وعميقاً، ثمّ شبكت ذراعيها حول ركبتيها.

أجابت:

- أستطيع أن أتحدّث بها لأني سمعتها طوال حياتي. كنتِ ستستطيعين التحدّث بها لو أنّك سمعتها دائماً.

قالت إرمينغارد:

- أوه، لا، لم أكن لأستطيع. لن أستطيع تحدّثها أبداً.

استفسرت سارا بفضول:

- لماذا؟

هزت إرمينغارد رأسها فتأرجحت ضفيرتها. قالت:

- لقد سمعتني للتوّ. أنا هكذا دائماً. لا أستطيع نطق الكلمات. إنّها غريبة للغاية.

توقّفت للحظة، ثم قالت في صوتٍ يحمل شيئاً من الذهول:

- أنتِ ذكية، ألستِ كذلك؟

تطلّعت سارا عبر النافذة إلى الساحة الكئيبة، حيث تقفز وتغرّد عصافير الدوريّ على الأسيجة الحديديّة المنداة وأفرع الأشجار التي يقترب لونها من لون السخام. فكّرت لعدّة لحظات. لقد سمعَت الناس يطلقون عليها كلمة (ذكيّة) هذه في العديد من المرّات، وتساءلت إن كانت هي كذلك بالفعل. ولو كانت كذلك فكيف حصل هذا.

قالت:

- لا أعرف. لست متأكّدة.

لكن عندما رأت نظرة حزينة تعلو الوجه المستدير الممتلئ، أطلقت ضحكة قصيرة وغيّرت الموضوع.

سألتها:

- هل تحبّين أن تري إميلي؟

فسألتها إرمينغارد، كما فعلت الآنسة منشن من قبل:

- من هي إميلي؟

قالت سارا وهي تمسك بيدها:

- تعالي إلى غرفتي وسترين.

قفزتا معاً من على المقعد المجاور للنافذة وصعدتا إلى الطابق العلويّ. همست إرمينغارد وهما تقطعان الردهة:

- هل هذا صحيح؟ أصحيح أنك تملكين غرفة لعب خاصة بكِ؟

أجابتها سارا:

- أجل، طلب بابا من الآنسة منشن أن تسمح لي بالحصول على واحدة، لأنّي.. حسناً، هذا لأنّي عندما ألعب أخترع قصصاً وأحكيها لنفسي، ولا أحب أن يسمعني الناس. لأن الحكايات تفسد لو عرفت أنّ هنالك من يستمع إلي.

كانتا قد وصلتا في هذه الأثناء إلى الممرّ الذي يقود إلى غرفة سارا، فتوقفت إرمينغارد فجأة وحدّقت بها وقد انقطعت أنفاسها.

شهقت:

- تخترعين القصص! هل تستطيعين فعل ذلك؟ وتتحدثين الفرنسيّة أيضاً؟ هل تستطيعين فعل ذلك؟

نظرت إليها سارا باستغراب بسيط، وقالت:

- لماذا؟ يستطيع أيّ شخص اختلاق الأشياء، ألم تحاولي من قبل؟

ثم وضعت يدها في حذر على يد إرمينغارد.

همست:

- لنقترب من الباب بهدوء، وسأفتحه فجأة، ولربما نستطيع الإمساك بها.

كانت نصف ضاحكة ولكن في عينيها لمحة من أمل غامض فتنت إرمينغارد، وعلى الرغم من أنّها لم تكن تملك أدنى فكرة عما تعنيه بكلامها، أو بمن تريد أن (تمسك) أو لماذا تريد أن تمسك بها. أيّاً كان ما تقصده، فقد كانت إرمينغارد متأكّدة من أنّه شيء مثير للبهجة. لذا لحقت بها على أطراف أصابعها على طول الممرّ وهي مفعمة بالترقب. لم تصدرا أيّ صوت حتّى وصلتا إلى الباب، ثم أدارت سارا المقبض فجأة، وفتحته على وسعه. فظهرت الغرفة هادئة مرتبة، والنار تشتعل بلطف في الموقد، وبجوارها دمية رائعة تجلس على مقعد وتقرأ كتاباً على ما يبدو.

أوضحت سارا:

- أوه، لقد عادت إلى مقعدها قبل أن نراها! إنّهن بالتأكيد يفعلن هذا دائماً. إنّهن سريعات كالبرق.

نقلت إرمينغارد نظرها بين سارا والدمية ثم عادت تنظر إليها من جديد. سألتها مندهشة:

- هل تستطيع... المشي؟

أجابت سارا:

- أجل. على الأقل أنا أعتقد ذلك. أو أتظاهر أنّني أصدّق أنّها تستطيع. وهذا يجعل الأمر يبدو حقيقيّاً. ألم تتظاهري ببعض الأمور من قبل؟

قالت إرمينغارد:

- لا. أبداً. أنا.. حدثيني عن ذلك.

كانت مسحورة بهذه الرفيقة الجديدة الغريبة، حتّى أنّها حدّقت في سارا بدلاً من إميلي، على الرغم من أن إميلي كانت أكثر دمية جذّابة رأتها في حياتها.

قالت سارا:

- فلنجلس، وسأخبرك. إنّه أمر سهل لدرجة أنّكِ عندما تبدئين فلا تستطيعين التوقف. وستستمرّين وتستمرّين في فعل ذلك دائماً، وهو أمرٌ جميل. اسمعي إميلي، هذه إرمينغارد سانت جون. إرمينغارد هذه إميلي. هل ترغبين بحملها؟

قالت إرمينغارد:

- أوه، يا إلهي، هل لي أن أفعل؟ حقاً؟ إنّها جميلة للغاية!

ووضعت سارا إميلي بين ذراعيها.

لم تحلم الآنسة سانت جون من قبلُ، خلال حياتها القصيرة المملّة، أن تحظى بساعة كتلك التي قضتها مع الطالبة الجديدة الغريبة، قبل أن تسمعا جرس وجبة الغداء، فتضطرّان للنزول إلى الأسفل.

جلست سارا على السجادة قرب المدفأة وحكت لها عن أشياء غريبة. كانت تجلس متكوّمة على نفسها وعيناها الخضراوان تلتمعان وخدّاها محمرّان. حكت لها قصصاً عن الرحلة البحريّة، وقصصاً عن الهند، ولكن أكثر ما سحر إرمينغارد هو خيالها المتعلّق بالدمى التي تمشي وتتكلّم وتستطيع فعل أيّ شيء تريده عندما يخرج البشر من الغرفة، ولكن عليها إبقاء قوتها سريّة، لذا تسرع عائدة لأماكنها (كالبرق) عندما يعود البشر.

قالت سارا بجديّة:

- لم نستطع فعل ذلك، إنّه نوع من السحر كما ترين.

ولكن عندما بدأت تروي قصّة البحث عن إميلي، رأت إرمينغارد أن وجهها قد تغيّر فجأة. كأن سحابة مرّت عليه وأطفأت النور في عينيها المشعّتين. كانت تجرّ أنفاسها بحدّة حتّى أخذت تُصدر صوتاً صغيراً مضحكاً وحزيناً. ثم أغلقت شفتيها وأبقتهما مغلقتين بإحكام. وكأنّها مصممة على فعل أو عدم فعل شيء. خطر

لإرمينغارد أنّها لو كانت كأيّة فتاة أخرى صغيرة، لانفجرت بالبكاء والدموع، ولكنها لم تفعل.

تجرأت إرمينغارد على سؤالها:

- هل.. هل تتألّمين؟

أجابت سارا بعد لحظة من الصمت:

- أجل. ولكن الألم ليس في جسدي.

ثم أضافت بصوت منخفض حاولت أن تحافظ عليه ثابتاً:

- هل تحبين والدك أكثر من أيّ شيء آخر في العالم؟

فغرت إرمينغارد فاها. كانت تعلم أنه سيكون بعيداً عن التصرّف كطفلة محترمة في معهد النخبة لو أنها قالت لم يخطر ببالها من قبل أنّ باستطاعتها أن تحبّ والدها، وأنّها مستعدة لفعل أي شيء لتجنّب البقاء في حضرته ولو لعشر دقائق؛ لذا كانت حقّاً محرجة بشدة.

تلعثمت:

- أنا.. أنا يندر أن أراه. إنّه في المكتبة طوال الوقت... يقرأ.

قالت سارا:

- أنا أحبّ والدي أكثر من أيّ شيء في العالم بعشر مرات. هذا هو ما يؤلمني. لقد ذهب بعيداً.

ووضعت رأسها بهدوء على ركبتيها الصغيرتين المثنيّتين، وبقيت ساكنة لعدة دقائق.

فكرت إرمينغارد في خوف: «لا بدّ أنها ستنفجر بالبكاء».

ولكنها لم تفعل. تشابكت خصلات شعرها الأسود القصير حول أذنيها وظلّت ساكنة في مكانها. ثم قالت دون أن ترفع رأسها:

- لقد وعدتُه أن أتحمّل الأمر. وسأفعل. عليكِ الاحتمال. فكّري بما يتحمّله الجنود! بابا جنديّ. إذا كانت هناك حرب فسيكون عليه أن يتحمّل الزحف والعطش، وربما حتّى الجروح العميقة. ولن يفوه بكلمة، ولا حتّى واحدة.

لم تستطع إرمينغارد فعل شيء سوى أن تحدّق بها، ولكن شعرت أنّها بدأت تتعلّق بها. فقد كانت رائعة ومختلفة للغاية عن البقيّة.

من ثم رفعت سارا رأسها وعلى وجهها ابتسامة صغيرة غريبة وهزّت خصلات شعرها لتعود إلى مكانها.

قالت:

- إذا استمرّيتُ في التحدّث والتحدّث، وإخبارك بأشياء عن التظاهر، فسأتحمّل الأمر بشكل أفضل. لا يمكن النسيان، ولكن يمكن التحمّل على نحو أفضل.

لم تعرف إرمينغارد لِمَ شعرت بغصّة في حلقها وبالدمع يكاد يطفر من عينيها.

قالت بصوت مبحوح:

- لافينيا وجيسي صديقتان حميمتان، أتمنّى لو نصبح صديقتين

حميمتين مثلهما، هل تقبلين أن أكون صديقتك؟ أنتِ ذكية وأنا أغبى طفلة في المدرسة، ولكنّي معجبة بكِ!

قالت سارا:

- أنا سعيدة بذلك. يشعر المرء بالامتنان عندما يُعجب الناس به. أجل، سنصبح صديقتين. ودعيني أخبرك شيئاً..

شعّ وجهها ببصيص نورٍ مفاجئ:

- أستطيع مساعدتك في دروسك الفرنسيّة.

(٤)

لوتي

لو كانت سارا طفلة ذات طبيعة غير تلك التي هي عليها، لكان للسنوات العديدة اللاحقة التي عاشتها في معهد النخبة الخاصّ بالآنسة منشن، تأثير غير صالح عليها. فقد تمّت معاملتها وكأنّها ضيفة مميّزة في المؤسّسة أكثر من كونها مجرّد طفلة صغيرة. ولو كانت طفلة عنيدة ومتعنّتة، لأصبحت بغيضة لدرجة لا يستطيع أحد تحمّلها، من كثرة الدلال والمديح. ولو كانت طفلة كسولة، لما تعلّمت أي شيء. كانت الآنسة منشن تمقتها سرّاً، لكنها كانت أكثر فِطنة من أن تفعل أو تقول شيئاً قد يجعل طالبة مرغوبة كهذه تتمنّى مغادرة مدرستها. فقد أيقنت تماماً أنّها لو كتبت لوالدها تخبره بأنّها غير مرتاحة أو غير سعيدة، لأخرجها من المدرسة على الفور. وتعتقد آنسة منشن أنّه إذا ما مُدحت الطفلة دائماً ولم تُمنع من فعل أيّ شيء تريده؛ فستحبّ المكان الذي تحصل فيه على مثل هذه المعاملة. لذا كانت سارا تُمدح على نباهتها في دروسها، وعلى أخلاقها الحسنة، وعلى حسن تعاملها مع زميلاتها الطالبات، وعلى كرمها إذا ما

أعطت ستّة بنسات لمتسوّل من محفظتها الصغيرة الممتلئة. كان أقلّ تصرفٍ منها يُعدّ فضيلة، ولو لم تكن نزّاعة للتنظيم ولم تملك عقلاً صغيراً ذكيّاً، فلربما آلت إلى فتاة صغيرة متعالية جداً. ولكن عقلها الصغير الذكيّ كان يخبرها بالكثير من الأمور المتعقّلة والحقيقية عن نفسها ووضعها. مع مضيّ الوقت وبين الحين والآخر كانت تخبر إرمينغارد بهذه الأمور.

اعتادت على أن تقول:

- تحصل الأشياء للناس صدفة، وقد حدثت لي الكثير من الصدف الجيّدة. منها أنيّ وجدت نفسي أحبّ الدروس والكتب، وأنّ إمكاني تذكّر الأشياء عندما أتعلّمها. وحصل أنّي وُلدت لأب جميل ولطيف وذكيّ، يستطيع أن يعطيني كلّ ما أحبّ. ربّما في الحقيقة، لستُ مجبولة على حسن الخلق، لكن لو امتلكتِ كلّ ما تريدين وكان الجميع لطفاء معكِ، ما عساك ستكونين غير ذلك؟ لست متيقّنة..

وبدت جديّة للغاية وهي تقول:

- كيف عساي التيقّن من حقيقتي، إن كنت طفلة لطيفة بحق أم فظيعة. ربّما كنتُ طفلة شنيعة، ولن يعرف أحد أبداً، لمجرد أنّي لم أُمتحن أبداً.

قالت إرمينغارد ببلادة:

- لاڤينيا لم تمرّ بأية محنة، وهي فظيعة بما يكفي.

فركت سارا طرف أنفها الصغير وهي تقلّب المسألة في عقلها. ثم قالت أخيراً:

- حسناً، ربما.. ربّما يكون السبب هو أن لاڤينيا تكبر.

كانت هذه نتيجة ذاكرة خيّرة، إذ سمعت الآنسة أميليا تقول أن لاڤينيا أخذت تكبر بسرعة أثّرت على صحّتها وطباعها.

لكن في الحقيقة، كانت لاڤينيا فتاة حقودة، ومغالية في غيرتها من سارا. فحتّى وصول الطالبة الجديدة، كانت تشعر أنّها زعيمة المدرسة. وقد تزعّمت لأنّها كانت تستطيع أن تصبح كريهة للغاية إذا لم تُطعها الأخريات. فهيمنت على الفتيات الصغيرات، وفرضت هيبتها على الفتيات الكبيرات بما فيه الكفاية لكي يكنّ زميلات لها. كما أنّها كانت جميلة، وكانت صاحبة أفضل ثياب عندما تخرج طالبات معهد النخبة في موكب من اثنتين اثنتين إلى الخارج، كان ذلك قبل أن تظهر معاطف سارا المخمليّة وواقيات الآذان المصنوعة من فرو السمّور، ثم أضف لذلك ريش النعام المتدلّي، وأصبحت تقف في مقدمة الصفّ الذي تقوده الآنسة منشن. كان هذا مريراً بما فيه الكفاية في البداية، ومع مرور الوقت أصبح من الواضح أن سارا زعيمة أيضاً، وليس بسبب كونها كريهة، بل العكس، لأنّها لم تكن كذلك أبداً.

كانت جيسي تزيد من سخط «صديقتها الحميمة» عندما تقول لها بصدق:

- هناك أمر واحد يتعلّق بسارا كرو، إنّها لا تتباهى بنفسها ولا

حتّى قليلاً، وأنتِ تدركين أنّ لها ذلك لو فعلت يا لافي. عن نفسي أعلم أنّني لن أستطيع مقاومة القليل من التباهي، لو كنت أملك كلّ هذه الأشياء الجميلة وأثير حولي كلّ هذا الضجيج. وكم هي مقرفة الطريقة التي تتفاخر فيها الآنسة منشن بها عند قدوم الأهالي.

قالت لاڤينيا مقلّدة الآنسة منشن، في قمّة المبالغة في محاكاتها: «على سارا العزيزة القدوم إلى غرفة الاستقبال للتحدث مع السيّدة موسغريف عن الهند».

«على سارا العزيزة التحدث بالفرنسيّة مع السيّدة بيتكين، لهجتها مثالية».

ليس في الأمر ذكاء من ناحيتها أنها تعرف للغة، لقد قالت بنفسها إنّها لم تدرسها أبداً، والتقطتها فقط لأنّها كانت تسمع والدها يتحدث بها. وبالنسبة لوالدها فليس هناك ما يدعو للعظمة في كونه ضابطاً هندياً.

قالت جيسي ببطء:

- حسناً، لقد اصطاد عدّة نمور. أحدها الذي يوجد جلده في غرفة سارا. لهذا تحبّه كثيراً. إنّها تستلقي عليه وتربت على رأسه، وتتحدث معه وكأنه قطّ.

استشاطت لاڤينيا:

- إنّها تقوم بأشياء سخيفة دائماً. ماما تقول إنّ طريقتها في

التظاهر بالأمور سخيفة، وتقول إنّها ستصبح غريبة الأطوار عندما تكبر.

وكان ذلك صحيحاً تماماً، لم تكن سارا فتاة «متباهية» قط، بل كانت روحاً صغيرة ودودة، شاركت امتيازاتها وممتلكاتها مع الآخرين بسخاء. الفتيات الصغيرات اللواتي اعتدن على معاملة الاحتقار وعلى أن تأمرهن السيدات الناضجات اللواتي تبلغ أعمارهن عشر سنوات أو اثنتي عشر بالابتعاد عن الطريق، لم تبك أيّ منهن قطّ بسبب هذه الفتاة التي يحسدها الجميع. كانت فتاة صغيرة ذات نزعة أمومة، وعندما كانت تسقط إحداهن وتجرح ركبتها، كانت تركض إليها لتساعدها وتربت عليها، وتخرج من جيبها حلوى أو أيّ شيء آخر يهدّئها. لم تطردهن أبداً، ولم تلمّح إلى كون أعمارهنّ الصغيرة سبباً للسخرية أو الازدراء.

قالت ذات مرّة للاڤينيا بصرامة عندما –لا بد من الاعتراف بالأمر– قامت بصفع لوتي ودعتها بالمدلّلة:

– عندما يكون عمرك أربع سنوات فأنت في الرابعة، ولكنك ستبلغين الخامسة في السنة القادمة، والسادسة في السنة التي تليها.

وفتحت عينيها الواسعتين المقنّعتين:

– ستستغرقين ستّ عشرة سنة لتصبحي في العشرين.

قالت لاڤينيا:

- يا إلهي العزيز! ها نحن نعرف الحساب!

وفي الحقيقة، لا يمكن إنكار أنّ ستة عشر مضافاً إليها أربعة تساوي عشرين.. والعشرون عمر بالكاد تتجرّأ الفتيات الأكثر شجاعة على أن يحلمن به.

لذا أحبّت الفتيات الأصغر سناً سارا. وقد أقامت أكثر من مرّة حفلات شاي، تحضرها هؤلاء الفتيات المحتقرات في غرفتها الخاصة. وكنّ يلعبن مع إميلي، ويستخدمن طقم تقديم الشاي الخاص بها، بأكوابه المزيّنة بالأزهار الزرق والمملوءة بالشاي الخفيف المحلّى. لم يكن قد شوهد من قبل طقم تقديم شاي دمية حقيقيّ إلى هذه الدرجة. ومنذ عصر ذلك اليوم، اعتبرت طالبات صفّ الحروف الهجائية سارا إلهة وملكة.

أحبت لوتي ليج سارا لدرجة العبادة، ولو لم تكن سارا تتمتّع بتلك الصفات الأموميّة، لوجدتها مُتعِبة. فقد أُرسلت إلى المدرسة من قبل أب شابّ مزاجيّ، لم يكن بيده ما يستطيع فعله عدا ذلك، بعد أن توفيت والدتها. وبما أنّ الطفلة عوملت كدمية مفضّلة أو كقرد أليف مدلّل أو كلب صغير منذ الساعة الأولى في حياتها، فقد أصبحت مخلوقاً صغيراً مزعجاً. فقد كانت تبكي وتعوي عندما تريد أو لا تريد أيّ شيء، وبما أنّها كانت تريد الأشياء التي لا تستطيع الحصول عليها، ولا تريد الأشياء الأفضل لها دائماً، كان صوت نحيبها الحادّ يسمع عادة في جزء أو آخر من المنزل.

سلاحها الأقوى كان هو أنّها اكتشفت بطريقة ما، غامضة، أنّ الفتاة الصغيرة للغاية التي تفقد والدتها ينبغي أن يشفق عليها ويتحمّلها الجميع. ولابد أنّها سمعت بعض البالغين يتحدّثون عن الأمر في السنين الأولى بعد وفاة والدتها. لذا استغلّت هذه المعلومة لأبعد حد.

أول مرّة تولّت فيها سارا الاهتمام بها كانت في صباح أحد الأيّام، عندما كانت تمرّ من أمام غرفة الجلوس، وسمعت الآنسة منشن والآنسة أميليا تحاولان إيقاف عويل طفلة غاضبة ترفض -كما هو واضح- أن يتمّ اسكاتها. كانت تنوح بشدة أجبرت الآنسة منشن على الصراخ بفضاضة وعنف ليسمع صوتها.

كانت تقريباً تصرخ:

- لماذا تبكين؟

سمعت سارا:

- أو.. أوه.. أوه.. ليس لدي ما.. ماما!

صاحت الآنسة أميليا:

- أوه يا لوتي! توقّفي يا عزيزتي! لا تبكي! أرجوكِ!

دوّى نواح لوتي:

- أوه! أوه! أوه! أوه! أوه! لا.. أملك.. ما.. ماما!

صرّحت الآنسة منشن:

- يجب أن تُجلد. سوف تجلدين أيّتها الطفلة الشقيّة!

علا نواح لوتي أقوى من ذي قبل، حتّى أنّ الآنسة أميليا بدأت تبكي. وتعالى صوت الآنسة منشن حتّى هدر كالرعد، ثم قفزت من مقعدها في سخط عاجز، واندفعت متخبطة خارجة من الغرفة، تاركة الأمر للآنسة أميليا.

كانت سارا قد توقّفت في الممر، متسائلة إن كان عليها أن تدخل إلى الغرفة، بما أنّها قد أنشأت علاقة وديّة مع لوتي مؤخراً وقد تستطيع تهدئتها. عندما خرجت الآنسة منشن من الغرفة ورأتها، بدا عليها الانزعاج. فقد أدركت أن صوتها الذي سُمع من الغرفة، لم يكن وقوراً ولا ودوداً.

هتفت وهي تحاول أن تبتسم ابتسامة ملائمة:

- أوه، سارا!

أوضحت سارا:

- لقد توقّفتُ لأنّي أعرف أنها لوتي. وفكّرت أني قد.. مجرد احتمال.. أستطيع أن أجعلها تهدأ، هل لي المحاولة يا آنسة منشن؟

أجابت الآنسة منشن وهي تطبق شفتيها بحدّة:

- إذا تمكنت من ذلك، فأنتِ طفلة ذكية.

ولكن عندما لاحظت أن سارا تبدو خائفة قليلاً من حدّتها، غيّرت سلوكها وقالت بنغمة استحسان:

- ولكنك ذكيّة في كلّ شيء، وأراهن أنّكِ تستطيعين التعامل معها. ادخلي!

وغادرت.

عندما دخلت سارا للغرفة، كانت لوتي مستلقية على الأرض، تصرخ وتركل بعنف بقدميها الصغيرتين الممتلئتين، فيما كانت الآنسة أميليا منحنية عليها في حالة من الذهول واليأس، وقد احمرّ وجهها بشدة وترطّب بفعل الحرارة. كانت لوتي قد اكتشفت في الحضانة الخاصّة بها في المنزل، أنّ الصراخ والركل يجبران الجميع على تهدئتها بالشيء الذي تصرّ عليه دائماً. لذا كانت الآنسة أميليا المسكينة البدينة تحاول تهدئتها بطريقة إثر الأخرى.

فكانت مرة تقول:

- يا طفلتي العزيزة المسكينة! أعلم أنّكِ لا تملكين أمّاً، ايتها المسكينة..

ثم تقول بنغمة مختلفة تماماً:

- إذا لم تتوقّفي يا لوتي سأقوم بهزّك... يا للملاك الصغير المسكين! اهدئي!.. أيّتها الطفلة الشرّيرة، السيّئة، البغيضة، سأضربك! سأفعل!

اقتربت منهما سارا بهدوء. لم تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل، ولكن كانت لديها قناعة داخلية غامضة مفادها أنه سيكون من الأفضل ألّا تقال أمور متناقضة وهذه الحال، بهذا اليأس والانفعال.

قالت بصوت منخفض:

- آنسة أميليا. قالت الآنسة منشن أني أستطيع أن أحاول تهدئتها، هل تسمحين لي؟

استدارت الآنسة أميليا ونظرت إليها في يأس وشهقت:

- هل تعتقدين أنّكِ تستطيعين؟

أجابت سارا بصوتها شبه الهامس:

- لست أعلم إن كنت أستطيع أم لا، ولكنّي سأحاول.

تعثرت الآنسة أميليا وهي تقف وقد أطلقت تنهيدة عميقة، أمّا لوتي فقد كانت لا تزال تركل بقدميها بكلّ قوتها، وأكثر من ذي قبل.

قالت سارا:

- سأبقى معها إذا أردتِ أن تتسللي من الغرفة.

كادت الآنسة أميليا أن تنشج وهي تقول:

- أوه يا سارا! لم نحظَ بطفلة فظيعة كهذه من قبل، لا أعتقد أنّنا نستطيع إبقاءها.

ولكنها تسلّلت خارجة من الغرفة، وكانت سعيدة لأنّها وجدت عذراً لذلك.

وقفت سارا بجانب الطفلة الغاضبة المنتحبة لعدّة دقائق، وهي تحدّق بها دون أن تقول أيّ شيء. ثم جلست بجانبها على الأرض

وانتظرت. عدا عن صرخات لوتي كانت الغرفة هادئة للغاية. وكانت هذه مقاربة جديدة لم تعهدها من قبل الآنسة ليج الصغيرة التي كانت معتادة على سماع الآخرين يحتجّون ويتوسّلون ويأمرون ويتملّقون على التوالي. أثار اهتمامها أنّها كانت تصرخ وتركل وليس هناك إلاّ شخص واحد بجانبها، لا يبدو عليه أنّه يمانع صراخها ولو قليلاً. فتحت عينيها المغلقتين اللتين تسيل منهما الدموع لترى من هو هذا الشخص. وكانت مجرّد فتاة صغيرة أخرى. ولكنها الفتاة التي تملك إميلي وكلّ الأشياء الجميلة. وكانت تنظر إليها في ثبات وكأنّها مستغرقة في التفكير. ولأنّها توقفت لعدة ثوانٍ لتتبيّن الأمر، فكّرت لوتي أنّ عليها أن تبدأ مجدّداً، ولكن هدوء الغرفة ووجه سارا الغريب المهتمّ جعلا صرختها الأولى ضعيفة.

بدأت:

- لا.. أملك.. ما.. ما.. ماما!

ولكنّ صوتها لم يكن قويّاً.

ظلت سارا تراقبها بثبات أكثر، وبنظرة متفهمة في عينيها، قالت:

- ولا أنا.

كان هذا غير متوقع لدرجة أنّه صعقها. أنزلت لوتي قدميها، وتململت ثم استلقت وحدّقت. أحياناً تستطيع فكرة جديدة أن توقف بكاء طفل عندما يفشل كلّ شيء آخر. والحقيقة هي أن لوتي كانت تكره الآنسة منشن الصارمة والآنسة أميليا الحمقاء المتسامحة،

ولكنها كانت تحبّ سارا، رغم أن معرفتها بها قليلة. لم تكن تريد أن تتخلّى عن بكائها لكنّ أفكارها تشتّت عن الأمر، لذا تململت في مكانها مجدداً، وبعد تنهيدة متجهمة، قالت:

- أين هي؟

توقفت سارا للحظة. فبعد أن أخبروها أنّ أمّها في الجنّة، فكرت في الأمر مليّاً وتوصلت لأفكار مختلفة عمّا يعتقده بقية الناس.

قالت:

- إنّها في الجنة، لكنّي متأكّدة من أنّها تأتي أحياناً لتراني رغم أني لا أراها. وأمّك تفعل ذلك أيضاً. ربّما كلتاهما تريانا الآن. ربّما كانتا كلتاهما هنا معنا في هذه الغرفة.

جلست لوتي منتصبة على الفور، ونظرت حولها. كانت طفلة صغيرة جميلة، ذات شعر مجعد، عيناها المستديرتان تشبهان أزهار أذن الفأر المبلّلة. ولو أنّ أمها كانت تراها خلال النصف ساعة الأخيرة، لما ظنّت أنّها ابنة لروح ملائكيّة.

استمرّت سارا بالكلام، ولربّما يعتقد البعض أنّ ما تقوله يبدو كالقصص الخرافيّة، ولكنّه حقيقيّ للغاية بالنسبة لمخيّلتها، لذا بدأت لوتي تستمع إليها رغماً عن نفسها. قيل لها إنّ أمّها لها جناحان وترتدي تاجاً على رأسها، ورأت صوراً لسيّدات جميلات يرتدين أثواب نوم بيض، قيل إنّهن ملائكة. لكنّ سارا بدت وكأنّها تروي قصّة حقيقيّة عن بلاد جميلة يعيش فيها أشخاص حقيقيّون.

قالت سارا وقد نسيت نفسها وكأنّها تستغرق في حلم، كعادتها عندما تشرع في قصصها:

- هناك حقول وحقول من الأزهار، حقول وحقول من الزنبق، وعندما يهبّ النسيم عليها، تطلق رائحتها في الهواء، فيتنفّسها الجميع طوال الوقت، لأنّ النسيم الرقيق يهبّ طوال الوقت. والأطفال الصغار يركضون في حقول الزنبق ويجمعون الأزهار ملء أذرعهم، يضحكون ويصنعون أكاليل الزنبق الصغيرة. الشوارع براقة والناس لا يتعبون أبداً، مهما ساروا لمسافات طويلة. يستطيعون أن يحلّقوا لأيّ مكان يرغبون بالذهاب إليه. وهناك أسوار مصنوعة من اللؤلؤ والذهب حول كلّ المدينة، ولكنها منخفضة بما فيه الكفاية كي ينحني الناس من فوقها، لينظروا من علٍ إلى الأرض ويبتسمون، ويرسلون الرسائل الجميلة.

أيّاً كانت الحكاية التي كانت ستروبها سارا، فإنّها ستجعل لوتي تتوقف عن البكاء بدون شك، فهي مسحورة بالاستماع إليها، ولكن لا يمكن إنكار أنّ هذه القصّة كانت أجمل من غيرها. سحبت لوتي نفسها مقتربة من سارا، ومفتونة بكل كلمة حتّى النهاية، التي حلّت أسرع من المتوقع. عندما انتهت القصة، كانت لوتي تشعر بالحزن لدرجة أنّها مطت شفتيها بطريقة منذرة بالسوء.

صاحت:

- أريد أن أذهب إلى هناك. ماما ليست في المدرسة.

رأت سارا علامات الخطر، فأفاقت من حلمها. أمسكت بيدها الممتلئة، وسحبتها لتقترب منها وهي تطلق ضحكة صغيرة متلطّفة. قالت:

- أنا سأكون أمّكِ، سنتظاهر بأنّكِ طفلتي الصغيرة، وستكون إميلي أختك.

فظهرت غمّازات لوتي في وجهها.

قالت:

- هل ستكون كذلك؟

أجابت سارا وقد قفزت لتنهض:

- أجل. لنذهب ولنخبرها، وبعدها سأغسل وجهكِ وأمشّط شعركِ.

وافقت لوتي بسعادة على هذا العرض، وهرولت من الغرفة وصعدت إلى الطابق العلويّ معها، دون أن يبدو عليها أنّها تتذكّر حتّى أن سبب مأساة الساعة الأخيرة هو رفضها الاستحمام وتمشيط شعرها لأجل الغداء، فاستدعوا الآنسة منشن لتستخدم سلطتها المهيبة عليها.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت سارا أمّاً متبنّية.

(٥)

بيكي

كانت قدرة سارا على رواية القصص وتحويل كلّ ما تقوله إلى قصّة، سواء أكان أم لم يكن؛ هو أعظم ميزة امتلكتها، وهي التي أكسبتها المزيد من الأتباع، بعيداً عن كلّ الرفاهيات التي كانت تمتلكها، وبعيدة عن حقيقة كونها (طالبة فخرية)، وهي الحقيقة التي حسدتها عليها لاڤينيا وفتيات أخريات معيّنات أكثر من أيّ شيء آخر، والتي سحرتهنّ في نفس الوقت رغماً عنهنّ.

أيّ شخص ارتاد مدرسة فيها راوية قصص سيفهم سرّ هذا الذهول، كيف يتبع الجميع هذا الشخص، ويطلبون منه همساً أن يحكي لهم القصص الرومانسيّة، وكيف تحوم جماعات الطلاّب حول المجموعة المفضّلة المحظوظة على أمل أن يُسمح لهم بالانضمام والاستماع للقصص. ولم تكن سارا جيّدة في رواية القصص فحسب، بل كانت تعشق أن ترويها. فحالما تقف أو تجلس في منتصف حلقة من الطالبات وتبدأ باختلاق الخيالات الجميلة، تتّسع عيناها الخضراوان وتشعّان، ويحمرّ خداها، وبدون أن تعي تبدأ بتأدية

أدوار الشخصيات، وتجعل ما ترويه ساحراً أو مخيفاً بخفض ورفع صوتها، وانحناء وتمايل جسدها النحيل، وحركات يديها الدراميّة. كانت تنسى أنّها تروي القصص للأطفال، وتعيش مع الجنّيات، أو الملوك والملكات والسيدات الجميلات، الذين تحكي عن مغامراتهم. وأحياناً، عندما تنتهي من رواية الحكاية تكون أنفاسها مقطوعة من شدّة الحماس، فتضع يدها على صدرها الصغير وهو يصعد وينزل بسرعة، وتطلق نصف ضحكة وكأنّها تضحك على نفسها، وتقول:

- عندما أحكيها، لا تبدو وكأنها مختلقة. تبدو حقيقيّة أكثر منكنّ... حقيقيّة أكثر من الفصل الدراسيّ... أشعر كما لو أنني أصبح كل واحد من شخصيات الحكاية... واحدة تلو الأخرى... هذا غريب.

كان قد مضى على وجودها سنتان تقريباً في مدرسة الآنسة منشن، عندما ترجّلت عن عربتها في عصر يوم شتويّ ضبابيّ، وقد تدثّرت بارتياح بأكثر معاطفها المخمليّة ذات الفرو دفئاً، فبدت أفخم ممّا تعي، لمحت وهي تقطع الرصيف، طفلة صغيرة قذرة واقفة على درجات دهليز المطبخ، تمدّ عنقها بحيث تظهر عيناها المتسعتان من خلال قضبان الدرابزين. ثمّة شيء ما في لهفة وتردد هذا الوجه الملطخ جعل سارا تنظر إليه، وعندما تطلّعت إليها ابتسمت، لأنها كانت تبتسم لكل الناس.

لكن كان من الواضح على صاحبة الوجه الملطخ والعينين الواسعتين أنّها كانت تخشى أن يُمسك بها وهي تنظر إلى الطالبات

ذوات الأهمية. لذا تخفّت عن العيون مثلما تختفي دمية (جاك البهلوان) في صندوقها، وهرعت عائدة إلى المطبخ، واختفت بسرعة وبشكل مفاجئ، لدرجة لو أنّها لم تكن طفلة بائسة، لدفعت سارا للضحك رغماً عن نفسها. في ذلك المساء بالذات، عندما كانت سارا تتوسّط مجموعة من المستمعات في أحد أركان الفصل الدراسيّ تحكي واحدة من قصصها، إذ دخلت الفتاة البائسة إياها على حياء إلى الغرفة، وهي تحمل صندوقاً من الفحم يبدو أثقل من قدرتها على رفعه، وجثت على ركبتيها على السجادة قرب المدفأة لكي تُذكي النار في الموقد وتكنس الرماد.

كانت تبدو أنظف من تلك المرة التي أطّلت فيها من وراء قضبان درابزين الدهليز، ولكنها ظلت تبدو بنفس القدر من الخوف. وكان واضحاً أنّها تخشى أن تُشاهد وهي تنظر إلى الطالبات أو تبدو وهي تستمع إليهنّ. كانت تلتقط قطع الفحم بأصابعها وتضعها في الموقد بحذر كيلا تصدر أيّة ضجة، وكنست الرماد حول حاجز المدفأة بهدوء شديد. لكن سارا لاحظت أنها كانت تبدو شديدة الاهتمام في ما يحصل حولها، وتفتعل البطء في عملها آملة أن تلتقط كلمة من هنا أو هناك. لذا، رفعت سارا صوتها وتحدثت بوضوح أكثر. قالت:

- سبحت حوريّات البحر بهدوء في المياه المخضرّة، الصافية كصفاء الكريستال، وهن يسحبن خلفهنّ شبكة صيد مصنوعة من اللآلئ المستخرجة من أعماق البحر. بينما جلست الأميرة على صخرة بيضاء تراقبهنّ.

كانت قصّة جميلة عن أميرة يقع في حبّها أمير البحر، فتذهب لتعيش معه في الكهوف اللامعة أسفل سطح البحر.

أمّا العاملة الصغيرة الكادحة فقد كنست الموقد مرة، وكنسته مرّة ثانية. وبعد أن كنسته مرتين، وفيما كانت تهمّ مرّة ثالثة، وكان وقع أحداث القصة قد اجتذبها، وقعت تحت سحرها حتّى نسيت أن ليس لها حقّ الاستماع أبداً، ونسيت كلّ أمر آخر أيضاً. جلست وساقاها مطويتان وانحنت على السجادة قرب المدفأة، فيما كانت المكنسة تتدلى بسكون بين أصابعها. استمرّ صوت الراوية واستمرّ واجتذبها معه إلى الكهوف المتعرجة تحت البحر، المشعّة بضوء أزرق صافٍ رقيق، والممهّدة برمل ذهبيّ خالص، وأزهار البحر وأعشابه الغريبة تتمايل حولها، فيما يتناهى من البعيد غناء خافت وصوت صدى موسيقى. سقطت مكنسة الموقد من يد بيكي المخشوشنة بفعل العمل، فالتفتت لاڤينيا هيربرت إليها، وقالت:

- هذه الفتاة كانت تستمع.

التقطت الفتاة المذعورة فرشاتها بسرعة، وقفزت على قدميها، وحملت صندوق الفحم ثمّ ركضت خارجة من الغرفة كأرنب مذعور.

شعرت سارا بالغضب، فقالت:

- كنت أعلم أنّها كانت تستمع، لِمَ لا يمكنها ذلك؟

هزت لاڤينيا رأسها بأناقة ورقيّ وعلّقت قائلة:

- حسناً، لا أعلم إن كانت أمّك ستحبّ أن تقومي برواية القصص للخادمات، لكن أعلم أن أمّي لن تحبّ أن أقوم أنا بذلك.

قالت سارا، وهي تبدو مستغربة:

- أمّي! لا أعتقد أنّها ستمانع على الإطلاق. إنّها تعرف أن القصص مِلكٌ للجميع.

ردّت لاڤينيا وهي تتظاهر بأنّها تجاهد في التذكّر:

- ظننت أنّ والدتك متوفّية. كيف لها أن تعرف أي شيء؟

قالت سارا بصوتها الصغير الصارم، الذي يكون صارماً أحياناً بحقّ:

- هل تعتقدين أنّها لا تعرف أيّ شيء؟

أضافت لوتي بصوتٍ حادٍ كصفّارة:

- أمّ سارا تعرف كلّ شيء، وكذلك أمّي أنا، لكنّ سارا هي ماما في مدرسة الآنسة منشن، وأمّي الأخرى تعرف كلّ شيء. هناك حيث الشوارع مضيئة، وهناك حقول وحقول من الزنبق، والجميع يقطفونها. سارا تخبرني بهذه الأمور عندما تأخذني للفراش.

قالت لاڤينيا وهي تستدير لتواجه سارا:

- أيّتها الشرّيرة. تختلقين قصصاً خيالية عن الجنّة.

أجابت سارا:

- هناك قصص أكثر جمالاً في سِفر الرؤيا، فقط اقرئيه وسترين! كيف لك أن تعرفي أنّ قصصي قصص خياليّة؟

وأكملت بمزاج سيّء للغاية:

- لكن يمكنني أن أخبرك أنّك لن تعرفي، سواء كانت كذلك أم لم تكن، إذا لم تتعاملي بشكل ألطف مع الناس. هيا بنا يا لوتي.

واندفعت خارجة من الغرفة على أمل أن ترى الخادمة الصغيرة في مكان ما، ولكنّها لم تجد لها أثراً عندما ذهبت إلى الردهة.

سألت سارا مارييت ذلك المساء:

- من هي الفتاة الصغيرة التي تشعل النيران؟

فتدفقت مارييت في سرد التفاصيل:

- آه، بالطبع، مدموزيل سارا قد تسأل مثل هذا السؤال. إنّها فتاة صغيرة كادحة شغلت للتوّ منصب خادمة غسل الأطباق، ورغم أنّ عملها هو غسل الأطباق، إلا أنّها تقوم بكلّ شيء آخر أيضاً. كانت تلمّع الأحذية والمواقد، وتنقل صناديق الفحم صاعدة للطابق العلوي ونازلة. وتفرك الأرضيّات وتنظّف النوافذ. ويتأمّر عليها الجميع. تبلغ الرابعة عشر من عمرها، لكنّ نموّها كان ضعيفاً لدرجة أنّها تبدو في الثانية عشر.

وفي الحقيقة، فإن مارييت كانت تشعر بالأسف لأجلها. فقد كانت مذعورة لدرجة يبدو معها أنّ عينيها المسكينتين الخائفتين ستقفزان من رأسها فيما لو صادف أن تحدّث معها أيّ أحد.

سألتها سارا:

- ما اسمها؟

وكانت قد جلست بجانب الطاولة، وذقنها بين يديها، وهي تستمع بتركيز لكلّ كلمة.

- اسمها هو بيكي.

إذ إنّ مارييت كانت قد سمعت الجميع بالأسفل يصيحون: «بيكي افعلي هذا»، «بيكي افعلي ذاك»، كلّ خمس دقائق، وطوال ساعات اليوم.

جلست سارا تحدّق في النار، وهي تفكّر في أمر بيكي لبعض الوقت بعد أن تركتها مارييت. واختلقت قصّة تكون فيها بيكي بطلة مظلومة. وفكرت أنّها تبدو وكأنّها لم تملك ما يكفي لتأكله طوال حياتها، حتّى عيناها بدتا جائعتين. تمنّت أن تلقاها مرّة أخرى، ورغم أنها كانت قد لمحتها في عدد من المناسبات وهي تنقل أشياء لأعلى السلّم أو أسفله، ولكنها دائماً ما كانت تبدو في عجلة شديدة وخائفة من ملاحظة الناس لها لدرجة أنّ محاولة التحدّث معها كانت مستحيلة.

ولكن بعد عدّة أسابيع، وفي عصر يوم ضبابيّ آخر، عندما

دخلت سارا لغرفة الجلوس الخاصّة بها، وجدت نفسها أمام منظر مثير للشفقة. على مقعدها القصير الخاص أمام النار المشتعلة، جلست بيكي نائمة بعمق، ولطخة سوداء من الفحم على أنفها وعدة لطخات على مريلتها، وقلنسوّتها الصغيرة المهترئة تتدلى إلى المنتصف من رأسها، وبجانبها على الأرض صندوق فحم فارغ، وقد تجاوز إرهاقها قدرة جسدها الصغير المجتهد على التحمّل. كانوا قد أرسلوها إلى الأعلى لتجهّز غرف النوم للمساء. وكانت هناك الكثير من الغرف، فأخذت تركض في المكان طوال اليوم. وكانت قد أبقت غرفة سارا للأخير، لأنّها لم تكن كبقيّة الغرف الفارغة والعاديّة. فالطالبات العاديّات يكتفين بالضروريّات فقط. وبالنسبة لخادمة غسل الأطباق، فقد كانت غرفة جلوس سارا المريحة أكثر شيء فاخر رأته في حياتها، مع أنّها كانت مجرّد غرفة صغيرة لطيفة مبهجة، لكن كان فيها كتب وصور، وأشياء مثيرة للفضول من الهند، كانت هناك الأريكة والمقعد القصير المريح، بينما جلست إميلي على مقعد خاصّ بها وهي تبدو كإلهة على عرشها، وطوال الوقت كانت هناك نار مشتعلة في الموقد المصقول. أبقت بيكي على غرفة سارا لتكون آخر عمل تقوم به فيما بعد الظهيرة، لأنّها كانت تشعر بالراحة عندما تدخلها، ولطالما أرادت أن تسترق عدة دقائق تجلس فيها على المقعد القصير الناعم وترنو إلى المكان حولها، وتفكّر في حظّ هذه الطفلة الجيّد الذي قادها لأن تملك مثل هذه الغرفة، والتي تخرج في الأيّام الباردة مرتدية القبعات والمعاطف الجميلة التي حاولت أن تختلس النظر إليها عبر قضبان درابزين الدهليز ذات مرّة.

وعندما جلست بعد ظهيرة هذا اليوم، كان شعور الراحة مبهجاً ورائعاً في ساقيها القصيرتين الموجوعتين، حتّى بدا وكأنّه يرخي كل جسدها، وتسلّل إليها الدفء والراحة من النار كتعويذة سحريّة، إلى أن تسلّلت ابتسامة متعبة ضعيفة على وجهها الملطخ وهي تحدّق في الفحم المحمرّ، وانكفأ رأسها دون أن تعي، وانطبق جفناها، وغطّت في النوم سريعاً. كان قد مضى على وجودها في الغرفة عشر دقائق فقط عندما دخلت سارا، ولكنها نامت عميقاً، مثل نوم الأميرة النائمة الذي استمر مائة سنة. غير أنّ بيكي المسكينة لم تبدُ كالأميرة النائمة إطلاقاً. بل بدت كطفلة قبيحة واهنة كادحة. وبدت سارا مختلفة عنها للغاية، وكأنّها مخلوق من عالم آخر.

في عصر هذا اليوم بالذات، كانت تأخذ دروس الرقص الخاصّة بها، وكان قدوم مدرّب الرقص مناسبة عظيمة في المدرسة، رغم أنّه كان يأتي كلّ أسبوع. كانت الطالبات يكتسين بأجمل ثيابهنّ، وبما أنّ سارا كانت تحسن الرقص، فقد كانت تقدَّم على غيرها كثيراً، فطُلب من ماربيت أن تجعلها تبدو أرقّ ما يمكن.

فأُلبست اليوم ثوباً بلون الورد الأحمر، واقتنت ماربيت ورداً حقيقياً وصنعت منه إكليلاً لتضعه على خصلات شعرها الأسود. كانت تتعلّم رقصة جديدة خلّابة، تتمايل فيها وتتهادى في أنحاء الغرفة، كفراشة كبيرة زهريّة اللون، وقد توهّج وجهها بسعادة مع الحركة والمتعة.

عندما دخلت الغرفة، كانت لا تزال تتمايل مثل فراشة، وعندها رأت بيكي وقلنسوّتها متدلية على جانب رأسها.

صاحت سارا بهدوء عندما وقعت عيناها عليها:

- أوه! يا للمخلوقة التعيسة!

لم يخطر ببالها أن تشعر بالغضب لرؤية الفتاة الصغيرة القذرة نائمة على مقعدها القصير. والحقيقة أنها كانت سعيدة للغاية لرؤيتها. وعندما ستستيقظ بطلة قصّتها المظلومة، سوف تتحدّث معها. اقتربت منها بهدوء، ووقفت تنظر إليها. أطلقت بيكي شخيراً قصيراً.

قالت سارا:

- أتمنّى أن تستيقظ من تلقاء نفسها. لا أودّ إيقاظها. لكن الآنسة منشن ستغضب إن عرفت. سأنتظر لبضع دقائق.

جلست سارا على طرف الطاولة، تُأرجح ساقيها النحيلتين المحمرّتين، متسائلة عن أفضل طريقة للتصرّف. فقد تدخل الآنسة أميليا إلى الغرفة في أيّة لحظة، ولو فعلت، لوبّخت بيكي بالتأكيد.

لكنّها فكّرت:

- ولكّنها مُتعبة للغاية. إنّها متعبة للغاية!

بيد أنّ قطعة من الفحم المشتعل أنهت حيرتها في تلك اللحظة. انكسرت من كتلة كبيرة وارتطمت بحاجز المدفأة. فاستيقظت بيكي فزعة، وفتحت عينيها وهي تشهق في ذعر. لم تكن تعرف

أنّها غطت في النوم. كانت قد جلست للحظة واحدة وشعرت بالدفء الجميل، وها هي تجد نفسها محدّقة بذعر في الطالبة الرائعة، الجالسة قريبة للغاية منها، كجنيّة بلون الورد، تحدّق فيها بعينين مهتمّتين.

قفزت من المقعد وأطبقت قبضتيها على قلنسوّتها. بعد أن شعرت بها تتدلى على أذنها، وحاولت أن تعدّل من وضعها بانفعال. أوه، لقد ورّطت نفسها الآن في مشكلة، لابدّ وأن تعاقَب عليها! لقد نامت بكلّ وقاحة على مقعد فتاة شابة كهذه! ستُطرد دون أجر.

وصدر عنها صوت يشبه النشيج اللاهث، وتلعثمت وهي تقول:

- أوه يا آنسة! أوه يا آنسة! اصفحي عنّي يا آنسة! أرجوكِ يا آنسة!

قفزت سارا من مكانها واقتربت منها. وقالت وكأنّها تتحدّث مع فتاة صغيرة مثلها:

- لا تخافي. الأمر ليس مهماً على الاطلاق.

اعترضت بيكي:

- لم أفعل ذلك عن عمد يا آنسة. كان دفء النار هو السبب، وكوني متعبة للغاية. لم أقصد ارتكاب هذه الوقاحة!

أطلقت سارا ضحكت صغيرة ودودة، ووضعت يدها على كتف بيكي، وقالت:

- كنتِ متعبة، لم يكن الأمر متعمّداً. كما أنّكِ لم تستيقظي تماماً بعد.

ويا للطريقة التي حدّقت فيها بيكي بها! فهي لم تكن قد سمعت نغمة ودودة ولطيفة كهذه في صوت أيّ مخلوق هنا من قبل. كانت معتادة على أن تؤمر وتوبّخ وتُقرص أذناها. بينما هذه الفتاة، في كلّ هذا البهاء الزهريّ اللون الراقص، تنظر إليها وكأنّها لم تُذنب بشيء، وكأنّها يحقّ لها أن تشعر بالتعب، وحتى أن تغطّ في النوم! وكانت لمسة كفّها الناعمة على كتفها أروع شعور مرّ بها.

شهقت:

- ألستِ غاضبة يا آنسة؟ ألن تخبري السيّدة؟

صاحت سارا:

- لا! بالتأكيد لن أفعل.

شعرت سارا بأسف يفوق تحمّلها، عندما رأت النظرة المذعورة اليائسة على الوجه الملطّخ بالفحم. انبثقت فكرة من أفكارها الغريبة في رأسها. فوضعت يدها على خدّ بيكي وقالت:

- لماذا؟ إننا متماثلتان. إنّني مجرّد طفلة صغيرة مثلك. إنّها مجرّد حادثة. إنّني لستُ أنتِ وأنتِ لستِ أنا!

لم تفهم بيكي البتة، لم يستطع عقلها استيعاب أفكار رائعة كهذه، وبالنسبة لها فإنّ كلمة (حادثة) لا تعني إلّا مصيبة، سواء تمّ دعس أحدهم أو أنّه هوى من أعلى سلّم وحُمل إلى (المستشفى).

قالت مرتاعة ولكن باحترام:

- هل هي حادثة يا آنسة؟

أجابت سارا وهي تنظر إليها نظرة حالمة:

- أجل.

وتحدّثت بعدها بنغمة مختلفة لأنّها لاحظت أنّ بيكي لم تفهم ما قصدته. سألتها:

- هل انتهيت من عملك؟ هل تستطيعين البقاء لعدّة دقائق أخرى؟

قالت بيكي وقد انقطعت أنفاسها مرة أخرى:

- هنا يا آنسة؟ أنا؟

مضت سارا حيث الباب وفتحته ثمّ نظرت إلى خارجه مصيخة السمع.

وضّحت:

- ما من أحد قريبٍ من هنا، فإذا كنتِ قد انتهيت من تجهيز غرف النوم لربما كان باستطاعتك البقاء لبرهة. سأقدّم لكِ قطعة من الكعك إذا وددتِ.

شعرت بيكي بأن العشر دقائق التالية كانت مجرّد هلوسة. فتحت سارا خزانة صغيرة وقدّمت لها قطعة كبيرة من الكعك. وبدت سعيدة وهي تراها تلتهمها في قضمات كبيرة. ثمّ أخذت

تحدّثها وتسألها أسئلة وتضحك حتّى هدأت مخاوف بيكي، وتجرّأت بما فيه الكفاية وطرحت سؤالاً أو سؤالين، مع أنّها شعرت بمدى جرأة الأمر.

غامرت بيكي بالسؤال بصوت شبه هامس وهي تنظر بإعجاب لثوبها الزهريّ:

- هل هذا أجمل ثوب عندك؟

أجابتها سارا:

- هذا أحد فساتين الرقص. إنّه يعجبني، هل يعجبك؟

فقدت بيكي الكلمات لبضع لحظات من شدّة الإعجاب. ثمّ قالت بذهول:

- رأيت أميرة ذات مرة. كنت أقف في الشارع مع الحشد خارج كوفين غاردن، أشاهد العربات الكبيرة تدخل إلى (الأوبرا)، وهناك كانت الفتاة التي يحدّق بها الجميع، وكانوا يقولون لبعضهم (إنّها الأميرة). كانت سيّدة شابّة، وكلّ ثيابها ورديّة اللون، فستانها وعباءتها وأزهارها وكلّ شيء. تذكّرتُها في اللحظة التي رأيتكِ فيها تجلسين هناك على الطاولة يا آنسة. إنّك تبدين مثلها.

قالت سارا وهي تفكّر:

- لطالما أحببت أن أكون أميرة، أتساءل كيف سيكون شعوري حينها. أعتقد أنّي سأتظاهر بأنّي أميرة.

نظرت إليها بيكي بإعجاب، وكالمرة السابقة لم تفهم ما تعنيه. وأخذت تراقبها بشيء من الافتتان. وسرعان ما غادرت سارا خيالاتها وعادت لتسألها سؤالاً جديداً. قالت:

- بيكي، أما كنتِ تستمعين إلى تلك القصة؟

اعترفت بيكي، وقد اعتراها القلق مجدداً:

- أجل يا آنسة، أعلم أنّي لم يكن عليّ فعل ذلك، لكنّها كانت رائعة للغاية، ولم أستطع منع نفسي.

قالت سارا:

- لقد كانت رغبتي أن تسمعيها. الأشخاص الذين يروون الحكايات لا يحبّون شيئاً أكثر من أن يرووها لأشخاص يريدون الاستماع إليها. ولا أعلم سبب ذلك. هل تريدين أن تسمعي بقيّة القصّة؟

انقطعت أنفاس بيكي مرّة أخرى وصاحت:

- أستمع أنا إليها؟ وكأنّي طالبة يا آنسة! قصّة الأمير وحوريّات البحر الصغيرات اللواتي يسبحن ويضحكن والنجوم تزيّن شعورهن؟

هزّت سارا رأسها وقالت:

- أخشى أنك لا تملكين وقتاً كافياً لتسمعيها الآن. لكن لو أعلمتني بالوقت الذي ستأتين فيه إلى غرفي، فسوف أحاول أن أكون هنا وأخبرك جزءاً منها كلّ يوم حتّى نهايتها. إنّها

قصّة طويلة جميلة، كما أنّني أضيف إليها المزيد من التفاصيل طوال الوقت.

قالت بيكي بتفانٍ وقد استردّت أنفاسها:

- إذن، لن أهتمّ بثقل صناديق الفحم أو بما فعلَته الطبّاخة لي إذا كان بالي مشغولاً بالقصة.

قالت سارا:

- أجل، سأرويها لكِ كاملة.

عندما نزلت بيكي من غرفة سارا، لم تكن نفس الفتاة التي صعدت الدرج وهي تنوء بثقل دلو الفحم. كانت في جيبها قطعة إضافيّة من الكعك، وقد أكلت وتدفّأت، وليس بالكعك والنار فقط؛ فهناك شيء آخر أشبعها وأدفأها، وكان هذا الشيء هو سارا.

بعد أن غادرت بيكي جلست سارا جلستها المفضلة، على طرف طاولتها وقدماها على المقعد، متّكئة بمرفقيها على ركبتيها وذقنها بين يديها.

غمغمت:

- لو كنتُ أميرة، أميرة حقيقيّة. لوزّعت العطايا على عامّة الشعب. لكن حتّى لو كنت أتظاهر فحسب بأنّي أميرة، فبإمكاني أن أخترع أشياء صغيرة لأقدّمها للناس. أشياء كتلك. لقد كانت سعيدة وكأنّني منحتُها هِبة. سأتظاهر بأنّ فعل مثل هذه الأشياء هو كتوزيع العطايا. لقد وزّعت العطايا.

(٦)

مناجم الماس

بعد مدّة ليست بالطويلة حدث أمرٌ مثير للغاية، ليس بالنسبة لسارا فقط، بل فإن المدرسة بأكملها قد وجدته كذلك، وصار هذا الأمر موضوع النقاش الرئيسيّ لعدة أسابيع تاليّة. وهو قصّة مشوّقة كتبها النقيب كرو في إحدى رسائله، فقد قدم لزيارته إلى الهند بشكل مفاجئ، أحد أصدقائه عندما كان صبياً صغيراً في المدرسة. وصديقه هذا يمتلك أراضي واسعة أُكتشف فيها منجم للماس، فعكف على تطوير المناجم. ولو سارت الأمور كما هو متوقع، فإنّه سيجني ثروة هائلة تصيب من يفكّر فيها بالدوار، ولأنّه يحبّ صديقه من أيّام الدراسة، فقد منحه فرصة الحصول على جزء من هذه الثروة بأن يصبح شريكاً له في المشروع. أو على الأقل، هذا ما جمعته سارا من رسائله. لم يكن أيّ نوع آخر من المشاريع التجاريّة مهما كان عظيماً ليحصل على نفس الاهتمام منها أو من طالبات الصف، لكنّ (مناجم الماس) بدت كشيء آتٍ من قصص ألف ليلة وليلة. اعتقدت سارا أنّها ساحرة، ورسمت صوراً لإرمينغارد ولوتي فيها متاهة من

الممرّات المتشعّبة بباطن الأرض، تُرصّع جدرانها وسقفها الحجارةُ البرّاقة، ويعمل رجال غامضون سُمر على استخراجها مستخدمين المعاول الثقيلة. ابتهجت إرمينغارد بهذه القصّة، وأصرت لوتي على أن تُعاد على مسامعها كلّ مساء. أثار هذا حقد لاڤينيا، وأخبرت جيسي أنّها لا تصدّق وجود مناجم ماسٍ من الأصل.

قالت:

- ماما تملك خاتماً ماسيّاً كلّف أربعين جنيهاً رغم أنّه ليس كبير الحجم، ولو كانت هناك مناجم مليئة بالماس، لأصبح الناس أثرياء لدرجة سخيفة.

قهقهت جيسي قائلة:

- ربما ستصبح سارا ثريّة لدرجة سخيفة.

نخرت لاڤينيا:

- إنّها سخيفة بدون أن تكون ثريّة.

قالت جيسي:

- أعتقد أنّكِ تكرهينها.

صاحت لاڤينيا بحدّة:

- لا، لا أكرهها. لكنني لا أصدّق أنّ هناك مناجم مليئة بالماس.

قالت جيسي:

- حسناً، لابدّ من وجود مكان ما يحصل الناس منه على الماس.

ثم قهقهت من جديد وقالت:

- احزري ماذا قالت جرترود يا لاڤينيا؟

- لا أعرف بالتأكيد، ولا أهتم إن كان شيئاً آخر عن سارا تلك.

- حسناً، إنّه كذلك. إنّها تتظاهر بأنّها أميرة. وهي تلعب هذه اللعبة طوال الوقت، وحتّى في المدرسة. وتقول إنّ هذا يساعدها على تعلّم دروسها بشكل أفضل. وتريد من إرمينغارد أن تتظاهر بأنّها واحدة أيضاً، لكنها قالت إنّها أكثر بدانة من أن تكون أميرة.

- إنّها بدينة للغاية، وسارا نحيفة للغاية.

طبعاً، قهقهت جيسي مجدداً.

- ولكنها تقول إنّ ليس لهذا علاقة بمظهرك أو ما تملكه. وإنّه يعتمد على ما تفكّر فيه وما تفعله.

قالت لاڤينيا:

- أفترض أنّها تعتقد أنّها تستطيع أن تصبح أميرة حتّى لو كانت متسوّلة. لنبدأ بمناداتها بصاحبة السموّ.

انتهت الدروس لذلك اليوم، وتحلّقت الفتيات حول مدفأة غرفة الصف، مستمتعات بوقتهنّ المفضل من اليوم. كان هذا أثناء الفترة التي تشرب فيها الآنستان منشن وأميليا الشاي في غرفة الجلوس بمفردهما. خلال هذه الساعة يُقال الكثير من الكلام، وتُتَبادل العديد من الأسرار، خصوصاً إذا ما أحسنت الفتيات

الصغيرات السلوك، ولم يتشاجرن أو يركضن هنا وهناك بصخب، وهو ما يفعلنه عادة. عندما تصدر الفتيات الصغيرات جلبة تتدخل الفتيات الأكبر سنّاً بالتوبيخ والزجر. فمن المفترض أنهنّ يلتزمن بالنظام، وإن لم يفعلن فهناك خطر أن تظهر الآنسة منشن أو الآنسة أميليا وتنهيان كلّ هذه المباهج. وبينما كانت لاڤينيا تتحدث فُتح الباب ودخلت سارا مع لوتي، التي اعتادت على أن تتبعها طوال الوقت كجروٍ صغير.

هتفت لاڤينيا هامسة:

- ها هي ذي مع تلك الطفلة الفظيعة! إذا كانت تحبّها لهذه الدرجة فلمَ لا تُبقيها في غرفتها الخاصة؟ ستبدأ بالبكاء على شيء ما بعد خمس دقائق.

كانت لوتي قد أصابتها رغبة مفاجئة لأن تلعب في غرفة الصفّ، فتوسلت أمّها المتبنّية كي تذهب معها. انضمّت لوتي لمجموعة من الفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يلعبن في ركن ما. جلست سارا متكوّمة على نفسها في المقعد المجاور للنافذة، وفتحت كتاباً ثمّ أخذت تقرأ. كان الكتاب يتحدّث عن الثورة الفرنسيّة، وسرعان ما ضيّعت نفسها في الوصف المرعب لنزلاء سجن الباستيل الذين قضوا سنين عديدة في الزنزانات، وعندما انتشلهم إلى الخارج الأشخاص الذين ذهبوا لإنقاذهم، كانت وجوههم قد اختفت خلف شعورهم ولحاهم الرماديّة، كانوا قد نسيوا أنّ العالم الخارجيّ موجود، وأصبحوا ككائنات الأحلام.

كانت سارا بعيدة للغاية عن غرفة الصفّ لدرجة أنّه لم يكن من المقبول أن تُسحب لتعود فجأة بصرخة من لوتي. لم تجد سارا خلال حياتها كلّها شيئاً أصعب من فقدان أعصابها عندما يقاطعها أحد وهي مستغرقة في كتاب. وحدهم الأشخاص الذين يحبّون الكتب يعرفون شعور الغضب الذي يجتاحهم في مثل هذا الموقف. وعندها، ليس سهلاً أن تكون مقاومة إغواء التصرف بفظاظة وبدون عقلانيّة.

أسرّت سارا مرّة لإرمينغارد:

- يجعلني هذا أشعر وكأنّ أحداً ضربني، وأنّني أرغب في ردّ الضربة. لذا يجب عليّ أن أستذكر الأشياء بسرعة، كي أمنع نفسي من أن أقول شيئاً وقحاً.

وكان عليها أن تتذكّر الأشياء بسرعة عندما وضعت كتابها على المقعد وقفزت من ركنها المريح. إذ كانت لوتي تنزلق على أرضيّة غرفة الصف، وقد أثارت غضب لاڤينيا وجيسي بالفعل بكل الإزعاج الذي تسبّبه، ثم انتهى بها الأمر بالسقوط وإيذاء ركبتها الممتلئة. كانت تصرخ وتقفز وسط مجموعة من الأصدقاء والأعداء، الذين أخذوا يتناوبون على ملاطفتها وتوبيخها.

أمرتها لاڤينيا:

- توقّفي حالاً أيّتها الطفلة البكّاءة! توقّفي حالاً!

انتحبت لوتي:

- لست طفلة بكّاءة... لست كذلك! سارا، سا.. را!

صاحت جيسي:

- ستسمعها الآنسة منشن إن لم تتوقّف. لوتي يا حبيبتي سأعطيكِ بنساً!

أجهشت لوتي بالبكاء:

- لا أريد بنسكِ.

ونظرت إلى ركبتها الضخمة، فرأت قطرة من الدماء عليها، فانفجرت في البكاء من جديد. ركضت سارا عبر الغرفة، وانحنت بجانبها، وأحاطتها بذراعيها، وقالت:

- اهدئي يا لوتي، اهدئي يا لوتي، لقد وعدتِ سارا.

بكت لوتي:

- لقد قالت إنّني طفلة بكّاءة.

ربتت سارا على ظهر لوتي، وتحدّثت بالصوت الهادئ الذي تميّزه.

- لوتي عزيزتي، إذا بكيتِ ستصبحين كذلك فعلاً. لقد وعدتِ.

تذكّرت لوتي وعدها، ولكنها فضّلت أن ترفع صوتها.

صاحت:

- ليس لديّ ماما، ليس لديّ.. ولا.. ذرّة.. ماما.

قالت سارا بمرح:

- بلى، لديكِ. هل نسيتِ؟ ألا تعرفين أنّ سارا هي ماما؟ ألا تريدين أن تكون سارا هي ماما؟

التصقت لوتي بها وأطلقت نشغة ارتياح.

أكملت سارا:

- تعالي واجلسي معي على المقعد المجاور للنافذة، وسأهمس لكِ بقصّة.

نشجت لوتي:

- هل ستفعلين؟ هل.. ستحكين لي.. عن مناجم الماس؟

صاحت لاڤينيا:

- مناجم الماس؟ أيّتها الصغيرة القذرة المدلّلة، كم أتمنّى أن أصفعكِ.

وقفت سارا بسرعة على قدميها. يجب أن نتذكّر أنّها كانت مستغرقة بعمق في الكتاب الذي يتحدّث عن الباستيل، وكان عليها أن تتذكّر عدّة أشياء بسرعة عندما عرفت أنّ عليها أن تذهب لتعتني بطفلتها المتبنّاة. لم تكن ملاكاً، ولم تكن تحبّ لاڤينيا.

قالت ببعض الانفعال:

- حسناً، أتمنّى أن أصفعك أنتِ، لكنّي لا أريد أن أفعل ذلك!

قالت وهي تحاول أن تكبح جماح نفسها:

- أو، أنا أريد صفعكِ -وأحبّ لو فعلتُ- لكنّني لن أقدم

على ذلك، لأنّنا لسنا أطفال شوارع صغار. كلتانا كبيرتان بما يكفي كي نتصرّف بشكل أفضل.

وهنا حانت فرصة لاڤينيا، فقالت:

- آه، أجل، يا صاحبة السموّ. نحن أميرتان، على ما أعتقد. أو واحدة منّا كذلك على الأقل. ستصبح المدرسة مشهورة للغاية بما أنّ الآنسة منشن تملك أميرة بين صفوف طالباتها الآن.

حدّقت سارا فيها. وبدت وكأنّها ستقرص أذنيها. وربّما كانت كذلك. لعبة التظاهر بالأشياء كانت بهجة حياتها. ولم تتحدث البتة عنها إلى الفتيات اللواتي لا تحبهنّ. وكان (تظاهرها) الجديد المتعلّق بكونها أميرة قريباً إلى قلبها، وإن شعرت بالخجل والحساسيّة بشأنه. وأرادت أن تبقيه سراً، والآن تقف لاڤينيا لتهزأ منها أمام كلّ المدرسة تقريباً. شعرت بالدماء تتصاعد في وجهها وبأذنيها ترتعشان. لكنّها أنقذت نفسها في تلك اللحظة، وتذكّرت أنّها لو كانت أميرة، لما انجرّت إلى نوبة غضب. فأرخت يدها، ووقفت بهدوء تام للحظة. وعندما تحدّثت، كان رأسها مرفوعاً، وصوتها منخفضاً هادئاً. وأنصت إليها الجميع.

قالت:

- هذا صحيح. أحياناً أتظاهر بأنّني أميرة. أتظاهر بأنّني أميرة كي أحاول التصرّف كواحدة.

لم تتمكن لاڤينيا من أن تجد الشيء المناسب لتقوله. كانت كثيراً

ما تجد نفسها غير قادرة على إيجاد ردود مرضية عندما تتعامل مع سارا. والسبب هو أنّ بقيّة الفتيات دائماً ما يبدين تعاطفاً مع عدوّتها بشكل غامض. ورأت أنّهنّ رفعن آذانهنّ في ترقّب الآن. والحقيقة هي أنّهنّ كلهنّ يحببن الأميرات، وكنّ يأملن سماع المزيد عن هذه الأميرة، وبالتالي فقد اقتربن أكثر من سارا.

لم تستطع لاڤينيا أن تختلق إلا ردّاً واحداً، ولكنه لم يحدث التأثير المطلوب.

قالت:

- يا إلهي الرحيم! أتمنّى أن لا تنسَي أمرنا عندما تجلسين على العرش!

قالت سارا:

- لن أفعل.

ولم تفُه بكلمة أخرى، ولكنّها وقفت بهدوء تام، وحدقت فيها بسكون وراقبتها وهي تمسك بذراع جيسي وتستدير وتبتعد.

منذ تلك اللحظة، صارت الفتيات اللواتي يشعرن بالغيرة من سارا يُطلقن عليها (الأميرة سارا) عندما يرغبن خاصة بالسخرية منها. أمّا الفتيات اللواتي يحببنها فكنّ ينادينها بنفس اللقب فيما بينهنّ كنوع من التودّد. لم ينادِها أحد (بالأميرة) بدلاً من (سارا)، لكنّ معجباتها أحببن عظمة اللقب والدلالات الرائعة التي يوحي بها، وعندما سمعت الآنسة منشن به، ذكرته عدة مرات لزوّارها

من الآباء، بعد أن شعرت أنّه يضفي على مدرستها الداخليّة صفة ملكيّة.

بالنسبة لبيكي بدا هذا أكثر الألقاب موافقة في العالم. بدأت العلاقة بين الفتاتين فيما بعد ظهيرة يوم ضبابيّ، عندما وثبت بيكي مذعورة من نومها على المقعد المريح. ومنذ تلك اللحظة نمت علاقتهما ونضجت، ولم تعرف عنها الآنستان منشن وأميليا إلّا القليل. كانتا على علمٍ أن سارا (لطيفة) مع خادمة غسل الأطباق، ولكن لم يعرف أحدٌ عن لحظات البهجة التي تختطفانها باحتراس، عندما تجهّز بيكي غرف الطابق العلويّ بسرعة البرق، وتصل إلى غرفة سارا، فتضع صندوق الفحم الثقيل وهي تتنهّد في فرح. خلال تلك الأوقات كانت القصص تُروى على أجزاء، وأشياء مُفرحة تُصنع أو تُؤكل أو تُخبّأ في الجيوب لتُلتهم في الليل، عندما تصعد بيكي لتنام في العُليّة.

قالت ذات مرة:

- لكن يجب أن آكلها بحذر يا آنسة، إن تركت خلفي أيّ فتات فستخرج الفئران لتأكلها.

صاحت سارا في خوف:

- فئران! أهناك فئران؟

قالت بيكي بأسلوب من يقول حقيقة واقعة:

- هناك الكثير منها يا آنسة. دائماً ما تكون هناك فئران وجرذان

في العليّات. في النهاية ستعتادين على الضجيج الذي تصدره وهي تعدو في المكان. لقد اعتدتُ عليها، ولا أمانع على وجودها طالما لا تسير على وسادتي.

قالت سارا:

- يا للقرف!

قالت بيكي:

- يعتاد المرء على أي شيء بعد مضي فترة. أنتِ مجبرة على ذلك يا آنسة إذا ما وُلدتِ كخادمة غسل أطباق. كما أنّني أفضل الجرذان على الصراصير.

قالت سارا:

- وأنا كذلك. أفترض أنّ باستطاعة المرء أن يصادق جرذاً في وقت ما، لكن لا أعتقد أنّني سأحب أن أصادق صرصوراً في أيّ وقت.

أحياناً كانت بيكي لا تجرؤ على إمضاء أكثر من عدّة دقائق في الغرفة الدافئة المبهجة. وفي تلك الحالات كانتا لا تتبادلان إلّا بضع كلمات، وتدس سارا مشتريات صغيرة في الكيس القديم الذي تحمله بيكي أسفل تنورتها، مربوطاً بحزام حول خصرها. أضاف البحث واكتشاف أشياء لذيذة تُؤكل ويمكن تخزينها في مساحات صغيرة، شغفاً جديداً لحياة سارا. واعتادت على تفقّد واجهات المتاجر بلهفة عندما كانت تركب أو تتجوّل في الخارج. أوّل مرّة

خطر لها فيها أن تجلب معها فطيرتَي لحم صغيرتين أو ثلاث، شعرت بأنّها وقعت على اكتشاف جديد. وعندما عرضتها على بيكي، لمعت عيناها بشدّة.

غمغمت:

- أوه يا آنسة! ستكون هذه لذيذة وتُشبع المعدة، والإشباع هو أفضل مزاياها. الكعكة الاسفنجيّة لذيذة بنفس القدر، لكنها سرعان ما تذوب.. إذا فهمتِ ما أعنيه يا آنسة.. هذه ستطيل البقاء في معدتك.

ترددت سارا:

- حسناً، لا أعتقد أنّه سيكون جيداً أن تبقى إلى الأبد. لكن أظنّ أنّها ستكون لذيذة.

وقد كانت لذيذة بالفعل، وكذلك كانت شطائر اللحم البقريّ التي اشترتها من المخبز. والفطائر وسجق بولونيا. مع مرور الوقت، بدأت بيكي تفقد إحساسها الدائم بالجوع والتعب، ولم تعد تشعر بأنّ صندوق الفحم ثقيل لدرجة لا تحتمل.

فهو مهما كان ثقله، ومهما احتدّ مزاج الطبّاخة، وزادت صعوبة العمل الملقى على عاتقها، كان لديها دائماً فرصة ما بعد الظهيرة لتتطلّع إليها؛ فرصة أن تكون الآنسة سارا في غرفة الجلوس الخاصة بها. والحقيقة أنّ مجرد رؤية الآنسة سارا كان كافياً، بدون فطائر اللحم. وحتّى لو لم يتّسع الوقت إلا لكلمات قليلة، فقد كانت دائماً

كلمات ودودة مبهجة، تُدخل المسرة إلى القلب. ولو اتّسع الوقت للمزيد، فسيروى جزءٌ من حكاية، أو شيء آخر يتذكّره المرء فيما بعد، عندما يستلقي مستيقظاً على سريره في العليّة ليفكّر فيه. سارا كانت تفعل ما تحبّه دون وعي منها، فقد جُبلت على أن تكون فتاة معطاءة، ولم تكن لديها أيّة فكرة عمّا عناه ذلك لبيكي المسكينة، وكم بدت كمحسنة رائعة. إذا جُبلتَ على أن تكون شخصاً معطاءً، فإنّك تُولد بقلب مفتوح وبيدين مبسوطتين، وحتى لو مرّ بك وقت كانت فيه يداك فارغتين، فإنّ قلبك مليء أبداً. وتستطيع أن تمنح منه أشياء، أشياء دافئة ولطيفة وحلوة كالمساعدة والمواساة والضحك، وأحياناً ما تكون أفضل مساعدة هي ضحكة مرح لطيفة.

بالكاد، كانت بيكي تعرف معنى السرور خلال حياتها القصيرة الصعبة. لكنّ سارا جعلتها تضحك، وضحكت معها، ورغم أنّ كلتيهما لم تعيا ذلك، إلا أنّ تلك الضحكات كانت (مُشبِعة) كفطائر اللحم.

قبل عيد ميلاد سارا الحادي عشر بعدّة أسابيع، وصلتها رسالة من والدها، ولم تكن مكتوبة بنفس النغمة المتفائلة الشبابيّة المعتادة. فهو لم يكن بصحّة جيّدة، وقد أثقل عليه العمل المتعلق بمناجم الماس.

كتب لها: «كما ترين يا سارا الصغيرة، فوالدك ليس برجل أعمال إطلاقاً، والمستندات والأرقام تزعجه، لأنّه لا يفهمها بشكل جيّد، كلّ هذا يبدو جسيماً للغاية. لو لم أكن مصاباً بالحمّى لما كنت

مستيقظاً، اتقلّب في الفراش نصف الليل، وأقضي النصف الآخر في أحلام مزعجة. ولو أن سيّدتي الصغيرة هنا، لكنت أجرؤ على قول إنّها كانت ستسديني النصح الرصين. ألم تكوني لتفعلي، يا سيّدتي الصغيرة؟».

إحدى نكاته العديدة كانت أنّه يناديها (السيّدة الصغيرة) بسبب الطبيعة الوقورة التي هي عليها.

كان والدها قد جهّز استعدادات رائعة ليوم عيد ميلادها. فمن بين العديد من الأشياء، طلب لها دمية جديدة من باريس، وتأكّد من أن تكون ثيابها أعجوبة من الجمال والكمال. وعندما سألها في رسالة إن كانت الدمية هديّة مقبولة، أجابت سارا بأسلوب ظريف ووقور.

كتبت له: «لقد تقدّمتُ في السن، ولن أعيش لأحصل على دمية أخرى. ستكون هذه دميتي الأخيرة. هناك شيء مهيب في هذا الأمر. ولو كنت أستطيع كتابة الشعر، فأنا متأكّدة أنّ قصيدة (الدمية الأخيرة) ستكون شيئاً لطيفاً. لكنني لا أستطيع كتابة الشعر. لقد حاولت، وقد جعلتني هذه المحاولات أضحك. لم تكن كأشعار واتس أو كولريدج أو شكسبير، أبداً. لا يستطيع أحد أن يأخذ مكان إميلي، لكنني سأحترم الدمية الأخيرة غاية الاحترام، ومتأكّدة من أنّ بقيّة المدرسة ستحبّها. جميعهنّ يحببن الدمى، رغم أن بعض الفتيات الكبيرات -خصوصاً اللواتي اقتربن من سن الخامسة عشرة- يتظاهرن بأنّهنّ أكبر من أن يهتمِمن».

كان النقيب كرو يعاني من صداع رهيب عندما قرأ هذه الرسالة في منزله في الهند. وقد تكدّست الطاولة التي أمامه بالأوراق والرسائل التي ترهبه وتغمره بالذعر والقلق، لكنه ضحك رغم ذلك كما لم يضحك منذ أسابيع.

قال:

- أوه. إنّها تزداد مرحاً مع كلّ سنة تمرّ. أنعم عليّ يا رب بأن يُصلح هذا العمل نفسه ويحرّرني لأُسرع إلى بلادي وأراها. أعطي أيّ شيء في مقابل أن تحيط رقبتي بذراعيها الصغيرتين في هذه اللحظة! أي شيء!

كان سيُحتفى بعيد ميلاد سارا بفعاليّات عظيمة؛ ستُزَيّن غرفة الصف، وكان سيكون هناك حفل، وستُفتح صناديق الهدايا في مراسيم مفرحة، وستكون هناك وليمة شهيّة في غرفة الآنسة منشن الخاصة. عندما أتى ذلك اليوم كان المنزل بأكمله في دوّامة من الحماس. ولم يعرف أحد كيف مضى ذلك الصباح، فقد كانت هناك الكثير من التجهيزات ليتم إكمالها. زُيّنت غرفة الصفّ بأكاليل التوت، وأُخرجت الطاولات الدراسية، ورُتّبت المقاعد الطويلة عديمة المساند حول الغرفة، وغُطّيت بأغطية حمر.

عندما دخلت سارا لغرفة الجلوس الخاصة بها في الصباح، وجدت على الطاولة حزمة صغيرة عريضة مغلّفة بقطعة من الورق البنيّ. كانت تعرف أنّها هديّة، وكان بإمكانها أن تحزر من يكون صاحبها. فتحتها بلطف شديد. كانت بداخلها وسادة دبابيس

مربعة، مصنوعة من قماشة منشفة حمراء متّسخة قليلاً، وقد غُرزت فيها دبابيس سود بدقّة لتكوّن عبارة (عيد ميلاد سعيد).

صاحت سارا وقد امتلأ قلبها سعادة:

- أوه! يا للجهد الذي بذلَته! أحببتها للغاية، إنّها.. إنّها تُشعرني بالحزن.

ولكنها شعرت بالحيرة في اللحظة التاليّة. فقد كانت أسفل وسادة الدبابيس بطاقة، كتب عليها بحروف أنيقة (آنسة أميليا منشن).

قلّبت سارا البطاقة عدّة مرات. وقالت لنفسها: «آنسة أميليا! كيف يمكن أن يكون هذا!».

في تلك اللحظة سمعت الباب يُفتح بحذر ورأت بيكي تطلّ منه.

كانت هناك ابتسامة ودودة سعيدة على وجهها، جرجرت قدميها ووقفت وهي تفرك أصابعها بتوتّر.

قالت:

- هل أعجبتكِ يا آنسة سارا؟ هل أعجبتكِ؟

صاحت سارا:

- أعجبتني؟ يا عزيزتي بيكي، لقد صنعتِها بنفسك.

أطلقت بيكي شهقة هستيريّة سعيدة، وقد خضّلت عينيها دموع البهجة.

- إنّها مجرّد قماشة منشفة، حتّى أنها ليست جديدة، لكنّني أردت أن أهديكِ شيئاً فعكفت على صنعها ليالي عدّة. كنت أعلم أنّكِ تستطيعين أن تتخيّلي أنّها مصنوعة من الساتان وأنّ الدبابيس ماسيّة. حاولت أن أتخيّل ذلك وأنا أصنعها. أمّا البطاقة يا آنسة..

وأكملت ببعض التردّد:

- لم أقترف خطأً عندما التقطتها من سلّة المهملات، صحيح؟ لقد ألقتها الآنسة أميليا، ولم يكن لدي بطاقة خاصة بي. وأعلم أنّه لن يكون لائقاً أن لا أضع بطاقة، لذا وضعت بطاقة الآنسة أميليا.

اندفعت سارا واحتضنتها. لم تكن لتستطيع أن تشرح لنفسها أو لأيّ شخص آخر لِمِ شعرت بغصّة في حلقها.

صاحت بضحكة مرحة غريبة:

- أوه يا بيكي! أحبّكِ يا بيكي، أحبّكِ، أحبّكِ!

قالت بيكي وهي تتنهّد:

- أوه يا آنسة! شكراً لكِ، لطفاً، إنّها لا تستحقّ كلّ هذا، القماشة.. قماشة المنشفة لم تكن جديدة.

(٧)

مناجم الماس من جديد

عندما دخلت سارا إلى غرفة الصفّ المزيّنة بأكاليل التوت فيما بعد الظهيرة، دخلت وكأنّها تترأّس موكباً ما. ارتدت الآنسة منشن أفخم فساتينها الحريريّة، وقادتها إلى الغرفة ممسكة بيدها. وفي أثرهما خادم يحمل صندوق الدمية الأخيرة، وخادمة تحمل صندوقاً آخر، وفي المؤخرة بيكي وهي تحمل صندوقاً ثالثاً، وقد ارتدت مريلة وقلنسوة جديدتين. كانت سارا تفضّل الدخول بطريقة عاديّة، ولكن الآنسة منشن أرسلت في طلبها، وبعد محادثة في غرفتها، أعربت عن رغبتها في فعل هذا.

قالت:

- هذه ليست بمناسبة عادية، ولا أرغب أن تُقابل كواحدة.

لذا اقتيدت سارا بفخامة إلى داخل الغرفة، وشعرت بالخجل عندما حدّقت الفتيات الكبيرات فيها ولكزن بعضهنّ بالمرافق، وبدأت الفتيات الصغيرات يتلوّين بسعادة في مقاعدهنّ.

قالت الآنسة منشن عندما تصاعدت الهمسات:

- اصمتن أيّتها الآنسات الشابّات! جيمس ضع الصندوق على الطاولة وأزِل الغلاف. إيما ضعي الذي تحملينه على مقعد.

ثم صاحت فجأة وبحدّة:

- بيكي!

كانت بيكي قد نسيت نفسها مع الحماسة التي شعرت بها، وابتسمت وهي تنظر إلى لوتي، التي كانت تتلوى في ترقّب عارم. كادت أن تسقِط الصندوق، لأن الصوت المستهجن فاجأها، وكانت انحناءة الاعتذار المذعورة المرتجفة التي قدّمتها مضحكة لدرجة أن لاڤينيا وجيسي استغرقتا في ضحك مكتوم.

قالت الآنسة منشن:

- لا يحق لكِ النظر إلى سيّداتك الشابّات، يبدو أنّك قد نسيتِ نفسك. ضعي الصندوق!

أطاعتها بيكي، وفي عجلة وخوف تراجعت بسرعة نحو الباب.

أشارت الآنسة منشن للخدم بيدها وقالت:

- يمكنكم المغادرة.

ابتعدت بيكي عن الباب في احترام لتسمح للخدم الأعلى مرتبة بالخروج أولاً. ولم تستطع مقاومة إلقاء نظرة توّاقة على الصندوق الموضوع على الطاولة. كان هناك شيء مصنوع من الساتان الأزرق يظهر من بين طيّات أوراق التغليف.

قالت سارا فجأة:

- لو سمحتِ يا آنسة منشن، هل تستطيع بيكي أن تبقى؟

انطوت فعلتها على جرأة كبيرة، دفعت الآنسة منشن لأن تُفلت من عقالها ما يشبه ارتعادة صغيرة. ثم وضعت نظّاراتها على عينيها وحدّقت إلى طالبتها الفخريّة بانزعاج.

صاحت:

- بيكي؟ عزيزتي سارا!

تقدّمت سارا خطوة في اتجاهها ووضّحت:

- أريدها أن تبقى لأنّني أعلم أنّها ستحبّ رؤيّة الهدايا. إنّها فتاة صغيرة أيضاً كما تعلمين.

شعرت الآنسة منشن بالعار. وتنقلت بنظرها من شخص لآخر. ثم قالت:

- عزيزتي سارا، بيكي هي خادمة غسل الأطباق، وخادمات غسل الأطباق.. لسن.. لسن فتيات صغيرات.

لم يخطر ببال الآنسة منشن من قبل أن تفكر فيهنّ من هذا المنظار أبداً. فخادمات غسل الأطباق مجرّد آلات تحمل صناديق الفحم وتُشعل النيران.

قالت سارا:

- ولكن بيكي فتاة صغيرة، وأعلم أنّها ستستمتع بهذا. دعيها تبقى أرجوكِ، لأنّه عيد ميلادي.

أجابت الآنسة منشن بتعالٍ:

- بما أنّكِ تطلبين هذا كمعروف في عيد ميلادك، فلها أن تبقى. ريبيكا، اشكري الآنسة سارا على لطفها الشديد.

كانت بيكي قد تراجعت إلى ركن، وهي تفتل طرف مريلتها في ترقّب وسرور. فاقتربت، وهي تقدم الانحناءات، وسرت بين عينيها وعيني سارا ومضة تفاهم وديّة، وقالت فيما كانت كلماتها تتعثر واحدة فوق الأخرى:

- أوه، إذا سمحتِ لي يا آنسة! أنا شاكرة للغاية يا آنسة! كنت أرغب في رؤيّة الدمية يا آنسة، كنت أرغب في ذلك. شكراً لكِ يا آنسة، وشكراً لكِ يا سيّدتي..

ثم استدارت وقدّمت انحناءة مذعورة للآنسة منشن:

- .. لسماحكِ لي بالبقاء.

أشارت الآنسة منشن بيدها مجدّداً، وهذه المرة في اتّجاه الركن القريب من الباب.

أمرتها قائلة:

- اذهبي وقفي هناك، لا تقتربي من سيّداتك الصغيرات كثيراً.

ذهبت بيكي إلى مكانها وابتسامة كبيرة تعلو وجهها. لم تكن تهتم إلى أين يتمّ إرسالها، فقد كانت محظوظة بما يكفي ليُسمح لها بالبقاء داخل الغرفة، بدلاً من أن تكون في غرفة غسيل الأطباق بالأسفل، وكلّ هذه المباهج تحدث هنا. ولم تمانع حتّى عندما

تنحنحت الآنسة منشن بطريقة منذرة بالسوء وبدأت تتحدث من جديد.

أعلنت:

- الآن أيتها الآنسات الشابات، أريد أن أقول بضع كلمات لكُنّ.

همست إحدى الفتيات:

- ستلقي خطاباً، أتمنى أن ينتهي هذا.

شعرت سارا بالانزعاج. بما أنّ هذه حفلتها فعلى الأغلب سيكون الخطاب عنها. ليس بالأمر المسلّي أن تقف في غرفة الصفّ بينما يُلقى عنك خطاب.

بدأت، وكان خطاباً بالفعل:

- أنتنّ على علمٍ أيّتها السيّدات الشابّات أنّ سارا العزيزة بلغت الحادية عشرة من عمرها اليوم.

غمغمت لافينيا:

- سارا العزيزة!

- كثيرات منكنّ بلغن الحادية عشرة أيضاً، لكن عيد ميلاد سارا مختلف عن أعياد ميلاد بقيّة الفتيات الصغيرات. لأنّها عندما تكبر ستصبح وريثة ثروة هائلة، وسيكون من واجبها أن تديرها بكفاءة وجدارة.

قهقهت جيسي هامسة:

- مناجم الماس.

لم تسمعها سارا، لكنّها شعرت بالحرارة تجتاحها، وهي تقف هناك وعيناها الرماديتان الخضراوان مثبّتتان على الآنسة منشن. لطالما شعرت بأنّها تكره الآنسة منشن بطريقة أو بأخرى عندما تسمعها تتحدّث عن المال، لكن بالطبع، من قلّة الاحترام أن تكره الأشخاص البالغين.

استمر الخطاب:

- عندما أحضرها والدها العزيز، النقيب كرو، من الهند ووضعها في عنايتي، قال لي مازحاً (أخشى أنّها ستصبح ثريّة للغاية يا آنسة منشن) وكان ردّي آنذاك: (سيكون تعليمها في معهدي أثمن من أعظم ثروة أيّها النقيب كرو) وبالفعل، فقد أصبحت سارا إحدى أكثر طالباتي انجازاً. لغتها الفرنسيّة ومهارتها في الرقص هما أكبر إشادة بدور المؤسسة. أخلاقها -التي جعلتكنّ تنادينها بالأميرة سارا- مثاليّة. وتظهر لنا كياستها في إقامتها حفل ما بعد الظهيرة هذا. أتمنّى أن تقدّرن كرمها وأن تظهرن شكركنّ لها بأن تقلن معاً: (شكراً سارا!).

ثم وقف الصفّ بأكمله مثلما حدث في صباح اليوم الذي مازالت سارا تتذكّره جيّداً، وقلن بصوت واحد:

- شكراً سارا!

ولا بدّ من القول بأن لوتي كانت تقفز في مكانها. بدت سارا خجلة لحظة، ثم انحنت لهنّ وكانت انحناءتها في غاية اللطف.

قالت:

- شكراً لحضوركنّ حفلتي.

استحسنت الآنسة منشن الأمر:

- جميل للغاية يا سارا. هذا ما تفعله أميرة حقيقيّة عندما يصفّق لها العامة. لاڤينيا!

صاحت الآنسة منشن موبّخة لاڤينيا على إصدارها صوتاً يشبه الشخير للتوّ:

- ... ولو كنتِ تشعرين بالغيرة من زميلتك، فأتمنّى أن تُعبّري عن مشاعرك بطريقة ملائمة أكثر لسيّدة. والآن سأغادر وأترككنّ لتستمتعن بوقتكنّ.

وفي اللحظة التي خرجت فيها من الغرفة انكسرت التعويذة التي لطالما كان يلقيها حضورها عليهنّ. وبالكاد أُغلق الباب قبل أن تصبح كلّ المقاعد فارغة. قفزت الفتيات الصغيرات أو وقعن من مقاعدهّن، ولم تُضيّع الفتيات الأكبر سناً أيّ وقت في ترك مقاعدهنّ. واندفعن جميعهنّ في اتّجاه الصناديق. كانت سارا قد انحنت على أحدها بسعادة غامرة.

قالت:

- عرفت، هذه كتب.

أطلق الأطفال همهمات رثاء وبدت إرمينغارد مذعورة.

صاحت:

- هل يرسل لكِ والدكِ الكتب كهديّة عيد ميلاد؟ يا إلهي، إنّه بسوء أبي. لا تفتحيها يا سارا.

ضحكت سارا وقالت:

- إنّني أحبها.

ثمّ استدارت لأكبر صندوق. وعندما أخرجت الدمية الأخيرة، كانت رائعة لدرجة أنّ الصغيرات أطلقن تأوّهات فرح وسرور، وابتعدن ليحدّقن فيها بانبهار منقطع الأنفاس.

شهقت إحداهنّ:

- إنّها بحجم لوتي تقريباً.

صفّقت لوتي ورقصت حولها وهي تقهقه.

قالت لاڤينيا:

- إنّها ترتدي ثياب مسرح، وعباءتها مبطّنة بفرو السمّور.

صاحت إرمينغارد وهي تقترب أكثر:

- أوه، إنّها تحمل منظار أوبرا في يدها، لونه أزرق وذهبّي!

قالت سارا:

- هذا صندوقها، لنفتحه ونرى أغراضها.

جلست على الأرض وأدارت المفتاح. وتجمّع الأطفال من حولها في جلبة. رفعت سارا الطبقات واحدة تلو الأخرى فظهر ما بداخل الصندوق. لم تشهد غرفة الصفّ مثل هذا الضجيج من قبل. كانت هناك ياقات من الدانتيلا وجوارب حريريّة ومناديل، وحقيبة على شكل جوهرة بداخلها قلادة وتاج يبدوان وكأنّهما مصنوعان من ماس حقيقي، وكان هناك جلد فقمة طويل وفراء لتدفئة اليدين، وفساتين حفلات رقص وفساتين للتنزّه وفساتين للزيارات، وقبّعات وفساتين حفلات شاي ومراوح يدويّة. حتّى أنّ لاڤينيا وجيسي نسيتا أنّهما أكبر من أن تهتمّا بالدُمى، فأطلقتا صيحات التعجّب والبهجة، وتناولتا الأغراض لتنظرا إليها.

قالت سارا، وهي تقف بجانب الطاولة، وتضع قبّعة مخمليّة سوداء كبيرة على رأس مالكة كلّ هذه الأشياء الرائعة، ذات الوجه المبتسم الخالي من أيّ تعبير:

- هب.. هب. إنّها تفهم كلام البشر وتشعر بالفخر من كلّ الإعجاب الذي تتلقّاه.

قالت لاڤينيا في تعالٍ:

- إنّكِ تفترضين الأشياء دائماً.

أجابت سارا بهدوء:

- أعلم أنّني أفعل. وأحبّ فعل هذا. لا يوجد شيء أجمل من افتراض الأمور. وكأنّكِ تصبحين جنيّة. إنّك لو افترضتِ أيّ شيء بقوة كافيّة سيصبح كالحقيقة.

قالت لافينيا:

- من السهل أن تفترضي الأشياء إن كنتِ تملكين كلّ شيء. هل تستطيعين أن تفترضي وتتظاهري لو كنتِ متسوّلة تعيش في عليّة؟

توقفت سارا عن تنسيق ريش نعام الدمية الأخيرة، وبدا عليها الاستغراق في التفكير.

قالت:

- أعتقد أنّني أستطيع. لو كان المرء متسوّلاً، فيجب عليه أن يفترض ويتظاهر طوال الوقت. ولكن ربّما لا يكون هذا سهلاً.

كثيراً ما كان يخطر لها فيما بعد مدى غرابة أنّها بمجرد أن انتهت من قول ذلك -وفي تلك اللحظة تماماً- دخلت الآنسة أميليا إلى الغرفة.

قالت:

- سارا، محامي والدك السيد بارو، اتّصل يطلب لقاء الآنسة منشن، وبما أنّها يجب أن تتحدّث معه وحدها والوجبات الخفيفة موضوعة في صالة الاستقبال الخاصة بها، فمن الأفضل أن تُقام وليمتك الآن، كي تستطيع شقيقتي استضافته في غرفة الصفّ.

لا يمكن لأحدٍ أن يرفض الوجبات الخفيفة في أيّ وقت، لذا

التمعت العديد من العيون. قامت الآنسة أميليا بتنظيم الموكب، وقادته إلى غرفة الآنسة منشن وسارا بجانبها، تاركين خلفهم الدمية الأخيرة جالسة على مقعد، فيما ثيابها الفخمة مبعثرة حولها، فساتين ومعاطف ملقاة على ظهور الكراسي، وأكوام من التنانير المزيّنة بكشاكش من الدانتيلا على المقاعد.

لم يكن لبيكي الحقّ في أن تشارك في تناول الطعام. ولكنها كانت طائشة بما يكفي كي تطيل البقاء لدقيقة إضافيّة لتتفرّج على الأشياء الجميلة، وقد كان فِعلاً طائشاً حقاً.

قالت الآنسة أميليا لها:

- عودي إلى عملكِ يا بيكي.

ولكنها بقيت ما يكفي من الوقت لتلتقط بتبجيل بيّن، فراء تدفئة اليدين ثم معطفاً، وبينما هي واقفة تنظر إليهما بإعجاب، سمعت الآنسة منشن على عتبة الباب، أصيبت بالرعب من فكرة أن تُتّهم بأنّها ارتكبت وقاحة. اندفعت أسفل الطاولة، فأخفاها المفرش الموضوع عليها.

دخلت الآنسة منشن إلى الغرفة برفقة رجل قصير القامة ذي ملامح حادة، وقد بدا مضطرباً إلى حدّ ما. حتّى الآنسة منشن نفسها بدت منزعجة، وكانت تنظر إلى الرجل جافّ الوجه في انزعاج وحيرة.

جلست بوقار وتصلّب وأشارت له ليجلس على أحد المقاعد. وقالت:

- تفضّل بالجلوس يا سيّد بارو.

لم يجلس السيد بارو من فوره، فقد أثارت الدمية الأخيرة والأشياء المحيطة بها اهتمامه. ثبت نظّارتيه وحدّق فيها باستهجان عصبي. لم يبدُ على الدمية الأخيرة أنّها تمانع على الإطلاق، وجلست منتصبة في مكانها تبادله النظر بلا مبالاة.

علّق السيد بارو باقتضاب:

- لقد كلّفت مائة جنيه، كلّ ثيابها باهظة الثمن، وقد صُنعت لدى خيّاط فساتين باريسيّ. لقد اعتاد ذلك الشاب على إنفاق المال بإسراف.

شعرت الآنسة منشن بالإهانة. بدا وكأنّه ينتقص من أفضل عملائها، وكانت هذه وقاحة.

فحتّى المحامون لا يحقّ لهم ارتكاب الوقاحات.

قالت بتكلّف:

- اعذرني يا سيّد بارو، لم أفهم.

قال السيد بارو بنفس الطريقة الانتقادية:

- هدايا عيد الميلاد هذه لطفلة في الحادية عشرة! هذا ما اسميّه إسرافاً وجنوناً.

ازداد تكلّف الآنسة منشن، قالت:

- النقيب كرو رجل ثريّ، ومناجم الماس وحدها..

دار السيد بارو حولها وصاح:

- مناجم الماس! ليست هناك مناجم ماس! لم تكن هناك أيّة مناجم!

نهضت الآنسة منشن من مقعدها، وصاحت:

- ماذا! ماذا تعني؟

أجاب السيد بارو بفظاظة:

- على أيّة حال، كان من الأفضل أن لا تكون هناك أيّة مناجم.

هتفت الآنسة منشن وهي تتشبّث بظهر مقعد:

- ولا أيّ منجم ماس؟

وشعرت وكأنّ حلماً جميلاً يتلاشى أمام عينيها.

قال السيد بارو:

- مناجم الماس تُبدّد الثروة في أكثر الأحيان بدلاً من أن تنتجها. عندما يضع الرجل نفسه بين يدي صديق عزيز للغاية وهو نفسه ليس برجل أعمال، يكون من الأفضل أن يبقى بعيداً عن مناجم ماس الصديق العزيز، أو مناجم الذهب، أو أيّة مناجم أخرى يريد منه هذا الصديق العزيز أن يضع أمواله فيها. الراحل النقيب كرو..

أوقفته الآنسة منشن بشهقة.

صرخت:

- الراحل النقيب كرو! الراحل! هل أتيت لتخبرني أنّ النقيب كرو..

أجاب السيد بارو بغلاظة فجة:

- لقد مات يا سيّدتي. مات بسبب الملاريا وهموم العمل معاً. لم تكن الملاريا لتقتله لو لم يصبه الجنون بسبب كلّ المصاعب التي واجهها في العمل، ولم تكن هذه المصاعب لتقتله لو لم يُصب بالملاريا. لقد مات النقيب كرو!

ارتمت الآنسة منشن على المقعد، وقد أصابتها كلماته بالذعر. قالت:

- ماذا كانت المصاعب التي واجهها في العمل؟ ماذا كانت؟

أجاب السيد بارو:

- مناجم الماس، والأصدقاء الأعزّاء.. والإفلاس.

انقطعت أنفاس الآنسة منشن، شهقت:

- الإفلاس!

- خسر ماله حتّى آخر قرش. كان هذا الشاب يمتلك ثروة عظيمة. وصديقه العزيز كان مهووساً بمسألة مناجم الماس. وقد وضع كلّ أمواله وأموال النقيب كرو فيها، ثم هرب. كان النقيب كرو مصاباً بالحمّى عندما ظهرت هذه الأخبار. كانت الصدمة أكبر ممّا يتحمّل. وقد مات وهو يهذي بشأن ابنته الصغيرة، ولم يترك خلفه قرشاً.

فهمت الآنسة منشن الآن الأمر، لم تتلقّ ضربة كهذه خلال حياتها كلّها. طالبتُها الفخريّة، وعميلها الفخريّ، أُزيحا من معهد النخبة بضربة واحدة. شعرت بالغضب وكأّن أحداً سلبها شيئاً، واللوم يقع طبعاً على النقيب كرو وسارا والسيد بارو بالقدر نفسه.

صاحت:

- هل تحاول أن تخبرني أنّه لم يترك أيّ شيء! وأنّ سارا لا تملك أيّة ثروة! وأنّ الطفلة أصبحت متسوّلة! وأنّك ستترك بين يديّ فتاة صغيرة فقيرة بدلاً من وريثة ثروة هائلة؟

كان السيد بارو رجل أعمال محنّك، وأراد أن يخلي نفسه من المسؤوليّة بوضوح وبدون أيّ تأخير.

أجاب:

- لقد تركها لتصبح متسوّلة بالتأكيد، وهي الآن في عهدتك يا سيّدتي. لأنّها لا تملك أيّ أقارب على حد علمنا في هذا العالم.

اندفعت السيّدة منشن للأمام، وبدت وكأنّها ستفتح الباب وتعدو لتوقف الحفل السعيد الذي وصل ضجيجه لأذنيها في تلك اللحظة.

قالت:

- هذا فظيع! إنّها في غرفتي الآن، ترتدي الحرير الرقيق وتنانير الدانتيلا، وتقيم حفلاً على نفقتي.

قال السيد بارو بهدوء:

- لو كانت تقيم حفلاً فإنّه على نفقتك بالفعل يا سيّدتي. شركة بارو وسكيبوورث ليست مسؤولة عن أيّ شيء. لم أرَ من قبل رجلاً يفقد ثروته كليّاً. النقيب كرو توفّي قبل أن يدفع فاتورتنا الأخيرة. وقد كانت فاتورة ضخمة.

استدارت الآنسة منشن عن الباب وقد تزايد سخطها. كان هذا أسوأ ممّا قد يحلّم به أي أحد.

صاحت:

- هذا ما سيحدث لي إذن! كنت واثقة من تحملّه للنفقات، لذا انفقت على كلّ أنواع الأشياء التافهة لأجل الطفلة. لقد دفعت فاتورة تلك الدمية السخيفة وثيابها الفخمة التافهة. لقد طلب منّي أن أوفّر لها كلّ ما تريده. أنّها تملك عربة ومهراً وخادمة، وقد دفعتُ ثمن كلّ هذا منذ آخر شيك استلمته.

من الواضح أن السيد بارو لم يكن ينوي البقاء وسماع قصّة الآنسة منشن الحزينة، بعد أن أوضح موقف شركته وأخبرها بالحقائق المجرّدة. ولم يكن يشعر بأيّة شفقة على مدراء المدارس الداخليّة الغاضبين.

علّق:

- من الأفضل ألّا تدفعي لأيّ شيء آخر يا سيّدتي. إلا لو

رغبتِ أن تعطي السيّدة الصغيرة شيئاً. لا أحد سيتذكّركِ. أنّها لا تملك قرشاً نحاسيّاً حتّى.

احتجت الآنسة منشن، شعرت كأنّ من واجب السيد بارو أن يصحّح المسألة:

- وماذا سأفعل؟

قال السيد بارو وهو يطوي نظارتيه ويضعها في جيبه:

- ما من شيء لفعله. النقيب كرو مات. والفتاة أصبحت فقيرة، ولا أحد سيتولّى مسؤوليّتها إلّا أنتِ.

- لستُ مسؤولة عنها. وأرفض أن أتحمّل مسؤوليّتها!

شحبت الآنسة منشن من شدة الغضب. استدار السيد بارو ليغادر وقال بلا مبالاة:

- ليس لي شأن بهذا الأمر يا سيّدتي. شركة بارو وسكيبوورث ليست مسؤولة عن أيّ شيء. ونشعر بالأسف لما حدث بالطبع.

صاحت الآنسة منشن:

- إن كنت تعتقد أنّك ستُلزمني بها فأنت مخطئ للغاية. لقد خُدعتُ وسُرق مالي. سألقي بها في الشارع!

لو لم تكن الآنسة منشن غاضبة لهذه الدرجة لكانت أكثر تحفّظاً من أن تقول كلّ هذا. ولكنها رأت نفسها مكلّفة بالعناية بطفلة تربّت في بذخ، ولطالما بغضتها، ففقدت سيطرتها على نفسها.

اتّجه السيد بارو للباب بدون أن يبدو عليه أيّ انزعاج، وعلّق قائلاً:

- لو كنتُ مكانكِ لما فعلتُ ذلك يا سيّدتي. لن يبدو مظهركِ جيّداً. وهي ليست بالسُمعة السارّة التي قد ترغبين في انتشارها عن مؤسّستك. طردُ فتاة فقيرة ليس لها أقارب إلى الشارع.

كان السيد بارو رجل أعمال حاذق، يعرف ماذا يقول. وكان يعرف أنّ الآنسة منشن سيّدة أعمال أيضاً، وأنّها ذكيّة بما يكفي لترى حقيقة الأمر. لم تكن لتستطيع الإقدام على فعل شيء يجعل الناس يتحدّثون عنها باعتبارها امرأة قاسية غليظة القلب.

وأضاف:

- من الأفضل أن تُبقيها وتستفيدي من وجودها. أعتقد أنّها طفلة ذكيّة. يمكن أن تعود عليك بفائدة عندما تكبر.

صاحت الآنسة منشن:

- سأحصل على فائدتي منها قبل أن تكبر!

قال السيد بارو بابتسامة صغيرة خبيثة:

- متأكّد من أنّكِ ستفعلين يا سيّدتي. متأكّد من ذلك. طاب صباحك.

وانحنى لها ثمّ خرج مغلقاً الباب خلفه، بقيت الآنسة منشن واقفة في مكانها تحدّق في الباب. ما قاله كان صحيحاً تماماً. كانت

تعرف هذا، ولم يكن بإمكانها عمل شيء لتدارك الأمر، أبداً. طالبُتها الفخريّة أصبحت مجرّد فتاة فقيرة ليس لها أقارب. والمال الذي قدّمَته لها ضاع ولا يمكن استرجاعه.

وبينما هي واقفة هناك وقد قُطعت أنفاسها من إحساسها بالخسارة، التقطت أذناها صوت صيحات مبتهجة من غرفتها المقدّسة، التي فتحت للوليمة. على الأقل، لديها هذا لإيقافه.

لكنّها عندما اندفعت إلى الباب، فتحته الآنسة أميليا، التي عندما رأت وجهها المتغير الغاضب تراجعت خطوة للوراء في خوف وصاحت:

- ما الخطب يا أختي؟

كان صوت الآنسة منشن يبدو وحشياً عندما أجابت:

- أين سارا كرو؟

شعرت الآنسة أميليا بالحيرة وتلعثمت قائلة:

- سارا! لماذا، إنّها مع بقيّة الأطفال في غرفتك بالتأكيد.

قالت الآنسة منشن في تهكّم مرير:

- هل تملك فستاناً أسود في خزانتها المترفة؟

تلعثمت الآنسة أميليا مرّة أخرى:

- فستان أسود اللون؟ أسود؟

- لديها فساتين من كلّ الألوان، هل تملك واحداً أسود؟

أخذت الآنسة أميليا تشحب وقالت:

- لا.. أجـ.. أجل! لكنّه أصبح قصيراً عليها. أجل لديها فستان واحد مخمليّ أسود، وقد أصبح صغيراً عليها.

- اذهبي وأخبريها أن تخلع ثوبها الحريريّ الورديّ الباهظ، وأن ترتدي الثوب الأسود سواء أكان قصيراً أم لا. لقد انتهت علاقتها مع البذخ!

بدأت الآنسة أميليا تعتصر يديها السمينتين وتبكي قائلة وهي تشهق:

- أوه يا أختي! أوه يا أختي! ماذا حصل؟

لم تضيّع الآنسة منشن كلماتها لتنميق الخبر، وقالت:

- لقد مات النقيب كرو. مات ولم يترك خلفه قرشاً. وترك تلك الفتاة المدلّلة الكريهة كثيرة الأوهام فقيرة بين يديّ.

ارتمت الآنسة أميليا بثقلٍ على أقرب مقعد.

- لقد صرفتُ مئات الجنيهات على كلّ ذلك الهراء الخاصّ بها، ولن أرى قرشاً منها. أوقفي حفلتها السخيفة هذه. واجعليها تغيّر ثيابها الآن.

قالت الآنسة أميليا لاهثة:

- أنا؟ هل عليّ الذهاب وإخبارها، الآن؟

وجاءت الإجابة غاضبة:

- في هذه اللحظة! لا تجلسي وتحدّقي بي كالغبيّة، اذهبي!

كانت الآنسة أميليا المسكينة معتادة على أن تُطلق عليها لقب غبيّة. وكانت تعرف أنّها كذلك في الحقيقة. وكان يترتّب على الغبيّات أن يفعلن الأشياء المزعجة دائماً. كان أمراً محرجاً أن تدخل إلى غرفة مليئة بالأطفال المبتهجين، وأن تخبر صاحبة الحفل أنّها أصبحت متسوّلة، وأنّها يجب أن تصعد إلى الأعلى وترتدي فستاناً أسود قديماً أصغر من مقاسها بكثير. ولكن كان عليها فعل ذلك. ولم يكن هذا بالوقت المناسب لطرح الأسئلة.

فركت عينيها بمنديلها حتّى احمّرتا. ثم خرجت من الغرفة بدون أن تجرؤ على قول كلمة أخرى. عندما تبدو أختها الكبيرة هكذا وتتحدث بالطريقة التي تحدّثت بها للتوّ، فمن الحكمة أن تطيع الأوامر بدون أيّ تعليق. أمّا الآنسة منشن فكانت تقطع الغرفة وهي تتحدّث مع نفسها بصوت عالٍ، دون أن تعي أنها كانت تفعل ذلك. عندما ظهرت قصّة مناجم الماس العام الماضي خطرت ببالها كلّ الاحتمالات الممكنة. فحتى مُلاّك المعاهد يستطيعون جني ثروة من سوق الأسهم الماليّة بمساعدة مُلاّك المناجم. والآن، وبدلاً من أن تتطلّع إلى الأرباح ها قد تُركت لتحصي الخسائر خلفها.

قالت:

- الأميرة سارا بالطبع! لقد دُلّلت هذه الطفلة وكأنّها ملكة.

كانت تندفع بغضب بجانب ركن الطاولة وهي تقول ذلك، وفي اللحظة التالية تفاجأت بصوت شهقة بكاء عالية من أسفل المفرش.

صاحت بغضب:

- ما هذا؟

سمعت صوت الشهقة مرّة أخرى، فانحنت ورفعت طرف مفرش الطاولة، وصرخت: «كيف تجرُئين! كيف تجرئين! اخرجي حالاً!».

زحفت بيكي المسكينة من أسفل الطاولة، وقلنسوّتها تتدلى من رأسها، ووجهها محمرّ من البكاء المكبوت.

قالت موضّحة:

- لو سمحتِ، إنّها.. إنّها أنا يا سيّدتي. أعلم أنّني لم يكن عليّ التواجد هنا. لكنّني كنت أتفرّج على الدمية يا سيّدتي. وشعرتُ بالذعر عندما دخلتِ، فاختبأتُ أسفل الطاولة.

قالت الآنسة منشن:

- كنتِ هناك طوال الوقت تتلصّصين.

اعترضت بيكي وهي تكرّر انحناءاتها:

- لا يا سيّدتي. لم أكن أتلصّص.. ظننت أنّني أستطيع الخروج بدون أن تلاحظيني، لكنّني لم أستطع وبقيت هناك. لم أكن لأجرؤ على التلصّص يا سيّدتي، لكن لم أستطع أن أمنع نفسي من سماع الكلام.

شعرَت للحظة أنّها فقدت كلّ خوفها من السيّدة الفظيعة التي تقف أمامها. وانفجرت بالبكاء.

قالت:

- أوه، أرجوكِ. أجرؤ على قول أنّكِ ستعاقبينني يا سيّدتي.. لكنّي أشعر بالأسف على الآنسة سارا. أنا آسفة للغاية!

أمرتها الآنسة منشن:

- اخرجي حالاً!

انحنت بيكي مرّة أخرى وتدفقت الدموع من عينيها. قالت وهي ترتعش:

- أجل. سيّدتي.. سأفعل.. سيّدتي. لكن أوه، فقط أريد أن أسألك، الآنسة سارا اعتادت على أن تكون شابة صغيرة ثريّة، وعلى أن تُخدم، ماذا ستفعل الآن يا سيّدتي بدون خادمة؟ أوه، أرجوكِ. لو سمحتِ لي بخدمتها بعد أن أنتهي من غسل القدور والغلاّيات؟ سأنتهي من عملي بسرعة. لو سمحتِ لي بخدمتها بما أنّها أصبحت فقيرة الآن. أوه.

وعادت تبكي من جديد:

- الآنسة سارا الصغيرة المسكينة.. يا سيّدتي.. لقد كنّا نناديها بالأميرة.

وبطريقة ما، أثار هذا غضب الآنسة منشن أكثر من ذي قبل. حتّى خادمة غسل الأطباق تقف في صف هذه الطفلة، وقد أدركت للتوّ أنّها لم تحبّها ولا للحظة منذ البداية. كان هذا كثيراً للغاية. دكّت الآنسة منشن الأرض بقدمها.

قالت:

- لا.. بالتأكيد لا. ستقوم بخدمة نفسها وخدمة الآخرين أيضاً. غادري الغرفة في هذه اللحظة، وإلاّ ستُطردين من المكان.

ألقت بيكي بمريلتها على رأسها وهربت من الغرفة. ركضت إلى غرفة غسيل الأطباق في الطابق السفلي، وهناك جلست بين قدورها وغلّاياتها، وبكت كما لو أنّ قلبها سينفطر.

ناحت:

- ما يحدث يشبه أميرات القصص المسكينات، اللواتي يجدن أنفسهنّ وحيدات في هذا العالم.

لم تبدُ الآنسة منشن بهذا الهدوء وتلك القسوة من قبل، كما بدت عندما أتت سارا لرؤيتها بعد عدّة ساعات، استجابة لرسالة أرسلتها لها.

حتى في تلك اللحظة، شعرت سارا أنّ حفلة عيد الميلاد كانت مجرّد حلم أو أنّها حدثت منذ سنين عديدة، لفتاة صغيرة أخرى.

أزيلت كلّ علامات الاحتفال، أكاليل التوت اختفت من على جدران غرفة الصف، وأعيدت الطاولات والمقاعد إلى أماكنها. عادت غرفة الآنسة منشن إلى ما كانت تبدو عليه دائماً -بدون أيّ أثر للحفل- وارتدت الآنسة منشن ثوبها العاديّ. أُمرت الطالبات بأن يبدّلن فساتين الاحتفال، وبما أنّهن فعلن ذلك، فقد عُدن إلى

غرفة الصفّ وانقسمن إلى مجموعات، ثمّ أخذن يهمسن ويتحدّثن بحماس.

كانت الآنسة منشن قد قالت لأختها:

- أخبري سارا أن تأتي إلى غرفتي. واشرحي لها بوضوح أنّني لن أتحمّل أيّ بكاء أو تصرفات مزعجة.

أجابت الآنسة أميليا:

- أختي، إنّها أغرب طفلة رأيتها في حياتي. لم تُثِر أيّة ضجّة. وتتذكّرين أنّها لم تُحدث أيّة جلبة عندما غادر النقيب كرو عائداً إلى الهند. عندما بدأتُ أخبرها عما حصل، وقفَت أمامي بهدوء ونظرت إليّ بدون أن تصدر صوتاً. وبدا أنّ عينيها تتّسعان وتتّسعان وأصبحت شاحبة للغاية. عندما أكملتُ حديثي، ظلّت واقفة لعدّة ثوانٍ، وبدأ ذقنها يرتجف، ثم استدارت وركضت خارجة من الغرفة إلى الطابق العلويّ. العديد من الأطفال الآخرين بدؤوا بالبكاء، ولكن لم يبدُ عليها أنّها كانت تسمعهم أو تهتمّ بأيّ شيء آخر عدا كلماتي. شعرتُ بالغرابة للغاية عندما لم تقل أيّ شيء، عندما تقول أيّ شيء مفاجئ وغريب، تتوقّع من الناس أن يقولوا شيئاً، أيّ شيء كان.

لم يعرف أحدٌ قطّ ما حدث في غرفة سارا عندما هرولت صاعدة إلى الطابق العلوي وأقفلت الباب خلفها. والحقيقيّة أنّها هي نفسها بالكاد تتذكر ما حصل عدا عن أنّها كانت تسير جيئة

وذهاباً في الغرفة قائلة لنفسها مراراً وتكراراً بصوت شعرت أنّه ليس صوتها:

- بابا مات! بابا مات!

وحالما توقّفت أمام إميلي، التي كانت تراقبها من مقعدها، صاحت بقوّة:

- إميلي! هل تسمعينني؟ هل تسمعينني؟ بابا مات؟ مات في الهند.. على بعد آلاف الأميال.

عندما حضرت إلى غرفة الآنسة منشن، استجابة إلى استدعائها، كان وجهها شاحباً، وعيناها محاطتين بهالتين سوداوين. فمها كان مغلقاً وكأنّها لا تريد أن تظهر حجم ما عانته وتعانيه. ولم تبدُ كالفراشة الحمراء التي كانت تتنقّل بين كنوزها في غرفة الصفّ المزيّنة، بل بدت كفتاة صغيرة غريبة المظهر، كئيبة الوجه، ومخيفة تقريباً.

كانت قد ارتدت فستانها الأسود المخمليّ القديم بدون مساعدة من مارييت. كان قصيراً للغاية وضيّقاً، وبدت ساقاها طويلتين ونحيلتين أسفل التنورة البسيطة. وبما أنّها لم تجد شريطاً أسود، فقد تناثر حول وجهها شعرها القصير وقد تناقض لونه الأسود مع شحوبها. كانت تحمل إميلي بذراع واحدة وبقوّة، وقد لفّتها بقطعة من القماش الأسود.

قالت الآنسة منشن:

- ضعي دميتك على الأرض، ماذا تعنين بإحضارها إلى هنا؟

أجابت سارا:

- لا. لن أضعها على الأرض، إنّها كلّ ما أملك. أبي أعطاني إيّاها.

لطالما كانت الآنسة منشن في داخلها تشعر بالارتباك أمام سارا، وقد مرّت بنفس الشعور الآن. لم تكن سارا تتحدث بوقاحة بقدر ما كانت تتحدّث بتماسك وبرود، الأمر الذي لم تكن تعرف كيف تتعامل معه. وربّما كان ذلك لأنّها تعلم أنّها تقدِم على فعلٍ قاسٍ ولا إنسانيّ.

قالت:

- لن يكون لديكِ وقت كافٍ للدمى في المستقبل. سيكون عليكِ أن تعملي وتُحسني من نفسك لتُصبحي ذات فائدة.

حدّقت فيها سارا بعينيها الواسعتين الغريبتين ولم تنبس ببنت شفة.

أكملت الآنسة منشن:

- سيختلف الوضع منذ الآن. أفترض أن الآنسة أميليا قامت بشرح الأمر لكِ.

أجابت سارا:

- أجل، أبي ميّت. ولم يترك لي أيّ مال، لذا فأنا فقيرة للغاية.

قالت الآنسة منشن وقد ثارت أعصابها عندما تذكّرت ما يعنيه كلّ هذا:

- أنتِ متسوّلة. ويبدو أنّكِ لا تملكين أيّ أقارب ولا منزل ولا أحد ليعتني بكِ.

للحظة اضطرب الوجه الشاحب الصغير وانقبض، ولكنها مرة أخرى لم تقُل أيّ شيء.

قالت الآنسة منشن بحدّة:

- فيمَ تحدّقين؟ هل أنتِ غبيّة لدرجة أنّك لا تفهمين؟ أقول لكِ أنّكِ أصبحتِ وحيدة في هذا العالم، وما من أحدٍ بإمكانه أن يساعدك، إلا إذا قرّرتُ أن أبقيَكِ هنا إحساناً منّي.

أجابت سارا بنغمة منخفضة، وكان هناك صوت، وكأنّها ابتلعت شيئاً عالقاً في حلقها:

- فهمتُ. فهمتُ.

صاحت الآنسة منشن وهي تُشير إلى هديّة عيد الميلاد الرائعة التي تجلس قريبة منهما:

- تلك الدمية، تلك الدمية السخيفة، وكلّ حاجياتها التافهة الباهظة. لقد دفعتُ ثمن فاتورتها!

استدارت سارا إلى الكرسي حيث تجلس الدمية. قالت وفي صوتها الحزين رنّة غريبة:

- الدمية الأخيرة.. الدمية الأخيرة.

- إنّها الدمية الأخيرة بالفعل! وهي ملكي، وليست ملكاً لكِ. كلّ ما تملكينه صار ملكي.

قالت سارا:

- إذن فلتأخذيها بعيداً عني، رجاءً. لا أريدها.

لو كانت سارا قد بكت وناحت وبدت خائفة، لكانت الآنسة منشن أكثر صبراً معها. فقد كانت امرأة تحب السيطرة والشعور بقوتّها، لكن عندما رأت وجه سارا الشاحب الصامد، وسمعت صوتها اليافع الأبيّ، شعرت بأنّ قوّتها لا تساوي شيئاً.

قالت:

- لا تغترّي، فقد ولّى زمن هذه الأشياء وأصبحت من الماضي. لن تعودي أميرة. عربتُك ومُهرك سيُرسلان بعيداً.. وخادمتك ستُطرد. سترتدين أقدم وأبسط ثيابكِ، فثيابك الفخمة لم تعد تناسب وضعكِ الحالي. أنتِ مثل بيكي.. يجب أن تعملي من أجل لقمة عيشك.

ويا لدهشة الآنسة منشن عندما رأت عينا الطفلة تلتمعان ببريق ارتياح.

قالت:

- هل أستطيع أن أعمل؟ إن كنت أعمل فلن أهتمّ كثيراً. ماذا أستطيع أن أفعل؟

وكانت الإجابة:

- تفعلين كلّ ما تؤمرين بفعله. أنتِ طفلة ذكيّة، وتتعلّمين بسرعة. وإذا كنتِ مفيدة فقد أسمح لكِ بالبقاء هنا. يمكنكِ

أن تتحدّثي بفرنسيّة جيّدة، وتستطيعين المساعدة في الاعتناء بالأطفال الصغار.

صاحت سارا:

- هل أستطيع؟ أوه، اسمحي لي أرجوكِ! أعلم أنّني أستطيع تعليمهنّ. كما أنّني أحبّهنّ وهن يحببنني.

قالت الآنسة منشن:

- لا تتحدثي عن هراء محبة الناس لكِ. سيكون عليكِ أن تفعلي أكثر من مجرّد تعليمهنّ. ستقومين بأداء الخدمات، وستساعدين في المطبخ وغرفة الصفّ أيضاً. وإذا لم يُرضني عملك، سأطردك خارجاً. تذكّري هذا. اذهبي الآن.

ظلّت سارا واقفة للحظة تنظر إليها. ففي داخل روحها الصغيرة كانت تفكّر في أشياء عميقة وغريبة. ثم استدارت لتغادر الغرفة.

قالت الآنسة منشن:

- توقفي! ألا تنوين أن تشكريني؟

توقفت سارا، وهاجت في صدرها كلّ أنواع الأفكار العميقة والغريبة.

قالت:

- على ماذا؟

أجابت الآنسة منشن:

- على لطفي معكِ. على لطفي في إيوائك في منزلي.

تقدمت سارا خطوتين أو ثلاثاً في اتّجاهها وصدرها الصغير يعلو ويهبط في انفعال، وقالت بصوت غريب صارم لا يشبه أصوات الأطفال:

- أنتِ لستِ لطيفة. لستِ لطيفة، وهذا ليس بمنزل.

ثم استدارت واندفعت خارجة من الغرفة قبل أن تستطيع الآنسة منشن إيقافها أو فعل أيّ شيء عدا التحديق بغضب شديد خلفها.

ارتقت سارا السلالم ببطء، إلا أنها كانت تُنازع أنفاسها. وأمسكت إميلي بقوة على جانبها.

قالت لنفسها:

- أتمنى لو أنّها تستطيع الكلام. لو كانت تستطيع الكلام.. لو كانت تستطيع الكلام!

كانت تريد أن تذهب إلى غرفتها لتستلقي على جلد النمر، وتضع خدها على رأس القطّة العظيمة، وتحدّق في النار لتفكّر وتفكّر مطولاً. لكنّها قبل أن تصل إلى عتبة الباب خرجت الآنسة أميليا من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، ووقفت أمامه، وهي تبدو متوتّرة ومرتبكة. والحقيقة هي أنّها كانت تشعر بالخجل مما أُمرت بأن تفعله.

قالت:

- لا يمكنكِ.. لا يمكنكِ أن تدخلي إلى هنا.

صاحت سارا، وتراجعت قليلاً:

- ألا أستطيع الدخول؟

أجابت الآنسة أميليا وقد احمرّ وجهها قليلاً:

- لم تعد هذه غرفتكِ.

فجأة، وبطريقة ما، فهمت سارا. كانت قد أدركت أنّ هذه هي بداية التغيير الذي تحدّثت عنه الآنسة منشن. سألتها، وهي تأمل أن لا يرتجف صوتها:

- أين هي غرفتي؟

- ستنامين في العليّة مع بيكي.

كانت سارا تعرف مكان العليّة، فقد أخبرتها بيكي بذلك. استدارت وصعدت طابقين آخرين من السلالم آخرهما سلّم ضيق مغطّى بسجّاد قديم رثّ ممزّق. شعرت وكأنّها تغادر لمكان بعيد تاركة خلفها العالم الذي عاشت فيه الطفلة الأخرى، التي لم تعُد تشبهها. أما هذه الطفلة بفستانها القديم القصير الضيق، التي تصعد السلالم إلى العليّة، فقد كانت مخلوقاً مختلفاً تماماً.

عندما وصلت إلى باب العليّة وفتحته، ارتعد قلبها رعدة صغيرة حزينة. ثمّ أغلقت الباب ووقفت خلفه لتنظر حولها.

أجل، هذا عالم آخر. كان سقف الغرفة مائلاً، ومطليّاً بالقار، وقد صار قذراً وتساقط في عدّة مواضع. وكان هناك موقد صدئ

وهيكل سرير حديديّ قديم، وفراش صلب مغطّى بغطاء بالٍ. وبعض قطع الأثاث المتهالك التي لا يمكن استخدامها بالأسفل لشدة تهالكها، فأُودعت في الأعلى. أسفل نافذة منوّر العليّة، التي لم تُظهر إلّا قطعة مستطيلة رماديّة كئيبة من السماء، كان هناك مسند قدمين أحمر ممزّق. مضت نحوه سارا وجلست عليه. كانت نادراً ما تبكي، ولم تبكِ الآن حتّى. وضعت إميلي على ركبتيها واسندت رأسها عليها وأحاطتها بذراعيها، وجلست هناك. رأسها الأسود الصغير يستريح على اللفّة السوداء، دون أن تقول كلمة ودون أن تصدر صوتاً.

وبينما هي تجلس في هذا السكون سمعت طرقة خفيفة على الباب.. طرقة خفيفة مهذبة، حتّى أنّها لم تسمعها في البداية، ولم ترفع رأسها حتّى فُتح الباب بتوجّس وظهر وجه مسكين مبلل بالدموع يختلس النظر. كان هذا وجه بيكي، التي كانت تبكي سرّاً لساعات وتفرك عينيها بمريلة المطبخ، حتّى بدت غريبة المظهر.

قالت بصوت خافت:

- أوه يا آنسة. هل يمكنني.. هل تسمحين لي بالدخول؟

رفعت سارا رأسها ونظرت إليها. حاولت أن تبتسم، ولكنها لم تستطع. فجأة -وكان هذا من خلال حزن عيني بيكي المحبّين- بدا وجهها كوجه طفلة لا تتجاوز عمرها بكثير. مدّت يدها ونشجت قليلاً.

قالت:

- أوه، بيكي. قلت لكِ إننا متماثلتان، مجرّد فتاتين صغيرتين.. فتاتين صغيرتين فحسب. ولعلّك ترين الآن كم كان هذا صحيحاً. لا يوجد أيّ فرق بيننا الآن. لم أعُد أميرة.

ركضت بيكي إليها، وأمسكت بيدها وضمتها لصدرها، وهي جاثمة على ركبتيها بجانبها تبكي من الحبّ والألم.

بكت فخرجت كلماتها مبعثرة:

- بلى يا آنسة، أنتِ كذلك. مهما حدث لكِ -أيّاً كان- ستظلّين أميرة. وما من شيء يمكن أن يغيّر ذلك.

(٨)

في العليّة

كانت الليلة الأولى التي قضتها سارا في عليّتها أمراً لن تنساه أبداً. فقد عاشت خلالها محنة قاسيّة لم تخبر عنها أحداً، وحتّى لو فعلت فلم يكن ثمّة من أحدٍ ليتفهمها. استلقت في الظلام ولكنّها ظلّت يقِظة. وكان من حسن حظّها أنّها لطالما كان فكرها يتشتّت رغماً عنها بين حين وآخر بسبب من غرابة المكان المحيط بها. ومن حسن حظّها أيضاً، أنّ جسدها الصغير كان يذكّرها بالأشياء الماديّة حولها. ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان عذاب عقلها الصغير أكبر من أن تتحمله طفلة. لكنّ الحقيقة هي أنّها بالكاد شعرت بجسدها، ولم تتذكّر إلّا أمراً واحد خلال تلك الليلة.

ظلّت تكرّر لنفسها هامسة:

- بابا ميّت! بابا ميّت!

لم تلاحظ إلّا بعد وقتٍ طويل، أنّ سريرها صلب للغاية، وأنّها كانت تتقلّب وتتقلّب لتجد موضعاً مريحاً عليه، وأنّ الظلام أشدّ حلكة من أيّ ظلام آخر رأته في حياتها، وأنّ صوت عواء الرياح

التي تهبّ بين المداخن يشبه صوت النحيب. لكن كان هناك شيء أسوأ. كانت هناك أصوات صرير وخدش في الجدران، وخصوصاً خلف حافّتها السفليّة. وكانت تعرف معناها، لأن بيكي وصفتها لها من قبل. ذلك أنّ هناك جرذان وفئران تتشاجر أو تلهو مع بعضها. حتّى أنّها سمعت مرّة أو مرّتين صوت الأقدام ذات المخالب الحادة وهي تهرول من جانب لآخر على أرضيّة الغرفة. وتذكّرت في الأيّام اللاحقة، أنّها عندما سمعت أصواتها لأوّل مرة، انتصبت في فراشها وأخذت ترتجف، وعندما استلقت من جديد، غطّت رأسها بالملاءة.

لم تتغير حياتها تدريجيّاً، بل حدث دفعة واحدة.

قالت الآنسة منشن للآنسة أميليا:

- يجب أن تعتاد على الوضع الذي ستعيش فيه. ولا بدّ أن تعرف ماذا ينتظرها على الفور.

غادرت مارييت المنزل في الصباح التالي. واللمحة السريعة التي اختطفتها سارا لغرفة جلوسها وهي تمرّ من أمام بابها المفتوح أنبأتها أنّ كلّ شيء قد تغيّر. فقد أزيل كلّ أثاثها الفاخر واستبدل بسرير وُضع في أحد الأركان، لتهيئة الغرفة لاستقبال طالبة أخرى.

وعندما نزلت لتناول طعام الإفطار رأت لاڤينيا تجلس في مقعدها المجاور للآنسة منشن، وخاطبتها الآنسة منشن ببرود قائلة:

- سارا، ستبدئين واجباتك الجديدة بالجلوس مع الطالبات الصغيرات على الطاولة الصغيرة. يجب أن تبقي عليهنّ

هادئات، وتتأكّدي من أنّهنّ يتصرفن بشكل جيّد ولا يعبثن بالطعام. كان عليكِ أن تنزلي في وقتٍ أبكر، فقد سكبت لوتي كوب الشاي الخاص بها.

تلك كانت البداية، ومن يوم لآخر ازداد عدد الواجبات التي تُكلّف سارا بها. كانت تُعلّم الطالبات الصغيرات اللغة الفرنسيّة وتستمع لبقيّة دروسهنّ، وكانت هذه أبسط أعمالها. فقد وجدوا أنّها يمكن أن تكون مفيدة في عدد لا مُنتهٍ من الأعمال. فمثلاً يمكن إرسالها لقضاء أيّة حاجة، في أيّ وقت، وفي أيّ حال كان عليه الجو. ويمكن أن تؤمر بأداء المهام التي يهملها الأشخاص الآخرون. وقد اعتادت الطبّاخة ومعها الخادمات على تقليد سلوك الآنسة منشن، واستمتعن كثيراً بإلقاء الأوامر على (الفتاة الصغيرة) التي أثارت حولها كلّ تلك الضجّة طوال تلك المدّة. لم يكنّ خادمات من الصنف الأول الراقي، لذا فلم تكن أخلاقهنّ ولا طباعهنّ جيّدة، وكان من المريح بالنسبة لهنّ أن يجدن شخصاً يمكنهنّ إلقاء اللوم عليه دائماً.

خلال الشهر أو الشهرين الأُول، ظنّت سارا أن استعدادها للقيام بالمهام بقدر استطاعتها، وصمتها أمام التوبيخ؛ قد يُلينان الأشخاص الأكثر قسوة عليها. وفي قلبها الصغير الفخور أرادت أن يرين أنّها تحاول أن تكسب لقمة عيشها ولا تريد أخذ صدقة. ولكن أتى الوقت الذي رأت فيه أنّهنّ لم يلِنّ أبداً، وأنّها كلما كانت أكثر استعداداً لإطاعة الأوامر، كلما أصبحت الخادمات المهملات المتطلّبات أكثر قسوة وتسلّطاً، وأصبحت الطبّاخة سليطة اللسان أكثر استعداداً للومها.

ولو كانت سارا أكبر لكلّفتها الآنسة منشن بتعليم الطالبات الأكبر سناً، ووفّرت مالها بطرد إحدى المعلّمات. ولكن بما أنّها كانت مجرّد طفلة، وقد بدت كطفلة فعلاً، فقد كانت أكثر فائدة كخادمة لكلّ الأعمال، وساعية أفضل بقليل من الساعيات العاديّات، فهنّ لسن جديرات بالثقة مثلها ولا بذكائها. كانت سارا تؤتمن على المهام والرسائل المعقّدة، حتّى أنّها كانت قادرة على دفع الفواتير، مضافاً إليها قدرتها على تنظيف وترتيب الغرف جيّداً.

وهكذا أصبحت دروسها أمراً من الماضي. لم يعد هنالك من أحد ليعلّمها أي شيء، ولم يكن يُسمح لها بالدراسة إلّا بعد أيّام طويلة مضنية من الركض هنا وهناك اتّباعاً لأوامر الجميع، فكان يؤذن لها على مضض بالدخول إلى غرفة صفّ فارغة مع كدسٍ كبير من الكتب القديمة، لتدرس وحدها في الليل.

كانت تقول لنفسها: «إذا لم أذكّر نفسي بالأشياء التي تعلّمتها فسوف أنساها على الأغلب. أنا تقريباً خادمة غسل أطباق، ولو كنت خادمة غسل أطباق جاهلة، فسأصبح مثل بيكي المسكينة. وأتساءل هل سأنسى كلّ شيء تماماً، وأبدأ بإسقاط الحروف من الكلمات مثلها، ولا أتذكّر أنّ الملك هنري الثامن كان متزوّجاً من ستّ نساء».

كان أكثر الأشياء غرابة في حياتها الجديدة هو تغيّر مكانتها بين الطالبات. فبدلاً من أن تكون شخصيّة شبه ملكيّة بينهن، بدا وكأنّها لم تكن واحدة منهنّ يوماً. كانت تُجبر على العمل لفترات طويلة،

وبالكاد تحصل على فرصة للتحدّث مع أية واحدة منهنّ، ولاحظت أنّ الآنسة منشن كانت تفضّل فصلها عن حياة الطالبات في غرفة الصف.

قالت تلك السيّدة:

- لن أسمح لها بالتحدّث مع بقيّة الفتيات وتكوين علاقات صداقة معهنّ. الفتيات يحببن الشكوى، ولو بدأت تحكي لهّن قصصاً رومانسيّة عن نفسها، فستصبح بطلة مظلومة في نظرهنّ، وسيُحدِث ذلك انطباعاً سيئاً لدى الآباء. من الأفضل أن تعيش حياة منفصلة عنهنّ؛ حياة تناسب ظروفها. إنّني أمنحها منزلاً، وهذا أكثر مما يحقّ لها أن تتوقّعه منّي.

وفي الواقع فإنّ سارا لم تكن تتوقّع أيّ شيء، فقد كانت أكثر كبرياءً من أن تحاول الإبقاء على علاقة ودّ مع فتيات يشعرن بالحرج والتردّد بشأنّها. والحقيقة هي أنّ طالبات الآنسة منشن مجموعة من الفتيات الصغيرات التافهات. وكنّ معتادات على الثراء والراحة، وبما أنّ فساتين سارا كانت تصبح أقصر وأقصر وأكثر رثاثة مع مضي الوقت، وأصبح حقيقيّاً أنّها ترتدي حذاءً مثقوباً، وأنّها تُرسَل لتشتري البقالة وتحملها عبر الشوارع في سلّة معلّقة على ذراعها عندما تحتاجها الطباخة بشكل عاجل؛ لذا شعرن عندما كنّ يتحدثن معها وكأنّهنّ يوجّهنّ الحديث إلى خادمة أقلّ مرتبة منهن.

علّقت لافينيا:

- من كان يظن أنّ الفتاة صاحبة مناجم الماس، ستبدو اليوم مثيرة

للشفقة. وأنّها أصبحت أكثر غرابة من ذي قبل. صحيح أنّها لم تعجبني منذ البداية، لكنّي لا أستطيع تحمّل طريقتها الجديدة في التحديق بالناس دون أن تقول شيئاً وكأنّها تراقبهم.

عندما سمعت سارا بهذا، قالت من فورها:

- هذا صحيح. لهذا أحدّق ببعض الناس. أحبّ أن أعرف المزيد عنهم. وأفكّر فيهم لاحقاً.

والحقيقة هي أنّها وفّرت على نفسها كثيراً من الأذى بإبقاء عينيها على لاڤينيا، التي لطالما كانت متأهبة لإيذاء الأخريات، وسيسرّها للغاية أن تؤذي الطالبة الفخريّة السابقة.

لم تؤذِ سارا أحداً قطّ، ولم تتدّخل بأي شيء. فقد عملت كالكادحين؛ سارت في الشوارع المبلّلة وهي تحمل السلال والطرود، وعانت ما عانت مع إهمال الفتيات الصغيرات لدروسهنّ الفرنسيّة، وعندما غدت أكثر رثاثة وفقراً، قيل لها أن تتناول وجباتها في الطابق السفليّ. عاملها الجميع بلا مبالاة، وأصبح قلبها أكثر كبرياءً وألماً، لكنها لم تُفصح لأحدٍ عمّا كانت تشعر به قطّ.

كانت تقول من بين أسنانها الصغيرة المطبقة:

- الجنود لا يتذمّرون، وأنا مثلهم لن أفعل. سأتظاهر أنّ هذا فصل من الحرب.

ولكن مرّت عليها أوقات كاد فيها قلبها الصغير أن يتفطّر من الوحدة، لولا ثلاثة أشخاص.

أولهم بالطبع كانت بيكي.. وبيكي فقط. خلال الليلة الأولى التي أمضتها في العليّة، شعرت براحة غامضة لمعرفة أنّ على الجانب الآخر من الجدار الذي تصرّ وتخدش الفئران فيه، توجد إنسانة أخرى صغيرة. وفي الليالي التاليّة ازداد شعورها بالراحة. كانتا بالكاد تستطيعان التحدّث خلال النهار. فلكلّ منهما مهامّها الخاصّة لتؤدّيها، وأيّة محاولة للتحدّث يُنظر إليها كمحاولة للتسكّع وتضييع الوقت. همست لها بيكي في الصباح الأوّل:

- لا تنزعجي منّي يا آنسة لو لم أتحدّث بتهذيب. سيوبّخوننا إذا فعلتُ. أريد قول (أرجوكِ) و(شكراً لكِ) و(اعذريني) لكنّي لا أمتلك الوقت الكافي لقولها.

لكنّها اعتادت على أن تتسلّل إلى عليّة سارا قبل أن ينبلج الفجر، لتزرّر لها ثوبها وتساعدها بقدر ما تحتاج، قبل أن تنزل إلى المطبخ لإشعال النار. واعتادت سارا عندما يحلّ الليل على سماع الطرقة المتواضعة على الباب، مما عنى أنّ خادمتها مستعدة لمساعدتها مجدّداً إذا ما كانت بحاجة إليها. شعرت سارا خلال الأسابيع الأولى من حزنها بالصدمة، ولم تستطع التحدّث، لذا مرّ بعض الوقت قبل أن تريا بعضهما أو تتبادلا الزيارات. وعرفت بيكي في قلبها أنّه من الأفضل أن يُترك الأشخاص المبتلون بالمصائب وشأنهم.

كان الشخص الثاني من ثلاثيّ المواساة، هي إرمينغارد، ولكن حدثت بعض الأشياء الغريبة قبل أن تجد إرمينغارد مكانها.

عندما عاد لسارا إدراكها بالحياة من حولها، أدركت أنّها كانت

قد نسيت أنّ إرمينغارد تعيش في هذا العالم. فلطالما كانتا صديقتين، ولكن سارا شعرت أنّها تقدمت في العمر سنوات عديدة. لا يمكن التشكيك بأنّ إرمينغارد كانت بليدة بقدر ما كانت رقيقة القلب، لذا كانت قد تعلّقت بسارا بنحو بسيط ويائس، كانت تأتي بدروسها لسارا في حال أنّها كانت بحاجة للمساعدة، وتستمع لكلّ كلمة تقولها، وتحاصرها بطلبات القصص. لكنّها لم تكن تملك شيئاً مثيراً للاهتمام لتقوله، وكانت تكره الكتب بكلّ أنواعها. لذا لم تكن من الأشخاص الذين يتذكّرهم المرء وهو عالق وسط عاصفة من الشدائد العظيمة، فنسيت سارا أمرها.

وكان ما جعل من نسيانها أمراً سهلاً للغاية كون عائلتها كانت استدعتها للمنزل لبضعة أسابيع فجأة. وعندما عادت لم ترَ سارا اليوم أو يومين، وعندما رأتها لأوّل مرة، كانت تنزل من سلّم وهي تحمل إلى الطابق السفليّ كومة من الملابس التي يجب أن ترتّق. وقد تعلمت سارا الترتيق. بدت شاحبة ومختلفة، وقد ارتدت جوارب سوداً وفستاناً غريباً أصغر من مقاسها، يُظهر الكثير من ساقيها النحيلتين.

كانت إرمينغارد أبلد من أن تجابه موقفاً كهذا. لم تستطع أن تفكّر في أيّ شيء لتقوله. كانت تعرف ما حصل، لكن بطريقة ما، لم تكن تتخيل أنّ سارا ستبدو هكذا؛ غريبة وفقيرة للغاية، وتقريباً كخادمة. جعلها هذا تشعر بالبؤس، ولم تستطع إلّا أن تنفجر بضحكة هستيريّة قصيرة، وصاحت عن عمدٍ وبدون أن ترمي لشيء:

- أوه سارا هل هذه أنتِ؟

أجابت سارا:

- أجل.

مرّت فكرة غريبة فجأة في رأسها فاحمرّ وجهها. كانت تحمل كومة الثياب بين يديها وقد وضعت ذقنها أعلى الكومة لتثبّتها. وشيء ما في نظرة عينيها الثاقبتين جعل إرمينغارد تفقد ذكاءها أكثر. شعرت أنّ سارا أصبحت نوعاً جديداً من الفتيات، وكأنّها لم تعرفها من قبل. ربما لأنّها أصبحت فقيرة فجأة وأصبح عليها أن ترتّق الأشياء وتعمل مثل بيكي.

تلعثمت:

- أوه، كيف.. كيف حالكِ؟

أجابت سارا:

- لا أعرف، كيف حالكِ أنتِ؟

قالت إرمينغارد وقد غلبها خجلها:

- أنا.. أنا بأتمّ خير.

ثم فكّرت بتشنّج في شيء أكثر ودّاً لتقوله، وقالت بسرعة:

- هل أنتِ.. هل أنتِ حزينة؟

هنا ارتكبت سارا ذنباً وتصرّفت بظلم، ففي تلك اللحظة تورّم قلبها الممزّق، وشعرت بأنّ من الأفضل للأشخاص الأغبياء لهذه الدرجة أن يبتعدوا عنها.

قالت:

- ما رأيكِ أنتِ؟ هل تعتقدين أنّني سعيدة؟

واندفعت من جانبها دون كلمة أخرى.

مع مرور الوقت لاحظت أنّها لو لم يجعلها بؤسها تنسى، لعرفت أنّه لا يمكن لوم إرمينغارد البليدة المسكينة على أسلوبها غير اللبق عندما تُفاجأ بمثل هذا الموقف. فلطالما كانت خرقاء، وكلّما حاصرتها مشاعرها كلّما أصبحت أكثر غباءً.

لكن الفكرة المفاجئة التي مرّت عبر عقلها جعلتها شديدة الحسّاسيّة.

فكّرت:

- إنّها كالأخريات. إنّها لا تريد أن تتحدّث معي حقّاً، وتعلم أنّ لا أحد يفعل.

لذا، كان هنالك حاجز بينهما لعدّة أسابيع. وعندما كانتا تتقابلان صدفة، كانت سارا تحوّل نظرها إلى جهة أخرى، بينما كانت إرمينغارد تشعر بالتصلّب والإحراج ولا تستطيع أن تتكلّم.

كانتا أحياناً تهزّان برأسيهما عندما تتقابلان، ولكن أحياناً أخرى كانتا لا تتبادلان التحيّة حتّى.

فكّرت سارا:

- إذا كانت تفضّل أن لا تتحدث معي، فسأبتعد عن طريقها.

عملت الآنسة منشن على جعل ذلك سهلاً للغاية.

وبالفعل، فقد جعلت الآنسة منشن ذلك سهلاً لدرجة أنّهما نادراً ما كانتا تريان بعضهما. ولوحظ خلال ذلك الوقت أنّ إرمينغارد أصبحت أغبى من أيّ وقت آخر، وأنّها كانت تبدو فاترة الهمّة وحزينة. وصارت تطيل الجلوس في المقعد المجاور للنافذة متكوّمة على نفسها، وتحدّق خارجها دون أن تتكلّم. في إحدى المرّات توقّفت جيسي التي كانت تمرّ قربها لتنظر إليها بفضول.

سألتها:

- لماذا تبكين يا إرمينغارد؟

أجابت إرمينغارد بصوت مرتجف مكتوم:

- لست أبكي.

قالت جيسي:

- بلى أنتِ كذلك. ها قد انحدرت دمعة كبيرة على أنفكِ ووقعت من طرفه. وها هي واحدة أخرى.

قالت إرمينغارد:

- حسناً. أشعر بالبؤس. وهذا ليس من شأن أحد.

وأدارت ظهرها السمين ثمّ أخرجت منديلها وخبّأت وجهها فيه بتجافٍ.

في تلك الليلة عندما صعدت سارا إلى عليّتها، كانت متأخّرة أكثر من العادة. فقد أُجبرت على أن تعمل بعد موعد نوم الطالبات،

وبعد ذلك ذهبت لتستذكر دروسها في غرفة الصفّ الموحشة. عندما وصلت إلى قمّة السلّم، تفاجأت بشعاع ضوء يصدر من أسفل باب العليّة.

فكّرت بسرعة: «لا أحد يدخل إلى هنا غيري، لكن أحداً ما قام بإشعال شمعة».

وبالفعل فقد قام ثمّة شخص بإشعال شمعة، ولم تكن الشمعة في شمعدان المطبخ الذي يُتوقّع منها استخدامه، بل في أحد شمعدانات غرف الطالبات. ذلك الشخص كان يجلس على مسند القدمين الممزق، وكان يرتدي قميص نوم ويحيط نفسه بشال أحمر. كانت هذه إرمينغارد.

صاحت سارا وقد كانت مصدومة لدرجة أنّها خافت تقريباً:

- إرمينغارد! ستتورّطين في المتاعب.

تعثّرت إرمينغارد وهي تقف من على مسند القدمين. ومشت متثاقلة عبر العليّة وهي تجرجر شبشب غرفة النوم، الذي هو أكبر من مقاس قدميها. كانت عيناها محمرّتين، وأنفها كذلك من كثرة البكاء.

قالت:

- أعلم أنّ هذا سيحدث لو أمسكوا بي. لكنّي لا أهتمّ أبداً. أوه يا سارا، أخبريني أرجوكِ. ما الخطب؟ لما لا تحبينني بعد الآن؟

كان هنالك شيء في صوت إرمينغارد جعل سارا تشعر بتلك الغصة في حلقها، كان صوتها يحمل في طياته عطفاً وبساطة، يشبه ذلك الصوت الذي سألته فيه بأن يصبحا «صديقتين حميمتين». وبدا أنها لم تكن تتعمد ما كان يبدر منها في الأسابيع القليلة الماضية.

أجابت سارا:

- نعم، أنا أحبّكِ. اعتقدت، كما ترين حيث كلّ شيء مختلف الآن. اعتقدت أنّكِ صرت مختلفة.

فتحت إرمينغارد عينيها المبلّلتين بالدموع على وسعهما وصاحت:

- لماذا، أنتِ التي كنتِ مختلفة. لم ترغبي في التحدّث معي. لم أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله. أنتِ من تغيرتِ بعد أن رجعتُ.

فكّرت سارا للحظة ووجدت أنّها ارتكبت خطأ. وأوضحت:

- صحيح، لقد تغيّرت. ولكن ليس بالطريقة التي تتوقّعينها. لا تريد الآنسة منشن أن أتحدّث مع الفتيات. ومعظمهنّ لا يردن التحدّث معي. اعتقدت، ربما، أنّكِ لا ترغبين في ذلك أيضاً. لذا حاولت أن أبقى بعيدة عن طريقك.

كادت إرمينغارد أن تنوح عندما قالت بنغمة ملؤها اللوم والحيرة.

- أوه يا سارا!

وبعد أن تبادلا نظرة أخرى، ارتمتا بين ذراعي بعضهما. وأسندت سارا رأسها الأسود لعدّة دقائق على الكتف المغطّى بالشال الأحمر.

فهي عندما اعتقدت أنّ إرمينغارد هجرتها، كانت قد شعرت بوحدة فظيعة.

جلستا بعدها على الأرض معاً، أحاطت سارا ركبتيها بذراعيها، وتلفعت إرمينغارد بشالها.

نظرت إرمينغارد إلى الوجه الصغير ذي العينين الواسعتين الغريبتين بحبّ وقالت:

- لم أستطع أن أتحمّل الأمر أكثر. أجرؤ على قول إنّكِ تستطيعين العيش من دوني يا سارا، لكني لا أستطيع العيش بدونكِ. لقد متّ تقريباً. لذا خطر ببالي الليلة، عندما كنت أبكي أسفل أغطية السرير، أن أتسلّل إلى هنا وأتوسّل بكِ لأن نصبح صديقتين من جديد.

قالت سارا:

- أنتِ ألطف مني. كان كبريائي أكبر من محاولة إعادة صداقتنا. كما ترين، لقد حان وقت اختباري، ولقد أظهر أنّني لست طفلة لطيفة. كنت خائفة من هذه النتيجة. ربما..

وجعدت جبهتها في حكمة:

- .. كان هذا هو المقصد من كلّ حلّ بي.

ردّت إرمينغارد بحزمٍ:

- لا أرى في ما حدث أي شيء جيّد.

اعترفت سارا بصراحة:

- ولا أنا، لأخبركِ الحقيقة. لكنّني أفترض أنّ ربما كان هناك خيرٌ في الأشياء، حتّى لو كنّا لا نراه. لربما ثمّة..

وأكملت بشكّ:

- .. خير في الآنسة منشن.

تفقدت إرمينغارد العليّة بفضول يشبوه الخوف، وقالت:

- هل تعتقدين أنّكِ تستطيعين تحمّل العيش هنا يا سارا؟

وبدورها أجالت سارا بنظرها حول المكان، وأجابت:

- لو تظاهرتُ بأنّها مختلفة تماماً، نعم أستطيع. أو إذا تظاهرت أيضاً بأنّها مكان من حكاية.

كانت تتحدّث ببطء. وبدأت مخيّلتها تعمل، بعد أن كانت قد توقّفت مذ حلّت عليها المصائب. فقد كانت تشعر وكأنّها متجمّدة.

- عاش أشخاص آخرون في ظروف أسوأ. فكّري في الكونت دي مونت كريستو في أقبية شاتوديف، وفكّري في الأشخاص الذين سُجنوا في الباستيل!

همست إرمينغارد وهي تراقبها وقد بدأت تقع تحت سحرها:

- الباستيل.

وتذكّرت قصصاً عن الثورة الفرنسيّة استطاعت سارا ترسيخها في عقلها بطريقتها الدراميّة في رواية القصص. لا أحد غير سارا يستطيع فعل هذا.

ومن ثم أبرقت عينا سارا بوميض مألوف.

قالت وهي تحيط ركبتيها بذراعيها:

- أجل، سيكون هذا مكاناً جيّداً لأتظاهر أنّني فيه. أنا سجينة في الباستيل. كنت هنا لسنين وسنين وسنين. وقد نسي الجميع أمري. الآنسة منشن هي آمرة السجن، وبيكي..

وأزاد ضوءٌ مفاجئ إلى وهج عينيها:

- .. بيكي هي السجينة في الزنزانة المجاورة.

ثمّ استدارت لإرمينغارد، وقد عادت لتكون سارا القديمة.

قالت:

- سأتظاهر بذلك، وسيكون لي في هذا قدر من الدِعة.

شعرت إرمينغارد بالبهجة والذهول، قالت:

- وهل ستخبرينني عن الأمر؟ هل أستطيع التسلّل إلى هنا في الليل، عندما يكون الوضع آمناً، وأستمع إلى القصص التي تختلقينها خلال اليوم؟ سنبدو كصديقتين حميمتين أكثر من أيّ وقت آخر.

أجابت سارا وهي تهزّ برأسها:

- أجل، الشدائد تختبر الناس، وقد اختبرتُكِ فبرهنتِ كم أنتِ لطيفة.

(٩)

ملكي صادق[١]

الشخص الثالث من ثلاثيّ المواساة هي لوتي. كانت فتاة صغيرة لا تعرف معنى الشدائد، وقد حيّرها التغيّر الطارئ على أمّها المتبنيّة الشابة. كانت قد سمعت شائعات عن أشياء غريبة حصلت لسارا، لكنها لم تفهم لماذا أصبح مظهرها مختلفاً، لماذا ترتدي فستاناً أسود قديماً ولا تدخل إلى غرفة الصفّ إلّا للتدريس بدلاً من أن تجلس على مقعدها الشرفيّ وتتعلّم هي نفسها. كانت هناك الكثير من الأحاديث الهامسة بين الفتيات الصغيرات عندما علمن أن سارا لم تعد تعيش في الغرفة التي اعتادت إميلي على الجلوس فيها بكلّ أُبّهتها. أكبر عقبة واجهت لوتي هي أنّ سارا لم تكن تقول إلّا القليل عندما تُوجّه لها الأسئلة، وفي سنّ السابعة يحتاج المرء لأن توضّح له الأمور الغامضة بالتفصيل ليفهمها.

سألت بثقة في أوّل صباح تولّت فيه صديقتها صفّ اللغة الفرنسيّة الخاصّ بالطالبات الصغيرات:

---

(١) ملكي صادق: اسم شخصية ذكرت في الإنجيل.

- هل أصبحتِ فقيرة للغاية يا سارا؟ هل أنتِ فقيرة كالمتسوّلين؟

أقحمت يدها السمينة في يد سارا الرقيقة وفتحت عينيها المدوّرتين والدموع تسيل منهما وقالت:

- لا أريدكِ أن تصبحي فقيرة كالمتسوّلين.

بدت وكأنّها على وشك البكاء فأسرعت سارا تواسيها، قالت بشجاعة:

- المتسوّلون لا يملكون مكاناً ليعيشوا فيه، أنا عندي مكان لأعيش فيه.

أصرت لوتي:

- أين تعيشين؟ الفتاة الجديدة تنام في غرفتك، ولم تعد الغرفة جميلة كالسابق.

قالت سارا:

- إنّني أعيش في غرفة أخرى.

سألتها لوتي:

- هل هي غرفة جميلة؟ أريد أن أراها.

قالت سارا:

- يجب أن لا تتحدثي، فالآنسة منشن تنظر إلينا، وستغضب منّي لأنّني سمحت لكِ بأن تهمسي.

كانت تعلم أنّها ستُحاسَب على كلّ شيء لا ينال رضا الآنسة منشن. إذا لم تركّز الطالبات، وإذا تحدثن، وإذا تحركن كثيراً في مقاعدهنّ، فستوبخ هي على كلّ هذا.

لكن لوتي كانت فتاة صغيرة قويّة الإرادة. وإذا كانت سارا لن تخبرها أين تعيش، فستجد الإجابة بطريقة أخرى. كانت تتحدّث مع زميلاتها الصغيرات وتتسكّع حول الفتيات الكبيرات وتصغي إلى نميمتهنّ، واعتماداً على معلومات معيّنة تسرّبت منهنّ بدون وعي، شرعت في رحلة استكشاف فيما بعد ظهيرة أحد الأيّام، وصعدت سلالم لم تعرف عن وجودها من قبل، حتّى وصلت إلى طابق العليّة. هناك وجدت بابين متجاورين، وعندما فتحت أحدهما، رأت سارا الحبيبة تقف على طاولة قديمة وتنظر خارج نافذة.

صاحت بذعر:

- سارا! ماما سارا!

كانت تشعر بالذعر لأن العليّة فارغة وقبيحة، وبدت بعيدة للغاية عن بقيّة العالم، وبدا لها أنّ ساقيها الصغيرتين قد صعدتا مئات الدرجات لتصل إليها.

استدارت سارا عندما سمعت صوتها، وحان دورها لتشعر بالذعر، ماذا سيحدث الآن؟ لو بدأت لوتي تبكي وسمعها أحد بالصدفة، سينتهي أمرهما هما الاثنتين. قفزت من فوق الطاولة وركضت إلى الطفلة.

ناشدَتها:

- لا تبكي ولا تصدري أيّة ضجة. سأوبّخ إن فعلتِ، وقد تلقّيت التوبيخ طوال هذا اليوم. إنّ الغرفة.. إنّ الغرفة ليست بذلك السوء يا لوتي.

شهقت لوتي:

- أحقّاً؟

وعضّت شفتها وهي تنظر حولها. كانت لا تزال طفلة مدلّلة، لكنها تحبّ أمها بالتبنّي بما يكفي لكي تحاول السيطرة على نفسها لأجلها. ثم، بطريقة ما، يمكن لأيّ مكان تعيش به سارا أن يصبح لطيفاً.

سألت بصوت شبه هامس:

- لم ليست سيئة يا سارا؟

احتضنتها سارا بقوة وحاولت أن تضحك. كان في جسد لوتي الطفوليّ السمين دفءٌ منح سارا شعوراً بالراحة. كان يومُها صعباً لذا كانت تحدّق خارج النوافذ وعيناها تحرقانها.

قالت:

- لأنه من هنا يمكنكِ أن تري كلّ الأشياء التي لا تستطيعين رؤيتها بالأسفل.

سألتها لوتي بفضول لطالما استطاعت سارا إيقاظه حتّى في الفتيات الأكبر سنّاً:

- أي نوع من الأشياء؟

- المداخن، إنّها قريبة للغاية من هنا، سُحب وأعمدة الدخان تتصاعد منها إلى السماء، وعصافير الدوريّ تقفز وتتحدّث مع بعضها البعض وكأنّها أشخاص حقيقيّون، ونوافذ العليّات الأخرى حيث يمكن لأيّ رأس أن يظهر في أية لحظة وتستطيعين أن تحاولي تخمين صاحبه. المكان عالٍ للغاية وكأنّه عالم آخر.

صاحت لوتي:

- أوه، دعيني أرى! ارفعيني!

رفعتها سارا، ووقفتا على الطاولة القديمة معاً، وانحنيتا على حافة النافذة المسطّحة في السقف، ونظرتا خارجها.

أيّ شخص لم يجرّب فعل هذا من قبل لا يعرف العالم المختلف الذي رأتاه. الألواح تغطّي السقف من يمينه إلى شماله، ومن أعلاه إلى أسفله، وصولاً إلى أنابيب تصريف مياه الأمطار. كانت عصافير الدوريّ تقفز وتغرّد في المكان دون أيّ خوف بما أنّها في منطقتها الخاصة. وقف عصفوران على قمّة أقرب مدخنة وتشاجرا بشراسة حتّى نقر أحدهما الآخر وطرده بعيداً عن المكان. وكانت نافذة العليّة المجاورة مغلقة لأن المنزل فارغ.

قالت سارا:

- أتمنّى لو كان أحد ما يعيش هناك. النافذة قريبة لدرجة أنّه لو كانت هناك فتاة صغيرة في العليّة، لأمكننا التحدث معاً من

خلال النافذتين والتسلّق من واحدة لأخرى لنتزاور، إذا لم نخِف السقوط.

بدت السماء من هنا، أكثر قرباً ممّا تبدو عليه من الشارع، فسَحَر هذا لوتي. من نافذة العليّة التي تحيط بها المداخن بدت الأشياء التي تحدث في العالم السفليّ وكأنها غير حقيقيّة. بالكاد يمكنك أن تصدق بوجود الآنسة منشن والآنسة أميليا وغرفة الصف، وبدا صوت دوران العجلات القادم من الساحة وكأنّه ينتمي لوجود آخر.

صاحت لوتي وهي تتشبّث بذراع أمها بالتبنّي:

- أوه، سارا! أحبّ هذه العليّة.. أحبّها! إنّها أجمل من غرف الطابق السفليّ!

همست سارا:

- انظري إلى ذلك الدوريّ، أتمنّى لو كنت أملك بعض الفُتات لألقيه له.

صرخت لوتي صرخة صغيرة:

- لديّ القليل! لديّ قطعة من الكعك في جيبي، اشتريتها ببنس واحد بالأمس، وأبقيت على بعضها.

عندما ألقتا ببعض فُتات الكعك قفز العصفور وطار إلى قمّة مدخنة مجاورة. كان غير معتاد على وجود رفقة في العليّات، وفاجأه الفُتات غير المتوقع، لكن عندما حافظت لوتي على هدوئها وأطلقت سارا زقزقات ناعمة بشفتيها -وكأنّها عصفورة- رأى العصفور أن

الشيء الذي أخافه كان مجرد حسن ضيافة. أمال رأسه على جانب واحد ومن موقعه على قمة المدخنة نظر إلى فتات الكعك بعينين لامعتين. بالكاد أبقت لوتي على هدوئها.

همست:

- هل سيأتي؟ هل سيأتي؟

همست سارا:

- عيناه تقولان إنّه سيفعل. إنّه يفكر إن كان يجرؤ. أجل، سيفعل! أجل، إنّه قادم!

طار العصفور وقفز باتجاه فتات الكعك، لكنّه توقّف على بعد عدّة بوصات منه، وأمال رأسه على جانب واحد مرّة أخرى، وكأنّه يفكر في احتمالات أن تكون سارا ولوتي قطّتين كبيرتين وتهجمان عليه. في النهاية خبّره قلبه أنّهما ألطف ممّا تبدوان عليه، فقفز أقرب وأقرب، واندفع بسرعة البرق والتقط أكبر قطعة من فتات الكعك بمنقاره، وحملها معه إلى الجانب الآخر من مدخنته.

قالت سارا:

- إنه يعلم، وسيأتي ليأكل باقي الفتات.

وفعلاً عاد، وأحضر معه صديقاً، وطار هذا الصديق وأحضر أحد أقربائه، وتناولت العصافير معاً وجبة كبيرة مشبعة، وهي تغرّد وتزقزق، وتتوقف بين حين وآخر لتميل برؤوسها على أحد الجانبين وتتفرّس في لوتي وسارا. كانت لوتي سعيدة لدرجة أنّها نسيت

صدمة انطباعها الأول الذي شعرت به عندما دخلت إلى العليّة. وعندما أنزلتها سارا من على الطاولة وعادتا إلى عالمهما الأرضيّ كما هو، استطاعت أن تلفت انتباهها إلى كثير من جماليات الغرفة، التي هي نفسها لم تعتقد في وجودها.

قالت:

- إنّها صغيرة للغاية وأعلى من كلّ شيء، لذا تشبه عش عصفور في شجرة. السقف المائل مضحك للغاية، كما ترين بالكاد يمكنكِ الوقوف في هذا الجزء من الغرفة. وعندما يحلّ الصباح يمكنني أن أستلقي في السرير وأنظر إلى السماء مباشرة من خلال النافذة المسطحة في السقف، وكأنّها رقعة مربعة من الضوء. وعندما يحين موعد شروق الشمس، أرى سحباً وردية صغيرة تطفو في السماء، وأشعر وكأنني أستطيع لمسها. وعندما تمطر، أسمع صوت وقع قطرات المطر، تنقر وتنقر، وكأنّها تخبرني بأشياء لطيفة. وإذا كانت هناك نجوم، يمكنكِ أن تستلقي وتحاولي عدّ النجوم في هذه الرقعة، وهذا يستغرق الكثير من الوقت. وانظري إلى هذا الموقد الصغير الصدئ في الزاوية، لو صُقِل وأُشعلت النار فيه، فسيصبح المكان لطيفاً جداً. كما ترين، إنّها غرفة صغيرة جميلة للغاية.

كانت تتجول في الغرفة الصغيرة ممسكة بيد لوتي، وهي تؤدي إيماءات تصف كلّ الأشياء الجميلة التي تتخيّل نفسها تراها،

وجعلت لوتي تراها أيضاً، فلطالما صدّقت بكل الأشياء التي كانت سارا تختلقها.

قالت:

- كما ترين، يمكن أن تكون هناك سجّادة هنديّة سميكة، زرقاء اللون، ناعمة الملمس، على الأرض، وفي ذلك الركن أريكة صغيرة وثيرة، وعليها وسائد لنجلس عليها، وفوقها مباشرة رفّ مليء بالكتب دانٍ ليسهل على المرء الوصول إليه، ويمكن أن تكون هناك سجادة من الفرو أمام النار وستائر ولوحات معلّقة على الجدار لتغطّي القار، يجب أن تكون اللوحات صغيرة لكنها ستكون جميلة. ويمكن أن يوجد مصباح له غطاء زهريّ اللون، وطاولة في منتصف الغرفة، عليها أدوات شرب الشاي، وغلّاية نحاسيّة صغيرة معبأة تصفّر على الموقد. ويمكن أن يكون السرير مختلفاً تماماً، يمكن أن يكون ناعماً وجميلاً ومغطىً بالحرير الفاخر. وربّما نستطيع ملاطفة عصافير الدوريّ حتّى نصبح أصدقاء مقربين، عندها ستأتي إلى النافذة وتنقرها بمناقيرها لنسمح لها بالدخول.

صاحت لوتي:

- أوه، سارا! سأحبّ أن أعيش هنا!

بعد أن أقنعتها سارا لتعود إلى الأسفل مجدداً، وساعدتها على إيجاد طريقها، عادت إلى عليّتها، ووقفت في منتصفها ونظرت حولها.

كان سحر الخيال الذي صنعته أمام لوتي قد تلاشى على الفور. كان السرير صلباً ومغطىً بلحاف قذر، وظهرت الأجزاء المتساقطة من القار الذي يغطي الحائط. الأرضية باردة وعارية، والموقد صدئ ومكسور، والمقعد الوحيد في الغرفة وهو مسند القدمين الممزّق، مائل على أحد الجوانب بسبب إحدى سيقانه المتضرّرة. جلست عليه لبضع دقائق وأسقطت رأسها بين يديها. حقيقة أنّ لوتي حين أتت وذهبت جعلت الأمور أسوأ قليلاً، مثلما يشعر السجناء بمزيد من البؤس بعد أن يذهب ذووهم ويتركوهم خلفهم.

قالت:

- إنّه مكان موحش، وأحياناً يصبح أكثر الأماكن وحشة في العالم.

كانت في تلك الحال عندما أثار انتباهها صوت خافت بجانبها. رفعت رأسها لترى مصدر الصوت، ولو كانت طفلة انفعالية لتركت مسند القدمين الممزق وفرّت بسرعة. كان هناك جرذ كبير يقف على قدميه الخلفيّتين ويتشمّم الهواء في اهتمام. سقط بعض الفُتات من لوتي على الأرض وجذبته رائحته ليخرج من جحره. بدا غريباً للغاية وكأنّه قزم رماديّ له شوارب أو عفريت خرافيّ[1]، فسحر هذا سارا بدلاً من أن يخيفها. نظر إليها بعينيه اللامعتين، وكأنّه يسألها سؤالاً. كان يشعر بالتردّد بوضوح، فخطرت على بال سارا إحدى أفكارها الغريبة.

---

(١) عفريت خرافي (gnome) قزم أسطوري يحرس الكنوز الموجودة في باطن الأرض.

قالت وهي مستغرقة في التأمل:

- أراهن على أنّه من الصعب أن يكون المرء جرذاً. لا أحد يحبّك. والناس يقفزون ويهربون ويصرخون (أوه، جرذ بشع!). لن أحبّ الأمر إن صرخ الناس في اللحظة التي يرونني فيها (أوه، سارا البشعة!)، ونصبوا لي الفخاخ متظاهرين بأنّها طعام الغداء. الوضع مختلف بالنسبة لعصافير الدوري، لكن لا أحد سأل هذا الجرذ إن كان يريد أن يكون جرذاً عندما خُلق. لم يسأله أحد (هل تفضل أن تكون عصفوراً دوريّاً؟).

ظلت جالسة بهدوء لدرجة أنّ الجرذ بدأ يكتسب بعض الشجاعة. كان خائفاً منها للغاية، لكن ربّما كان يملك قلباً كقلب عصفور الدوريّ وأخبره أنّها ليست ذاك الشيء الذي يقفز. كما أنّه كان جائعاً للغاية، ولديه زوجة وعائلة كبيرة في الجدار، وعانت جميعها من حظّ سيّء لعدّة أيّام، وقد ترك خلفه صغاره يبكون بمرارة، فشعر أنّه على استعداد لأن يخاطر لأجل قليل من فتات الكعك، لذا وضع قائمتيه الأماميّتين بحذر على الأرض.

قال سارا:

- هيا، تقدّم. هذا ليس بفخّ. يمكنك أن تأخذه أيّها المسكين! اعتاد سجناء الباستيل على مصادقة الفئران، لذا أعتقد أنّني سأصبح صديقتك.

لا يُعرف كيف تفهم الحيوانات، لكن من المؤكّد أنها تفعل. ربّما كان هناك لغة لا تستعمل فيها الكلمات للتواصل يفهمها جميع من في

هذا العالم. ربّما هناك روح مخبّأة داخل كلّ شيء وتستطيع التحدث دائماً، دون أن تصدر أيّ صوت، مع الأرواح الأخرى. لكن أياً كان السبب، عرف الجرذ منذ تلك اللحظة أنّه بأمان، رغم أنّه مجرد جرذ. عرف أن هذا البشريّ الصغير الجالس على مسند القدمين لن يقفز فجأة ويخيفه بالصرخات الحادة المجنونة أو يرمي بالأشياء الثقيلة عليه، التي إن لم تصبه وتسحقه، فستجعله يعرج عائداً إلى جحره. كان جرذاً لطيفاً حقاً، ولم ينوِ القيام بأيّ أذى. عندما كان واقفاً على قدميه الخلفيّتين يتشمّم الهواء في فضول، وعيناه اللامعتان مثبّتتان على سارا، تمنّى أن تفهم، وألّا تكرهه وتعتبره عدوّاً لها. وحين أعلمه الشيء الغامض الذي يتحدث بدون صوت أنّها لن تفعل، سار بخفّة باتّجاه فتات الكعك، وبدأ يأكل. كان يتلفّت إلى سارا بين حين وآخر، كما فعلت عصافير الدوري من قبل، وعلى وجهه تعبير متأسف لامس قلبها.

جلست وراقبته بدون أن تتحرّك. كانت إحدى القطع أكبر من البقيّة بكثير، وبالكاد يمكن أن تطلق عليها كلمة فتات. كان واضحاً أنّه يريد تلك القطعة بشدة، لكنّها كانت قريبة من مسند القدمين وكان لا يزال يشعر ببعض التردّد.

فكّرت سارا: «أعتقد أنّه يريد أخذها لعائلته في الجدار، إذا لم أتحرك أبداً، فربّما يأتي ويأخذها».

وبحذر سمحت سارا لنفسها بالتنفّس، فقد كانت مهتمّة جداً به. اقترب الفأر وأكل عدّة قطع أخرى، ثمّ توقف وتشمّم الهواء

بحذر، وألقى نظرة جانبيّة على الآدميّة الجالسة على مسند القدمين، واندفع لقطعة الكعك بجرأة مشابهه لجرأة عصفور الدوريّ المفاجئة، وفي اللحظة التي أخذها فيها هرب عائداً إلى الجدار، واختفى خلف شقّ في الحافّة السفليّة.

قالت سارا:

- كنت أعلم أنّه يريد أخذها لأطفاله، أعتقد أنّني أستطيع مصادقته.

بعد أسبوع أو نحوه، وفي إحدى الليالي النادرة التي تجدها إرمينغارد آمنة لتتسلّل إلى العليّة، دقّت على باب العليّة بأطراف أصابعها، ولكن سارا لم تجب لدقيقتين أو ثلاث. كان هناك صمت مطبق في الغرفة فتساءلت إرمينغارد إن كانت قد خلدت إلى النوم. لكن ولدهشتها، سمعتها تطلق ضحكة منخفضة قصيرة وتتحدّث بودّ مع شخص ما.

سمعتها إرمينغارد تقول:

- هاك! خذها واذهب إلى منزلك يا ملكي صادق!! عد إلى زوجتك!

في تلك اللحظة فتحت سارا الباب، وعندما فعلت ذلك وجدت إرمينغارد تقف على عتبة الباب والذعر بادٍ على عينيها.

شهقت:

- مع من.. مع من كنتِ تتحدّثين يا سارا؟

أدخلتها سارا بحذر، ولكن بدت وكأنّ هناك ما يبهجها ويسعدها.

أجابت:

- يجب أن تعِديني بألّا تخافي.. وأن لا تصرخي ولا حتّى قليلاً، وإلّا فلن أستطيع إخبارِكِ.

شعرت إرمينغارد برغبة في الصراخ في تلك اللحظة، ولكنّها استطاعت من السيطرة على نفسها. نظرت حولها في العليّة فلم ترَ أيّ أحد، لكنّ سارا كانت تتحدّث مع شخص ما بالتأكيد، فخطرت ببالها الأشباح.

سألتها بذعر:

- أهو شيء سيخيفني؟

قالت سارا:

- بعض الناس يخافون منه، وأنا كنت كذلك في البداية.. لكنني لم أعد أخاف الآن.

ارتعشت إرمينغارد:

- هل كان.. شبحاً؟

ضحكت سارا وقالت:

- لا، لقد كان جرذاً.

نطّت إرمينغارد وبقفزة واحدة وصلت إلى منتصف السرير

الصغير القذر. وطوت ساقيها أسفل قميص نومها والشال الأحمر. لم تصرخ لكنها شهقت في رعب.

صاحت دون أن تحدث صوتاً:

- أوه! أوه! جرذ! جرذ!

قالت سارا:

- خشيتُ أن تصابي بالخوف، لكن لا داعي لذلك. إنّني أروّضه. وقد أصبح يعرفني ويخرج عندما أناديه. هل أنتِ خائفة لدرجة أنّكِ لا تريدين رؤيته؟

والحقيقة هي أنّها مع مرور الأيّام، طوّرت صداقتها الغريبة مع الجرذ بمساعدة البقايا التي كانت تجلبها من المطبخ، ونسيت تدريجيّاً أنّ هذا المخلوق الخجول الذي أصبح أليفاً الآن، هو مجرّد جرذ.

في البداية كانت إرمينغارد خائفة للغاية، لذا لم تفعل شيئاً سوى التكوّر على نفسها فوق السرير وساقاها مطويّتان تحتها، لكن رباطة الجأش على وجه سارا وقصّة الظهور الأول لملكي صادق، أثارت فضولها، فاعتمدت على طرف السرير وراقبت سارا وهي تجثم على ركبتيها بجانب الفتحة في حافة الجدار السفليّة.

قالت:

- لن.. لن يركض خارجاً ويقفز على السرير، صحيح؟

أجابت سارا:

- لا، إنّه مهذب مثلنا، وكأنّه آدميّ، انظري بنفسك الآن!

بدأت سارا تصفر بشفتيها صفيراً منخفضاً.. منخفضاً ومتودّداً لدرجة أنّه لا يمكن سماعه إلّا في الصمت المطبق، وفعلت هذا عدّة مرّات باستغراق. شعرت إرمينغارد أنّها تبدو وكأنّها تلقي تعويذة سحرية. في النهاية، ظهر رأس رماديّ له شاربان طويلان وعينان لامعتان من الفتحة استجابة لصفيرها. كانت سارا تحمل بعض الفُتات في يدها فألقته. فخرج ملكي صادق بهدوء وبدأ يأكل، وأخذ بقية القطعة الكبيرة وحملها بطريقة عمليّة جداً إلى مأواه.

قالت سارا:

- كما ترين، تلك القطعة لأجل زوجته وصغاره. إنّه لطيف للغاية. لا يأكل إلّا القطع الصغيرة. يمكنني دائماً أن أسمع عائلته وهي تصرّ من السعاة عندما يعود. وهناك ثلاثة أنواع من الصرير، النوع الأول خاصّ بأطفاله، والثاني خاصّ بالسيّدة ملكي صادق، والثالث يخصّ ملكي صادق نفسه.

بدأت إرمينغارد تضحك، وقالت:

- أوه، سارا! أنتِ غريبة للغاية لكنّكِ لطيفة.

اعترفت سارا في سرور:

- أعلم أنّني غريبة، وأحاول أن أكون لطيفة.

حكّت جبهتها بيدها الصغيرة السمراء، فعلت وجهها نظرة حيرة رقيقة:

- لطالما سخر بابا مني، لكنّني أحببت ذلك. كان يظن أنّني

غريبة، لكنّه كان يحبّ اختلاقي للأشياء. أنا.. أنا لا أستطيع التوقّف عن اختلاق الأشياء. لا أعتقد أنّني أستطيع العيش إن لم أفعل.

توقّفت ونظرت حولها إلى العليّة، وأضافت بصوت منخفض:

- لن أستطيع العيش هنا بالتأكيد.

كانت إرمينغارد فضولية كالعادة، قالت:

- عندما تتحدّثين عن الأشياء تصبح وكأنّها حقيقيّة. والآن تتحدّثين عن ملكي صادق وكأنّه شخص حقيقيّ.

قالت سارا:

- إنّه شخص حقيقيّ. إنّه يشعر بالجوع والخوف، كما نشعر نحن بذلك. كما أنّه متزوّج ولديه صغار. كيف لنا أن نعرف أنّه لا يفكر كما نفعل تماماً؟ عيناه تبدوان كعيون البشر، لهذا أعطيته اسماً.

وجلست على الأرض بطريقتها المفضلة، وهي تحيط ساقيها بذراعيها.

قالت:

- بالإضافة إلى أنّه فأر أُرسل من الباستيل ليصبح صديقاً لي. يمكنني دائماً أن أحصل على قليل من الخبز الذي تتخلّص منه الطبّاخة، وهذا أكثر من كافٍ لمساعدته.

سألتها إرمينغارد بلهفة:

- هل هذا هو الباستيل حقاً؟ هل تتظاهرين بأنكِ في الباستيل طوال الوقت؟

أجابت سارا:

- تقريباً. أحياناً أحاول التظاهر بأنّ هذا مكان آخر، لكن الباستيل أسهل في معظم الأوقات. وخصوصاً عندما تصبح العليّة باردة.

في تلك اللحظة كادت إرمينغارد أن تقفز من على السرير، بعد أن فاجأها صوت سمعته يشبه طرقتين منفصلتين على الجدار.

صاحت:

- ماذا كان ذلك؟

وقفت سارا من على الأرض وأجابت بدراميّة:

- إنّها السجينة في الزنزانة المجاورة.

صاحت إرمينغارد في بهجة:

- بيكي!

قالت سارا:

- أجل، الطرقتان تعني: «أيّتها السجينة، هل أنتِ هناك»؟

وطرقت على الجدار ثلاث مرّات وكأنّها تجيب على السؤال.

- والثلاث طرقات تعني أجل، أنا هنا، وكلّ شيء على ما يرام.

ثم أتت أربع طرقات من جانب بيكي من الجدار.

شرحت لها سارا:

- وهذه تعني، إذن يا رفيقتي في المعاناة، فلننم في سلام. ليلة سعيدة.

شعّ وجه إرمينغارد بالبهجة، وهمست باستمتاع:

- أوه سارا! هذا يشبه القصص!

قالت سارا:

- إنها قصّة. كلّ شيء هو قصّة. أنتِ قصّة وأنا قصّة، والآنسة منشن قصّة.

وجلست من جديد وتحدثت حتّى نسيت إرمينغارد أنّها هي نفسها سجينة هاربة بطريقة ما، واضطرت سارا أن تذكّرها بأنّها لا تستطيع البقاء في الباستيل طوال الليل، وأنّ عليها أن تتسلّل بهدوء إلى الطابق السفليّ وتعود إلى سريرها الفارغ.

(١٠)

السيّد الهنديّ

كانت رحلات إرمينغارد ولوتي إلى العليّة محفوفة بالمخاطر، لم يكن باستطاعتهما التأكّد من الوقت الذي تكون سارا موجودة فيه، ونادراً ما تستطيعان معرفة أوقات جولات التفتيش التي تقوم بها الآنسة أميليا على غرف النوم بعد موعد الخلود للفراش، لذا كانت زياراتهما نادرة، وعاشت سارا حياة غريبة موحشة. كان شعورها بالوحدة يزداد عندما تنزل إلى الأسفل أكثر من الأوقات التي تمضيها في عليّتها. لم يكن لديها أحد لتتحدّث معه، وعندما ترسل لتقوم بمهمة ما، وتسير عبر الشوارع، كانت مجرّد فتاة صغيرة بائسة تحمل سلّة أو طرداً، وتحاول تثبيت قبّعتها عندما تهبّ الرياح، ويتشرّب حذاؤها الماء عندما تمطر، تشعر بأنّ جموع العابرين المتعجّلين تزيد من وحدتها. سابقاً عندما كانت الأميرة سارا تركب عربتها، أو تسير وماربيت تصحبها، كان وجهها الصغير المشرق الشغوف ومعاطفها الملونة وقبّعاتها تجعل الناس يهتمّون بها. ففتاة صغيرة سعيدة اعتُني بها جيداً تثير اهتمام الناس بشكل طبيعيّ، أما

الأطفال الذين يرتدون الثياب المهترئة فليسوا نادرين ولا جميلين بما فيه الكفاية ليتوقّف الناس ويحدّقوا بهم ثمّ يبتسمون، لهذا لا أحد كان ينظر إلى سارا هذه الأيّام، بل لم يبدُ أنّ أحداً منهم كان يراها أصلاً وهي تسير بعجلة على الأرصفة المزدحمة. كانت قد بدأت تنمو بسرعة، وبما أنّها لم تكن ترتدي إلّا بقايا بسيطة من خزانتها، عرفت أنّها تبدو غريبة للغاية. تخلّصوا من كلّ ثيابها الثمينة، وكان يتوقع منها أن ترتدي البقية القليلة التي تُركت لها طالما أنّها تستطيع وضعها على جسدها. أحياناً، عندما تمرّ من أمام واجهة متجر معلّقة بها مرآة وتلمح صورتها عليها، تكاد تنفجر بالضحك، وأحياناً أخرى كان وجهها يحمرّ وتعضّ على شفتها وتستدير بعيداً عنها.

في المساء، عندما تمرّ من أمام المنازل وترى نوافذها مضاءة، تختلس النظر إلى الغرف الدافئة وتسلّي نفسها بتخيّل أشياء عن الأشخاص الجالسين حول الموائد أو المدافئ. فلطالما أحبّت أن تلتقط لمحات للغرف قبل أن تُغلق مصاريع النوافذ. كانت هناك عدّة عوائل تعيش في الساحة التي يقع فيها معهد الآنسة منشن، وأصبحت سارا تعرفهم بطريقتها الخاصة. كانت تطلق على أكثر عائلة تحبّها اسم العائلة الكبيرة، ليس لأن أفرادها كبار في السن -فمعظمهم كانوا صغاراً- بل لأنّ عددهم كان كبيراً. كان هناك ثمانية صغار في العائلة الكبيرة، وأمّ بدينة لطيفة وأب بدين لطيف أيضاً، وجدة لطيفة، وعدد من الخدم. كان الصغار الثمانية يتنزّهون في الخارج أو تصحب المربيّات الأطفال منهم في عربات الأطفال، أو يركبون بالعربة مع أمّهم أو يسرعون إلى الباب في المساء لاستقبال والدهم

وتقبيله والتواثب من حوله وجرّ معطفه من على كتفيه، وتفقّد جيوبه بحثاً عن أيّة صُرر أو لفائف، أو يتجمّعون حول نوافذ غرفة الحضانة لينظروا إلى الخارج وهم يضحكون ويتدافعون. كانوا طوال الوقت يفعلون أشياء ممتعة تفعلها عادة العوائل الكبيرة. أحبّتهم سارا للغاية، وكانت تطلق عليهم أسماء من الكتب.. أسماء رومانسية للغاية. فكانت تسمّيهم عائلة مونتميرنسي عندما لا تدعوهم بالعائلة الكبيرة. الطفلة الصغيرة السمينة الجميلة التي ترتدي قلنسوة من الدانتيلا اسمها اثيلبيرتا بوشامب مونتميرنسي، والطفلة الثانية ڤيولت تشلمندلي مونتميرنسي، والصبيّ الصغير الذي يستطيع المشي بالكاد وله ساقان ممتلئتان اسم سيدني سيسيل ڤيڤيان مونتميرنسي، وبعده تأتي ليليان إيڤانجلين مود ماريون، وروزاليند غلاديس، وجاي كلارنس، وڤيرونيكا يوستيشيا، وكلود هارولد هيكتور.

ذات مساء حدث أمر مضحك للغاية. ولكن، من ناحية أخرى لم يكن مضحكاً على الإطلاق.

عدّة أطفال من عائلة مونتميرنسي كانوا ذاهبين إلى حفل للصغار، وبينما كانت سارا تمرّ من أمام الباب كانوا يقطعون الرصيف ليركبوا عربة تنتظرهم. كانت ڤيرونيكا يوستيشيا وروزاليند غلاديس ترتديان فستانين أبيضين من الدانتيلا ووشاحين جميلين، ركبتا العربة في تلك اللحظة، ولحق بهما جاي كلارنس الذي يبلغ الخامسة من عمره، كان صبياً جميلاً له عينان زرقاوان وخدّان أحمران، ورأس صغير مدوّر مغطّى بالشعر المجعّد. نسيت سارا سلّتها وفستانها

الرثّ تماماً. نسيت كلّ شيء ما عدا رغبتها في النظر إليه للحظة، لذا توقّفت وحدّقت فيه.

كان عيد الميلاد قد حلّ، وسمعت العائلة الكبيرة كثيراً من القصص عن الأطفال الفقراء الذين لا يملكون أمّهات ولا آباء يملؤون لهم جوارب عيد الميلاد بالهدايا، أو ليأخذوهم لمسرحيات الأطفال الإيمائيّة. أطفال يشعرون بالبرد والجوع ويرتدون الثياب الخفيفة. في القصص، يقوم الأشخاص الطيّبون دوماً، وأحياناً يكون هؤلاء الأشخاص فتيات وصبياناً صغاراً ذوي قلوب رحيمة؛ بإعطاء الأطفال الفقراء المال أو الهدايا الغالية أو يدعونهم لمنازلهم لتناول عشاء لذيذاً.

كان جاي كلارنس يقرأ قصة من هذا النوع في عصر ذلك اليوم بالذات، وقد أثّرت فيه حتّى ذرف الدموع، وتحرّق شوقاً ليجد طفلاً فقيراً يعطيه نصف شلن قام بتوفيره، وبهذا سيؤمّن له معيشته إلى الأبد. كان متأكّداً من أن النصف شلن يعني الثراء إلى الأبد. وبينما كان يقطع السجاد الأحمر الممدود من باب المنزل إلى العربة، كان يحمل نصف الشلن هذا في جيب سرواله القصير. في اللحظة التي صعدت فيها روزاليند غلاديس إلى العربة ووثبت على المقعد لتشعر بارتداد الوسائد تحتها، رأى سارا تقف على الرصيف المبلّل مرتدية فستانها الرثّ وقبّعتها، وسلّتها القديمة معلّقة على ذراعها، تنظر إليه في جوع.

اعتقد أنّ عينيها تبدوان جائعتين لأنّها على الأغلب لم تأكل

منذ وقتٍ طويل. لم يكن يعرف أنّها تبدو هكذا لأنها تتضوّر جوعاً للدفء والحياة السعيدة التي يعيشها في منزله، والتي تظهر على وجهه المشرق، وأنّها تتمنّى سراً أن تحمله بين ذراعيها وتقبّله. كلّ ما عرفه هو أنّها تملك عينين واسعتين ووجهاً نحيلاً وساقين نحيلتين، وسلّة عادية وثياباً رثّة. لذا وضع يده في جيبه ووجد نصف الشلن واقترب منها في تهذيب.

قال:

- تعالي، أيّتها الفتاة الفقيرة. خذي نصف الشلن هذا، سأعطيه لكِ.

بهتت سارا، وسرعان ما أدركت أنها كانت تبدو كالأطفال الفقراء الذين اعتادت على رؤيتهم في أيّامها السعيدة، ينتظرون على الرصيف ليلقوا عليها نظرة عندما تخرج من عربتها. وكانت تعطيهم البنسات في كثير من الأحيان. احمر وجهها ثمّ شحب، وشعرت للحظة أنّها لن تستطيع أخذ نصف الشلن العزيز الصغير.

قالت:

- أوه، لا! أوه، لا، شكراً لك. لا أستطيع أخذه أبداً.

كان صوتها لا يشبه أصوات أطفال الشارع العاديّين، وسلوكها كان كسلوك الأطفال الذين تربّوا على نحوٍ حسن، فمالت ڤيرونيكا يوستيشيا (التي كان اسمها الحقيقيّ جانيت) وروزاليند غلاديس (واسمها هو نورا) لتسمعا ما يُقال.

لكن جاي كلارنس لم يكن ليقبل رفضها صدقته. دفع نصف الشلن في يدها، وأصرّ بشجاعة:

- بلى، يجب أن تأخذيه أيّتها الفتاة الصغيرة المسكينة! يمكنكِ أن تشتري شيئاً لتأكليه به. إنّه نصف شلن كامل!

كان هناك شيء لطيف وصادق في وجهه، وبدا عليه أنّه سيُحبط بشدة لو لم تأخذه، فعرفت سارا أنّ عليها قبوله. كان هذا موقفاً قاسياً على شخص له هذا الكبرياء العالي، لذا تنازلت عن كبريائها، ولا بدّ من الاعتراف بأن خديّها اشتعلا خجلاً.

قالت:

- شكراً لك! يالك من مخلوقٍ صغير في غاية اللطف!

صعد الصبيّ إلى العربة مسروراً بنفسه، وذهبت هي إلى طريقها، حاولت أن تبتسم، ورغم أنّها التقطت أنفاسها بسرعة، إلّا أنّ عينيها كانتا تلتمعان حتّى في الضباب. كانت تعرف أنّها تبدو غريبة وفقيرة، ولكن حتّى الآن لم تكن تعرف أنّها تبدو كمتسوّلة.

وبينما انطلقت عربة العائلة الكبيرة مبتعدة، تحدّث الأطفال داخلها بحماس واهتمام.

هتفت جانيت في ذعر:

- أوه، دونالد! (كان هذا اسم جاي كلارنس الحقيقيّ). لِمَ أعطيت الفتاة الصغيرة نصف الشلن الخاص بك؟ أنا متأكّدة أنها ليست متسوّلة!

صاحت نورا:

- لم يكن حديثها يشبه حديث المتسوّلين، كما أنّ وجهها لم يبدُ كوجوه المتسوّلين!

قالت جانيت:

- كما أنّها لم تكن تستجدي، خشيت أن تغضب منك. فالناس كما تعلم، يغضبون عندما تعتقد أنّهم متسوّلون وهم ليسوا كذلك.

قال دونالد، وقد شعر بقليل من الخوف وإن ظل ثابتاً على موقفه:

- لم تكن غاضبة. كما أنّها ضحكت قليلاً، وقالت إنّني مخلوق لطيف للغاية. وأنا كذلك!

وأكمل بشجاعة:

- كان ذلك نصف شلن كامل يعود لي.

تبادلت جانيت ونورا النظرات.

قالت جانيت:

- لم تكن فتاة متسوّلة لتقول مثل هذا الكلام. كانت لتقول، شكراً لك، أيها السيّد الصغير.. شكراً لك يا سيّدي، وكانت ستنحني لك على الأغلب.

لم تكن سارا تعرف شيئاً عمّا حدث، لكن منذ تلك اللحظة

أصبحت العائلة الكبيرة مهتمّة بأمرها بنفس قدر اهتمامها بهم. فكانت الوجوه تطلّ في نوافذ غرفة الحضانة عندما تمرّ من أمام المنزل، وقد عُقدت الكثير من النقاشات عنها حول المدفأة.

قالت جانيت:

- إنّها خادمة من نوع ما في المعهد، ولا أعتقد أنّها تملك عائلة، تبدو كيتيمة. لكنّها ليست متسوّلة حتّى وإن بدت فقيرة.

منذ ذلك الوقت أصبحوا يطلقون عليها (الفتاة الصغيرة التي ليست بمتسوّلة) وهو اسم طويل بالطبع، ويبدو مضحكاً أحياناً عندما ينطقه الصغار بعجالة.

استطاعت سارا أن تُحدِث ثقباً في نصف الشلن وعلّقته حول رقبتها بشريط نحيل. وازداد حبّها للعائلة الكبيرة، ولطالما زاد تعلّقها بكلّ شيء تحبّه. أحبّت بيكي أكثر وأكثر، وأصبحت تتطلّع ليومي الأسبوع اللذين تدخل فيهما إلى غرفة الصفّ لتعطي للفتيات الصغيرات دروسهنّ في الفرنسية. كانت الفتيات الصغيرات يحببنها، وتسابقن على شرف الوقوف بجانبها ووضع أياديهنّ الصغيرة في يدها. وكان تَقرُّبهنّ منها يغذّي قلبها الجائع. وأقامت صداقة حميمة مع العصافير لدرجة أنّها عندما كانت تقف على الطاولة وتخرج رأسها وكتفيها من نافذة العليّة وتزقزق بشفتيها، تسمع على الفور صوت رفرفات أجنحةٍ وزقزقات إجابة على زقزقتها، ويظهر سرب صغير من طيور المدينة القذرة ويهبط على ألواح السقف ليتحدث معها ويأكل الفُتات الذي تلقي به. أصبحت مقرّبة للغاية من السيّد

ملكي صادق لدرجة أنّه أصبح يحضر السيّدة ملكي صادق معه في بعض الأحيان وواحداً أو اثنين من صغاره بين حينٍ وآخر. كانت تتحدّث معه طوال الوقت، وبطريقة ما بدا عليه أنّه يفهم.

خلال هذه الفترة نمت في نفسها مشاعر غريبة متعلقة بإميلي، التي كانت تجلس في مكانها بسكون وتراقب كلّ شيء. ظهرت هذه المشاعر في واحدة من أشدّ لحظات العزلة التي عاشتها. كانت تحبّ أن تتظاهر أو تصدّق بأن إميلي تفهمها وتتعاطف معها، ولم تحبّ أن تعترف لنفسها أن رفيقتها الوحيدة لا تستطيع أن تشعر أو تسمع أي شيء. اعتادت في بعض الأحيان على أن تضعها فوق مقعد وتجلس أمامها على مسند القدمين الأحمر القديم، وتحدّق فيها ثمّ تُشرع في تخيّلات حولها حتّى تتسع عيناها بصورة تشبه الذعر، خصوصاً في الليل عندما يكون كلّ شيء ساكناً، والصوت الوحيد الذي يُسمع في العليّة هو هرولة وصرير عائلة ملكي صادق بين حين وآخر في الجدار. إحدى «خيالاتها» كانت أن إميلي ساحرة طيبة تستطيع حمايتها. وأحياناً، بعد أن تُطيل التحديق فيها حتّى تصل لأعلى مستويات الخيال، تبدأ بسؤالها أسئلة، وتجد نفسها تشعر وكأن إميلي على وشك أن تجيب، لكنها لا تفعل.

قالت سارا محاولة مواساة نفسها:

- بالنسبة لمسألة الردّ، أنا أيضاً لا أردّ إلّا نادراً. ولا أفعل عندما أستطيع السيطرة على نفسي. عندما يقوم الناس بإهانتك فليس هناك أفضل من عدم قول كلمة... انظري

إليهم فحسب وفكّري. الآنسة منشن تصبح شاحبة من الغضب عندما أفعل ذلك، وتشعر الآنسة أميليا بالرعب، وكذلك بقية الفتيات. عندما تسيطر على أعصابك ولا تندفع يعلم الآخرون أنّك أقوى منهم، لأنّك قويّ بما فيه الكفاية لتتحكّم في غضبك، وهم ليسوا كذلك. يقولون أشياء غبيّة يندمون عليها لاحقاً. لا شيء أقوى من الغضب، إلّا الشيء الذي يتحكّم فيه. هذا هو الشيء الأقوى. من الجيد أن لا تردّي على أعدائك، فأنا نادراً ما أفعل. ربّما إميلي تشبهني أكثر مما أشبه نفسي. ربّما تفضل عدم الرد حتّى على أصدقائها، وتحتفظ بكلّ شيء في قلبها.

ورغم أنّها كانت تحاول استرضاء نفسها بهذه الحجج، إلّا أنّها لم تجد قبولها أمراً سهلاً. فبعد أن تُمضي يوماً طويلاً شاقاً، كانت قد أُرسلت فيه هنا وهناك، وأحياناً في مشاوير طويلة في الرياح والبرد والمطر، فتعود مبلّلة وجائعة، وترسل مرّة أخرى للخارج لأنّ أحداً لم يختر أن يتذكّر أنّها مجرد طفلة، وأن ساقيها النحيلتين قد تكونان متعبتين وجسدها الصغير قد يكون مرتجفاً من البرد، وعندما لا تسمع إلّا الكلمات القاسية الصارمة وتُقابَل بالنظرات المتجاهلة بدلاً من الشُكر، وعندما تصبح الطبّاخة وقحة وبذيئة، وعندما يصبح مزاج الآنسة منشن في أسوأ حالاته، وعندما ترى الفتيات يسخرن من مظهرها الرث؛ بعد كل ذلك، لا تستطيع تهدئة قلبها المتألّم الحزين وكبريائها المجروح بخيالاتها، فيما تجد إميلي جالسة هناك على المقعد القديم ومحدقّة في الفراغ أمامها فقط.

في إحدى تلك الليالي، عندما صعدت إلى العليّة وهي تشعر بالبرد والجوع، وعاصفة من الغضب تجتاح صدرها الصغير، بدت نظرة إميلي فارغة للغاية، وساقاها وذراعاها المصنوعتان من نشارة الخشب خاليتين من كلّ تعبير، عندها كانت سارا تفقد السيطرة على نفسها. ثم، لم يكن لديها أحد سوى إميلي.. لا أحد في العالم كلّه. وها هي تجلس هناك.

قالت في البداية:

- يجب أن أموت الآن.

ولم تفعل إميلي شيئاً سوى التحديق ببساطة.

أكملت الطفلة المسكينة وهي ترتجف:

- لم أعد أستطيع التحمل، أعلم أنّ عليّ أن أموت. أنا مبلّلة وأشعر بالبرد وأتضوّر جوعاً حتّى الموت. لقد قطعتُ آلاف الأميال اليوم، ولم يفعلوا شيئاً سوى توبيخي منذ الصباح وحتى المساء. ولأنني لم أجد الغرض الأخير الذي أرسلتني الطبّاخة لأحضره، فلن يسمحوا لي بتناول العشاء. وسخر مني بعض الرجال لأن حذائي القديم جعلني أنزلق في الوحل. أنا مغطّاة بالوحل الآن ولقد سخروا مني، هل تسمعين؟

نظرت إلى العينين الزجاجيّتين والوجه المتبجّح، وفجأة استولى عليها الغضب الشديد. رفعت يدها الصغيرة وضربت إميلي فأسقطتها من على المقعد، وانفجرت في نوبة من البكاء.. سارا التي لم تبكِ من قبل.

صاحت:

- لستِ سوى دمية! لستِ إلّا دمية.. دمية.. دمية! لا تهتمّين بأي شيء. أنتِ محشوّة بنشارة الخشب، ولم تملكي قلباً يوماً، وما من شيء يجعلك تشعرين بالأحاسيس. أنتِ دمية!!

استلقت إميلي على الأرض، وساقاها مطويّتان فوق رأسها في ذُلّ، وقد انبعج طرف أنفها من اصطدامها بالأرض، لكنّها كانت هادئة، وحتى مهيبة. أخفت سارا وجهها خلف ذراعيها. وبدأت الفئران في الجدار تصر وتتشاجر وتتدافع ويعضّ أحدها الآخر. كان ملكي صادق يعاقب بعض أفراد عائلته.

هدأت شهقات سارا تدريجياً من تلقاء نفسها. لم تكن من عاداتها أن تنهار هكذا، لذا كانت متفاجئة من نفسها. بعد فترة رفعت رأسها ونظرت إلى إميلي التي بدت وكأنّها تحدق إليها من إحدى الزوايا، ولكن هذه المرة، وبطريقة ما، ظهرت على عينيها الزجاجيّتين نظرة مشفقة. انحنت سارا والتقطتها، واجتاحها شعور بالندم، وابتسمت لنفسها ابتسامة صغيرة للغاية.

قالت وهي تتنهّد مستسلمة:

- ليس بيدك أنّك دمية، مثلما لا تستطيع لافينيا وجيسي أن تُظهرا أيّة عاطفة. الناس يختلفون عن بعضهم. ربّما أنتِ تقومين بأفضل ما بوسعك كدمية محشوّة بنشارة الخشب.

قبّلتها وأعادت ترتيب ثيابها، ووضعتها من جديد على المقعد.

كانت تتمنّى أن يسكن أحد ما في المنزل المجاور الفارغ، بسبب قرب نافذة عليّته من نافذة عليّتها. سيكون لطيفاً أن تراها مفتوحة يوماً ما ويظهر من الفتحة المربّعة رأس وكتفان.

فكّرت: «لو بدا الرأس لطيفاً سأستهلّ بقول (صباح الخير) ويمكن أن تحدث كلّ أنواع الأشياء. لكن طبعاً ليس وكأنّ أحداً سينام هناك إلّا الخدم».

في صباح أحد الأيّام، عندما انعطفت سارا في زاوية الساحة، بعد أن زارت محلّ البقّال والجزّار والخبّاز، رأت أمراً أسعدها، فخلال غيابها الطويل، توقفت عربة كبيرة محمّلة بالأثاث أمام باب المنزل المجاور. كانت الأبواب مفتوحة، ورجال بقمصان يدخلون ويخرجون وهم يحملون صناديق ثقيلة وقطع أثاث.

قالت:

- لقد سُكن! لقد سُكن حقاً! أوه لكم أتمنّى أن يظهر رأس لطيف من نافذة العليّة!

كانت ستحبّ أن تنظمّ لجماعة المتسكّعين الذين توقّفوا على الرصيف ليشاهدوا عملية نقل الأغراض، لأنّها اعتقدت أنّها لو استطاعت أن ترى بعض الأثاث فبإمكانها أن تحزر بعض الأشياء حول الأشخاص الذين يملكونها.

فكّرت: «مقاعد وطاولات الآنسة منشن تشبهها. أتذكّر أنّني فكّرت في هذا من أول لحظة رأيتها فيها، رغم أنّني كنت صغيرة

للغاية، وأخبرتُ بابا عن هذا لاحقاً، فضحك وقال إنّني محقّة. وأنا على يقينٍ من أن العائلة الكبيرة تملك مقاعد وأرائك سميكة مريحة، وأنني أرى أن ورق الجدران المزين بالورود الحمر الذي يغطي جدرانهم يشبههم تماماً. إنّه دافئ ومبهج ولطيف وسعيد».

كانوا قد أرسلوها في وقت لاحق من اليوم لتشتري البقدونس من عند بائع الخضروات، وحين اقتربت من المنطقة دقّ قلبها بسرعة عندما رأت شيئاً مألوفاً. فقد أخرج الرجال عدّة قطع من الأثاث من العربة الكبيرة ووضعوها على الرصيف. كانت هناك طاولة جميلة مصنوعة بإتقانٍ من خشب الساج الصقيل، ومقاعد، وفاصل مزيّن بنقوش شرقيّة فاخرة. منحها منظرها إحساساً غريباً بالحنين. فقد كانت قد رأت قطعاً مشابهة في الهند. إحدى الأشياء التي أخذتها الآنسة منشن منها كانت طاولة منقوشة مصنوعة من خشب الساج أرسلها والدها لها.

قالت:

- هذه أشياء جميلة، وتبدو وكأنّ مالكها شخصٌ لطيف. وكلّها تبدو فخمة، لذا أفترض أنّها عائلة ثريّة.

توالت عربات الأثاث الكبيرة وكانت تفرغ محتوياتها وتفسح مكاناً لغيرها طوال اليوم. وحصلت سارا على عدّة فرص لترى الأغراض التي تُحمل إلى الداخل. وأصبح من الواضح أنّ توقّعها صحيح، وأن القادمين الجدد عظيمو الشأن. كان كلّ الأثاث باهظ الثمن وجميلاً، وقسم كبير منه شرقيّ المظهر. حُملت من العربات

سجاجيد وستائر وقطع زينة جميلة، والكثير من اللوحات، وكتب كافية لتملأ مكتبة. ومن بين الأشياء كان هناك مجسّم رائع لبوذا مثبّت في ضريح مذهل.

فكرت سارا: «لا بدّ أنّ فرداً من هذه العائلة كان في الهند واعتاد على الأشياء الهنديّة وأحبّها. أنا سعيدة. سأشعر وكأنّهم أصدقائي، حتّى لو لم يظهر أيّ رأس من نافذة العليّة».

عندما كانت تُدخل حليب المساء لأجل الطبّاخة -إذ لم يبقَ عمل غريب لم تؤمر بفعله- رأت شيئاً يحدث جعل الموقف أكثر إثارة للاهتمام. كان ربّ العائلة الكبيرة الوسيم باسم المحيّا يسير عبر الساحة بطريقة عمليّة، وصعد درجات سلّم المنزل المجاور وكأنّه معتاد على المكان ويتوقّع أن يصعد وينزل منه مرّات عديدة في المستقبل. بقي بالداخل لوقت طويل، وخرج عدّة مرّات ليلقي ببعض التعليمات لعمّال النقل، وكأنّه يملك الحق لفعل ذلك. كان واضحاً أنّ له علاقة قريبة مع القادمين الجدد ويتصرّف نيابة عنهم.

خمّنت سارا: «لو كان لدى القادمين الجدد أطفال، فسيأتي أطفال العائلة الكبيرة ليلعبوا معهم بالتأكيد، وربّما سيصعدون إلى العليّة ليتسلوا».

في المساء، أتت بيكي لزيارة رفيقتها في السجن بعد أن انتهت من عملها وأحضرت معها الأخبار.

- سيعيش سيّد هنديّ في المنزل المجاور يا آنستي. لا أعلم إن كان سيداً أسود أو لا، لكنّه سيّد هنديّ. كما أنّه ثري للغاية،

ومريض، والسيّد من العائلة الكبيرة هو محاميه. لقد واجه الكثير من المصاعب لذا اعتلّت صحّته ووهن عقله. إنّه يعبد الأصنام يا آنسة. إنّه وثنيّ يسجد للخشب والأحجار. لقد رأيت الصنم يُحمل لداخل المنزل ليعبده. على أحد ما أن يرسل له كتيّباً دينيّاً. يمكن الحصول عليه ببنس واحد.

ضحكت سارا قليلاً. وقالت:

- لا أعتقد أنّه يعبد ذلك الصنم. بعض الأشخاص يحتفظون بها لأنّها مثيرة للاهتمام. بابا كان يمتلك واحداً جميلاً، ولم يكن يعبده.

لكنّ بيكي كانت تفضّل تصديق أنّ الجار الجديد وثنيّ، لأنّه الأمر يبدو هكذا أكثر رومانسيّة من أن يكون رجلاً عادياً يذهب إلى الكنيسة حاملاً كتاب الصلوات. جلستا تلك الليلة وتحدّثتا مطوّلاً عما سيكون عليه هذا الرجل، وكيف ستكون زوجته لو كان عنده واحدة، وكيف سيكون أطفاله لو كان عنده أطفال. ولاحظت سارا أنّ بيكي كانت تتمنّى سراً أن يكونوا جميعاً سود البشرة، ويرتدون العمائم، وفوق كلّ هذا -مثل آبائهم- وثنيّين.

قالت:

- لم أعش بجانب جار وثنيّ من قبل يا آنسة. سأحبّ أن أرى ما يفعلونه.

مرت عدّة أسابيع قبل أن يُشبع فضولها، ويُكشف أن القادم

الجديد لا يملك زوجة ولا أطفال. وأنّه رجل منعزل ليس له عائلة، والظاهر أنّه معتلّ الصحّة مكدّر البال.

توقّفت عربة أمام باب المنزل في أحد الأيّام، وترجّل الخادم من مقدّمتها وفتح الباب، فخرج ربّ العائلة الكبيرة أولاً، وترجّلت بعده ممرّضة ترتدي ثوبها الرسمي. عندها أتى من المنزل خادمان ليساعدا سيّدهما على الترجل من العربة، فخرج بمساعدتهما رجل له وجه شاحب تعيس، وجسد نحيل أقرب للهياكل العظميّة ملفوف في الفراء. حُمل عبر درجات السلّم، ورافقه ربّ العائلة الكبيرة، وهو يبدو قلقاً للغاية. بعدها بفترة قصيرة وصلت عربة طبيب، ودخل الطبيب إلى المنزل ليعتني به كما هو واضح.

همست لوتي في درس اللغة الفرنسيّة في اليوم التالي:

- هناك رجل أصفر اللون في المنزل المجاور يا سارا، هل تعتقدين أنّه صينيّ؟ مكتوب بكتاب الجغرافيا أنّ الصينيّين يملكون بشرة صفراء.

همست سارا:

- لا، ليس رجلاً صينياً، إنّه مريض للغاية فقط. أكملي حل التمرين يا لوتي.

Non, monsieur. Je n'ai pas le canif de mon oncle.

وكانت هذه بداية قصّة السيّد الهنديّ.

(١١)

رامداس

في بعض الأحيان يكون غروب الشمس جميلاً حتّى في الساحة التي يقع فيها منزل الآنسة منشن، لكن لا يستطيع المرء أن يرى إلّا أجزاءً منه بين المداخن وعلى أسطح المنازل. وتستحيل رؤيته من نوافذ الطبخ، فلا يمكنك أن تحزر أنّ هناك غروب شمس إلّا من اللون الدافئ الذي يصبغ قطع الطوب ولون أشعّة الشمس القرمزيّ أو الأصفر الذي يستمرّ لبعض الوقت، أو قد ترى وهجاً قويّاً يخترق لوح زجاج في مكان ما. ولكن، كان هناك مكان واحد يستطيع المرء أن يرى فيه جمال غروب الشمس؛ أكوام السحب الحمر أو الذهبيّة في جهة الغرب، أو البنفسجيّة التي يحيط بها سطوع باهر، أو الصغيرة البيض وبها مسحة من اللون الأحمر تعوم على مهل وعندما تهبّ الرياح تبدو كأسراب حمام زهريّ اللون تحلّق بسرعة عبر السماء الزرقاء. المكان الذي يستطيع المرء أن يرى منه كلّ هذه الأشياء، ويستطيع أن يتنفس فيه هواء أنقى، هو نافذة العليّة بالطبع.

عندما تتوهّج الساحة بطريقة ساحرة وتبدو جميلة رغم أشجارها وأسيجتها السود، تعرف سارا أن شيئاً ما يحدث في السماء، وحين تستطيع مغادرة المطبخ دون أن يبحث عنها أحد أو يستدعيها، فإنّها تتسلّل وتتسلّق درجات السلّم وتصعد على سطح الطاولة القديمة، وتخرج رأسها وكل ما تستطيع من جسدها من النافذة. عندما تفعل هذا، تسحب نفساً عميقاً وتنظر حولها. كانت تشعر أنّها تملك السماء والعالم. لم يظهر أحد من العليّات الأخرى من قبل، وتبقى المناور مغلقة في أغلب الأوقات، ولكن حتّى لو فتحت لإدخال الهواء، فلا أحد يقترب منها. كانت سارا تقف هناك، وأحياناً ترفع وجهها إلى السماء الزرقاء الرحبة القريبة -وكأنّها سقف مقبّب جميل- وأحياناً أخرى تراقب الغروب وكلّ الأشياء التي تحدث فيه، كتبدّد السحب أو انجرافها مع الرياح أو ثباتها وتشرّبها باللون القرمزيّ أو الأحمر أو الأبيض أو البنفسجيّ أو الرماديّ الفاتح، فتكوّن جزراً أو جبالاً عظيمة تحيط بها بحيرات من الأزرق الفيروزيّ الداكن، أو الكهرمان السائل، أو العقيق الأخضر الفاتح، أو تتمدّد ألسنة داكنة في البحار الغريبة المفقودة، أو تربط أشرطة هزيلة جزراً جميلة بأخرى غيرها. من بينها أماكن يشعر المرء أنّه يستطيع الركض إليها أو تسلّقها أو الجلوس عليها وانتظار ما سيحدث تالياً. وكانت تشعر أن بإمكانها أن تسرح بفكرها بعيداً حتّى تتبدّد كلّ السحب. لم ترَ ما هو أجمل من الأشياء التي كانت تراها وهي تقف على تلك الطاولة ونصف جسدها خارج نافذة السقف، فتسمع تغريد عصافير الدوريّ وترى وهج

المغيب الناعم ينعكس على ألواح السقف. كانت تشعر أنّ عصافير الدوريّ تغرّد بنعومة خافتة عندما تجري هذه الظواهر الباهرة.

حلّ غروب شمس كهذا بعد عدّة أيّام من قدوم السيّد الهنديّ إلى منزله الجديد، ولحسن حظ سارا فقد انتهى عمل ما بعد الظهيرة في المطبخ ولم يأمرها أحد بالذهاب لأيّ مكان أو إنجاز أية مهمّة، فتسللت بسهولة أكثر من المعتاد إلى الطابق العلويّ.

صعدت على طاولتها ووقفت تنظر إلى الخارج. كانت لحظة جميلة تغطت فيها الجهة الغربية بفيضانات من الذهب المصهور، وكأنّ مدّاً جليلاً يجتاح العالم. وتوهّجت السماء بنور أصفر مبهج، فبدت الطيور التي تحلّق فوق أسطح المنازل سوداً داكنة.

قالت سارا لنفسها بصوت خفيض:

- ياله من منظر باهر. يجعلني أشعر بالخوف تقريباً وكأنّ شيئاً غريباً على وشك الحدوث. لطالما دفعتني المناظر الباهرة للشعور هكذا.

أدارت سارا رأسها فجأة عندما سمعت صوتاً على بعد عدّة أمتار. كان صوتاً غريباً يشبه الثرثرة القصيرة الحادة ويصدر من نافذة العليّة المجاورة. شخص ما كان يشاهد غروب الشمس مثلها. كان هناك رأس وجزء من جسد يظهر من نافذة المنوَر، لكن لم يكن رأس ولا جسد فتاة صغيرة أو خادمة، بل خادم هنديّ له وجه داكن وعينان سوداوان لامعتان، يرتدي ثياباً بيضاً جميلة وعمامة.

قالت سارا لنفسها على الفور:

- إنّه لاسكار[1].

كان الصوت الذي سمعته صادراً عن قرد صغير يحمله في ذراعه بطريقة مُحببّة، وهو يتشبّث بصدره ويقهقه.

عندما نظرت سارا إليه استدار ونظر إليها. خطر لها على الفور أنّ وجهه الداكن يبدو حزيناً وكأنّه يشتاق لوطنه. كانت متأكّدة من أنّه اشتاق للشمس فصعد ليراها، لأنّه نادراً ما كان يراها في لندن. نظرت إليه باهتمام للحظة، ثمّ ابتسمت له. كانت تعرف كم تستطيع مجرّد ابتسامة التخفيف عنك حتّى لو كانت من غريب.

وقد سعد بابتسامتها بوضوح. وتغير التعبير الذي على وجهه بالكامل، فظهرت أسنانه البيض اللامعة وهو يبتسم وكأن نوراً أضاء وجهه الداكن. فلطالما كانت نظرة عيني سارا الودودة قويّة التأثير في الناس عندما يشعرون بالتعب أو الكآبة.

لعلّ الرجل أرخى قبضته على القرد وهو يلّوح لها، وكان قرداً شقيّاً ومستعداً للمغامرة دائماً، وعلى الأغلب أثاره منظر الفتاة الصغيرة، فأفلت فجأة من بين يديه، وقفز على ألواح السقف وركض عبرها وهو يقهقه، وقفز على كتف سارا، ومن هناك

---

(١) لاسكار أو لاسكرين: تسمية مشتقة من كلمة عسكر العربية. كانت تطلق على البحّارة والمحاربين العاملين على السفن الأوروبيّة سواء كانوا من الهند أو جنوب شرق آسيا أو العالم العربي. استخدمها الإنجليز لاحقاً فأصبحت تعود على خدم ضباط الجيش البريطاني القادمين من الهند تحديداً.

إلى غرفة العليّة الخاصة بها. جعلها هذا تبتهج وتضحك، لكنها كانت تعلم أنّه يجب أن يعود إلى سيده -لو كان اللاسكار سيده- وتساءلت كيف ستستطيع إعادته. هل سيسمح لها بالإمساك به، أو سيكون شقيّاً ولن يسمح لها، ويهرب عبر الأسطح ويضيع؟ لن ينفع هذا أبداً. ربّما هو ملك للسيّد الهنديّ، والرجل المسكين كان متعلّقاً به.

استدارت للاسكار، وهي تشعر بالسعادة لأنها تتذكّر بعض الهندوستانية[1] التي كانت قد تعلّمتها عندما كانت تعيش مع والدها. بإمكانها أن تشرح للرجل بلُغته التي يفهمها.

سألته:

- هل سيدعُني أمسك به؟

فكرت أنّها لم ترَ في حياتها دهشة وسعادة أكبر من التي ظهرت على الوجه الأسمر عندما تحدّثت بلغته التي يعرفها. والحقيقة هي أنّ الرجل المسكين شعر وكأن آلهته جادت عليه، وأنّ الصوت اللطيف اليافع قادم من الجنّة نفسها. فهمت سارا لحظتها أنّه معتاد على الأطفال الأوروبيّين. أطلق الرجل سيلاً من عبارات الامتنان والاحترام. وقال إنّه خادم (ميسي صاحب)، وإنّ القرد قرد مهذّب ولن يعضّ، لكن للأسف يصعب الإمساك به، لأنّه يهرب من مكان لآخر بسرعة البرق، وإنّه غير مطيع ولكنّه ليس شريراً. وإنّه هو

---

(١) اللغة الهندوستانية: تسمية قديمة للغة الأوردية استخدمها الإنجليز خاصة.

رامداس يعرفه وكأنّه ابنه، وأحياناً يطيعه القرد ولكن ليس دائماً. ولو سمحت (ميسي صاحب) له، فسيسير على سطح غرفتها ويدخل من النافذة، ويستعيد الحيوان الصغير التافه. وكان واضحاً أنّه يخشى أن تعتقد سارا أنّه يرتكب وقاحة ولا تسمح له بالقدوم.

لكن سارا سمحت له على الفور، استفسرت:

- هل بإمكانك العبور؟

أجاب:

- في لحظة.

قالت:

- تعال إذن، إنّه يقفز من جانب لآخر في الغرفة وكأنّه خائف.

خرج رامداس من نافذة عليّته وعبر إلى نافذتها بخفّة وثبات وكأنّه كان يسير على الأسطح طوال عمره، وانزلق عبر نافذة المنوَر وهبط على أرضية الغرفة بدون أن يصدر صوتاً. ثمّ استدار لسارا انحنى وألقى تحية (السلام) عليها. رآه القرد فأطلق صرخة صغيرة. قام رامداس بإغلاق نافذة العليّة بسرعة تحسباً، وبدأ يلاحقه في المكان. لم تكن ملاحقة طويلة، وإن استمر القرد فيها لعدّة دقائق لأجل المتعة، لكن في النهاية قفز على كتف رامداس وتشبّث في رقبته بذراعه الصغيرة النحيلة الغريبة وهو يقهقه.

شكر رامداس سارا بعمق. ولاحظت أنّ عينيه الهنديّتين اللّماحتين استقصيتا في نظرة واحدة الغرفة العارية الرثّة، ولكنّه

تحدّث معها وكأنّه يتحدث مع ابنة مهراجا صغيرة، وتظاهر بأنّه لم يلاحظ شيئاً. لم يبقَ أكثر من عدّة دقائق بعد أن أمسك بالقرد، وكانت تلكم الدقائق مكّرسة فقط لتقديم جزيل الشكر والتعظيم على تسامحها معه. قال لها وهو يربت على القرد الصغير إنّه ليس شرّيراً للدرجة التي يبدو عليها، وإن سيّده المريض يبتهج بوجوده أحياناً. وكان سيحزن لو هرب قرده المفضل وضاع، ثمّ انحنى لها من جديد وخرج من نافذة العليّة وسار على ألواح السقف بنفس خفّة القرد.

عندما غادر وقفت سارا في منتصف عليّتها وفكرت في أشياء كثيرة أعادها وجهه وسلوكه إلى ذاكرتها. هيئة ثيابه الهنديّة والاحترام العميق في سلوكه أعادا لها كلّ ذكريات ماضيها. بدا غريبا أن تتذكّر أنّها -هي الفتاة الكادحة التي أهانتها الطباخة قبل ساعة- كانت محاطة بأشخاص يعاملونها بنفس الطريقة التي عاملها بها رامداس للتوّ. قبل عدّة سنين، كانوا ينحنون لها عندما تمرّ، وتكاد جباههم أن تلمس الأرض عندما تتحدّث معهم، كانوا خدمها وعبيدها. كان هذا كالحلم، فقد انتهى كلّ شيء، ولن يعود أبداً. كان يبدو أنّه من المستحيل أن يطرأ أيّ تغيير على حالها. وكانت تعرف خطط الآنسة منشن لمستقبلها. فطالما أنّها أصغر من أن تستخدمها كمعلمة منتظمة؛ فسوف تظلّ تستعملها كساعية وخادمة، وبطريقة مايجب عليها أن تتذكر كلّ ما تعلّمته وأن تتعلم المزيد. كان يفترض بها أن تمضي عدداً كبيراً من أمسياتها في الدراسة، وكانت على حين غرّة وبين الحين والآخر، تُختبر في دروسها وكانت تعلم أنّها ستُوبّخ بشدة

إن لم تتقدم كما هو متوقّع منها. وكانت الآنسة منشن تعلم أن سارا شغوفة بالتعلّم ولا تحتاج إلى معلّمين. أعطتها الكتب وهي تعلم أنها ستلتهمها وتحفظها كلها عن ظهر قلب. وهكذا يمكن ائتمانها على تعليم الكثير من الموادّ خلال بضع سنين، لذا فهذا ما سيحدث: عندما تكبر سيُتوقّع منها أن تكدح في غرفة الصف كما تكدح الآن في أنحاء المنزل، سيضطرّون إلى أن يعطوها ملابس أكثر احتراماً، ولكن سيعملون على أن تكون ملابس بسيطة وقبيحة لتبقى على نحو ما، بهيئة خادمة. هذا ما سيكون بانتظارها. وقفت سارا بهدوء لعدّة دقائق وفكّرت في الأمر ملياً.

ثم خطرت على بالها فكرة جعلت خدّيها يحمرّان وعينيها تبرقان. ففردت قامتها القصيرة النحيلة ورفعت رأسها.

قالت:

- مهما حصل، فهناك شيء واحد لن يتغير. سأظلّ أميرة في داخلي حتّى لو كنت أرتدي الخرق والأسمال البالية. يسهل أن أتظاهر بأنني أميرة وأنا أرتدي ثوباً مصنوعاً من الذهب، لكن الانتصار الأعظم يتحقّق بأن أكون كذلك طوال الوقت، حتّى حين لا يعرف أحد. عندما كانت ماري انطوانيت[1] في السجن، وقد أُخذ منها عرشها، وابيّض

---

(١) ماري انطوانيت: ملكة فرنسا ونافارا وزوجة الملك لويس السادس عشر، عارضت وحاربت الثورة الفرنسية حتّى حوكمت وأعدمت عام ١٧٩٣م. ويعود نسل الملك لويس السادس عشر للدوق أوغو كابيه الذي حكمت سلالته وفروعها فرنسا حتّى قيام الثورة، لذا أصبحت تلقب بالأرملة كابيه بعد إعدام زوجها.

شعرها، ولم تعد تملك إلّا فستاناً أسود ترتديه، وعملوا على إهانتها ونادوها بالأرملة كابيه، في ذلك الوقت كانت تتصرف كملكة أكثر من الأوقات التي عاشت فيها برفاهية وسعادة. وهذه أكثر اللحظات التي أعجب بها فيها. حشود الغوغاء الغاضبين الصارخين لم تُخِفها. كانت أقوى منهم، حتّى عندما قطعوا رأسها.

لم تكن هذه فكرة جديدة بالنسبة لها، بل باتت قديمة للغاية. وقد واستها خلال الكثير من الأيّام المريرة، فكانت تتجول في المنزل وعلى وجهها تعبير لم تستطع الآنسة منشن أن تفهمه وتنزعج منه أشدّ الانزعاج، وكأن الفتاة تعيش داخل عقلها حياة مختلفة تجعلها تتفوق على بقيّة العالم، وكأنّها بالكاد تسمع الكلمات المسمومة والوقحة التي تقال لها، أو أنّها لا تهتمّ بما يقال حتّى لو سمعت. أحياناً، عندما تكون الآنسة منشن في خضمّ إلقاء خطاب متسلّط قاس كانت تلاحظ العينين الهادئتين اللتين لا تشبهان عيون الأطفال مثبّتتين عليها وفيهما شيء يشبه الابتسامة الفخورة. في مثل تلك الأوقات لم تكن تعلم أنّ سارا كانت تقول لنفسها: «أنتِ تجهلين حقيقة أنّكِ تقولين هذه الأشياء لأميرة، وأنّني لو رغبت لأشرت بيدي لينفّذ فيكِ حكم الإعدام. لكنني أعفو عنكِ فقط لأنّني أميرة، وأنت امرأة عجوز مسكينة همجية ولا تعرفين سلوكاً أفضل».

كان هذا يبهجُها ويُثير حماسها أكثر من أيّ شيء آخر، وبقدر ما كان غريباً وخيالياً إلّا أنّه أشعرها بالراحة وكان هذا جيّداً لها. عندما

تسيطر عليها هذه الفكرة لا تستطيع وقاحة أو خبث الأشخاص المحيطين بها دفعها لتصبح وقحة أو خبيثة.

كانت تقول لنفسها:

- يجب أن تكون الأميرة مهذّبة.

وحتّى عندما كان الخدم يقلّدون سيدتهم، ويتحدّثون معها بوقاحة، ويتسلّطون عليها، كانت ترفع رأسها عالياً وتردّ عليهم بتهذيب غريب، يجعلهم يحدّقون فيها.

في بعض الأحيان كانت الطبّاخة تقول وهي تضحك:

- تلك الفتاة الصغيرة أكثر كبرياء وترفعاً مما لو كانت من قصر بكنغهام[1]. كثيراً ما أفقد أعصابي عليها، لكن عليّ أن أعترف بأنّها لا تنسى أخلاقها أبداً. (لو سمحتِ أيّتها الطبّاخة) و(هل تتكرّمين أيّتها الطبّاخة؟) و(اعذريني أيّتها الطبّاخة) و(من فضلك أيّتها الطبّاخة؟) تبعثر هذه الجمل هنا وهناك في المطبخ وكأنّها لا شيء.

في الصباح التالي لمقابلة رامداس وقرده، كانت سارا في غرفة الصفّ مع طالباتها الصغيرات، وبعد أن انتهت من شرح الدرس، وفيما كانت تجمع كتب تمارين اللغة الفرنسيّة، أخذت تفكّر بالأشياء المختلفة التي على الشخصيات الملكيّة المتخفيّة فعلها، مثل ألفريد

---

(١) قصر بكنغهام: مقر إقامة وحكم ملوك وملكات بريطانيا ويقع في مدينة وستمنستر داخل لندن.

العظيم[1] عندما أمرته زوجة مربي الخنازير بمراقبة الكعك على النار، فسرح بتفكيره فاحترق فقامت بقرص أذنيه، كم شعرت بالرعب عندما عرفت بجسامة ما ارتكبته. إذا حدث وعرفت الآنسة منشن أنّها -هي سارا التي تكاد أصابعها أن تبرز من حذائها- أميرة حقيقيّة!

كانت النظرة في عينيّ سارا في تلك اللحظة أكثر نظرة تكرهها الآنسة منشن، ولم تكن لتتحمّل الأمر أكثر، كانت قريبة منها للغاية، وغاضبة للغاية، فاندفعت نحوها وقرصت أذنيها كما فعلت زوجة مربي الخنازير بالضبط للملك ألفريد العظيم. تفاجأت سارا، واستيقظت من حلمها على أثر الصدمة، ووقفت للحظة لتلتقط أنفاسها، ولأنها لم تعرف ماذا تفعل، انفجرت في ضحكة قصيرة.

صاحت الآنسة منشن:

- لِمَ تضحكين أيّتها الطفلة الوقحة الجاهلة؟

احتاجت سارا لبضع ثواني لتسيطر على نفسها بما فيه الكفاية وتتذكّر أنّها أميرة. كان خدّاها محمرّان وملتهبان من أثر الصفعات التي تلقتها.

أجابت:

(١) ألفريد العظيم: أحد أبرز الشخصيات في التاريخ الإنجليزي، حكم مملكة ويسيكس (٨٧١-٨٩٩م) ودافع عنها لتصبح المملكة الأنجلوساكسونية الوحيدة التي تقف أمام هجمات الڤايكنج. القصّة المذكورة من أشهر الحكايات المعروفة عنه ويتوقع أنّها حدثت بعد تلقيه عدداً من الهزائم على يد الڤايكنج وهربه منهم.

- كنت أفكّر.

قالت الآنسة منشن:

- اعتذري إليّ فوراً.

تردّدت سارا للحظة قبل أن تجيب، ثمّ قالت:

- أعتذر منكِ على ضحكي إن كان وقحاً، لكن لن أعتذر منكِ عن تفكيري.

سألتها الآنسة منشن بلهجة آمرة:

- فيم كنت تفكرين؟ كيف تجرُئين على التفكير؟ فيم كنت تفكرين؟

ضحكت جيسي ضحكة مكتومة، ولكزت هي ولاڤينيا بعضهما في نفس الوقت، ورفعت كلّ الفتيات رؤوسهنّ من كتبهنّ ليستمعن. لطالما أثار هجوم الآنسة منشن على سارا اهتمامهنّ قليلاً، لأن سارا تقول أشياء غريبة دائماً، ولا تبدو خائفة منها أبداً، وكذلك لم تبدُ خائفة الآن ولا حتّى قليلاً، رغم أن أذنيها قرمزيّتان من القرص وعينيها لامعتان كالنجوم.

أجابت بكبرياء وتهذيب:

- كنت أفكّر أنّكِ لا تعرفين ماذا ارتكبتِ.

شهقت الآنسة منشن:

- إنني لا أعرف ماذا ارتكبت؟

قالت سارا:

- أجل، وكنت أفكر فيما سيحصل لو كنتُ أميرة وقرصتِ أذني، في ما سأفعله بكِ. وكنت أفكّر أنّني لو كنت أميرة، لما تجرّأتِ على فعل ذلك، مهما فعلتُ أو قلتُ. وكنت أفكّر كم ستكونين خائفة ومتفاجئة عندما تكتشفين فجأة...

كانت قد تخيّلت هذا المستقبل بجلاء لدرجة أنّها تحدثت بطريقة أثّرت حتّى على الآنسة منشن، فبدا لها للحظة في عقلها ضيّق الأفق ضعيف الخيال، أنّه ربّما تكون هناك قوة حقيقيّة خفيّة خلف هذه الفتاة الصريحة الجريئة.

صاحت:

- ماذا؟ اكتشف ماذا؟

قالت سارا:

- ... أنّني أميرة حقيقيّة، وأستطيع فعل أيّ شيء.. أيّ شيء أحبّه.

اتسعت عيون الموجودات في غرفة الصفّ لأقصى حدّ، ومالت لاڤينيا على مقعدها لتراقب.

صرخت الآنسة منشن لاهثة:

- اذهبي إلى غرفتك في هذه اللحظة! غادري غرفة الصف! عدن لدروسكنّ أيّتها الفتيات الشابّات!

انحنت سارا انحناءة صغيرة وقالت:

- سامحيني إن كانت ضحكتي غير مهذبة.

وخرجت من غرفة الصف، تاركة خلفها الآنسة منشن تصارع غيظها الشديد، والفتيات يهمسن خلف كتبهنّ.

قالت جيسي:

- هل رأيتها؟ هل رأيتِ كم تبدو غريبة؟ لن أتفاجأ إن تبيّن أنّها كذلك حقاً. فلربّما كانت كذلك!

(١٢)
الجانب الآخر من الجدار

عندما يعيش المرء في صفّ من المنازل، فمن المثير للاهتمام أن يفكّر فيما يحدث ويقال على الجانب الآخر من جدار الغرفة التي يعيش فيها. كانت سارا تحبّ تسلية نفسها بمحاولة تخيّل الأشياء التي يخفيها الجدار الذي يفصل بين معهد النخبة ومنزل السيّد الهنديّ. كانت تعلم أنّ غرفة الصف ملاصقة لمكتب الرجل الهنديّ، وتمنّت أن يكون الجدار سميكاً كي لا تزعجه جلبة الطالبات بعد ساعات الدروس.

قالت لإرمينغارد:

- أجدني وقد تعلّقت به للغاية، ولا أتمنّى أن يزعجه شيء. لقد اتّخذته كصديق. يمكنكِ أن تفعلي ذلك للأشخاص الذين لن تتحدّثي معهم أبداً. تستطيعين أن تراقبيهم، وتفكّري بشأنهم، وتشعري بالأسف لأجلهم، حتّى يصبحوا كأقاربك. أحياناً أشعر بقلق شديد عندما أرى الطبيب يزور المنزل مرتين في اليوم.

قالت إرمينغارد وهي تتفكّر:

- أنا سعيدة لأنّ لدي القليل من الأقارب، فأنا لا أحبهم. عمتاي تقولان دائماً (يا إلهي يا إرمينغارد! أنتِ سمينة للغاية! يجب ألّا تأكلي الحلويات)، وعمّي طوال الوقت يطرح عليّ أسئلة من قبيل (متى جلس إدوارد الثالث على العرش؟) و(من توفي بسبب الإفراط الشديد في تناول الأنقليس؟).

ضحكت سارا، وقالت:

- لا يستطيع الأشخاص الذين لا تتحدّثين معهم طرح مثل هذه الأسئلة، وأثق أنّ السيّد الهنديّ لن يفعل ذلك حتّى لو كان مقرباً منكِ. لقد أحببتُه.

كانت قد أحبّت العائلة الكبيرة لأنهم يبدون سعداء، ولكنها أحبّت السيّد الهنديّ لأنّه بدا تعيساً، وكان واضحاً أنّه لم يتعافَ تماماً من مرض خطير. في المطبخ -حيث يعرف الخدم كلّ شيء بطرق غامضة- جرى الكثير من النقاش في موضوعه. قيل أنّه في الواقع ليس سيّداً هنديّاً بل رجلاً انجليزياً عاش في الهند، وقد واجه مصائب عظيمة كادت أن تودي بثروته وظنّ أنّه أفلس وتحطّم للأبد. كانت الصدمة كبيرة عليه وكاد أن يموت من حمّى دماغية، ومنذ ذلك الوقت أصبح معتلّ الصحة، رغم أن حظه تغيّر وعادت له كلّ ممتلكاته. وأنّ مشاكله ومصائبه كانت لها علاقة بالمناجم.

قالت الطبّاخة:

- كما أنّها مناجم ماس! لن تذهب مدّخراتي إلى أية مناجم.. بالذات مناجم الماس!

ثمّ أضافت وهي تلقي نظرة جانبيّة على سارا:

- كلّنا على علمٍ بأمر المناجم.

فكّرت سارا: «لا بدّ أنّه شعر بما شعر به والدي وقد أصابه المرض مثله أيضاً، لكنّه لم يمت».

لذا تعلّق قلبها به أكثر من السابق. أصبحت تشعر بسعادة غامرة عندما يرسلونها خارجاً في الليل، لأنّ هناك احتمال أن تكون ستائر المنزل المجاور مفتوحة ويمكنها أن تلقي نظرة على الغرفة الدافئة وترى صديقها المتّخذ. وعندما لا يكون هناك أحد بالجوار اعتادت أحياناً على التوقّف ممسكة بقضبان السور الحديديّ، وأن تتمنّى له ليلة سعيدة وكأنّه يستطيع سماعها.

كان خيالها: «ربّما استطعتَ أن تشعر حتّى لو لم تسمع. ربّما تصل النوايا الطيبة للناس بطريقة ما، حتّى عبر النوافذ والأبواب والجدران. ربّما شعرتَ بشيء من الدفء والراحة ولا تعرف السبب، عندما أقف هنا في البرد وأتمنّى أن تعود لك صحّتك وسعادتك. أشعر بالأسف لأجلك».

وتهمس بصوتٍ مشوب بعاطفة جياشة: «أتمنّى لو أنّ عندك (سيّدة صغيرة) تدلّلك كما كنت أدلّل بابا عندما يصيبه الصداع. سأحبّ أن أكون (سيّدتك الصغيرة) يا عزيزي المسكين! ليلة سعيدة... ليلة سعيدة. فليباركك الرب!».

وتغادر وهي تشعر بأنّها نفسها صارت أكثر دفئاً وراحة. كان تعاطفها معه كبيراً، وتراءى لها أنّه لابدّ من أن يصل إليه بطريقة ما، وهو يجلس وحيداً على مقعده أمام نار المدفأة. في أغلب الأحيان يكون مرتدياً رداء نوم واسع، ودائماً ما تستريح جبهته على يده، ويحدّق في النار بيأس. بدا لسارا وكأنّه لا يزال يعاني من المصاعب، وليس كرجل أصبحت مصاعبه من الماضي.

قالت لنفسها:

«إنّه يبدو وكأنّه يفكر في شيء يؤلمه الآن، لكنّ ثروته عادت إليه وسيشفى من الحمّى الدماغيّة في النهاية، لذا عليه أن لا يبدو هكذا. أتساءل إن كان هناك أمر آخر».

لو كان هناك أمر آخر -أمر لم يسمع به حتّى الخدم- كانت مؤمنة بأنّ ربّ العائلة الكبيرة كان يعلم بشأنه؛ الرجل الذي تدعوه بالسيّد مونتميرنسي. فقد كان يزور السيّد الهنديّ كثيراً وأحياناً يحضر معه السيّدة مونتميرنسي والأطفال. بدا أن السيّد الهنديّ يحب الفتاتين الكبيرتين -جانيت ونورا اللتين شعرتا بالخوف عندما أعطى أخوهما الصغير دونالد نصف الشلن لسارا- والحقيقة هي أنّه يحبّ الأطفال للغاية وخصوصاً الفتيات الصغيرات. وكانت جانيت ونورا تبادلانه هذا الحبّ، وتتطلّعان بسرور كبير للأيّام التي يسمح لهما فيها بقطع الساحة لتقوما بزياراتهما القصيرة المهذّبة. وكانت زياراتهما قصيرة متحفّظة لأنّه معتل الصحة.

قالت جانيت:

- ياله من رجل مسكين! يقول إننا نُدخل البهجة على قلبه رغم أنّنا نحاول إبهاجه بهدوء شديد.

كانت جانيت ربّة الأسرة، وهي التي تحافظ على نظامها. فهي تقرّر متى يكون الوقت مناسباً ليسألوا السيّد الهنديّ أن يحكي لهم قصصاً عن الهند، وهي تلاحظ متى أصبح متعباً وتقرّر أنّ الوقت حان ليتسلّلوا بهدوء إلى الخارج ويخبروا رامداس ليعتني به. كانوا يحبّون رامداس للغاية. وكان يستطيع أن يحكي كمّاً لا محدوداً من القصص لو استطاع تحدّث أيّة لغة غير الهندوستانيّة. كان اسم السيّد الهنديّ هو كارسفورد، وقد حكت جانيت للسيّد كارسفورد عن لقائهم مع (الفتاة التي ليست متسوّلة). أثارت هذه القصّة اهتمامه، خصوصاً عندما سمع من رامداس عن مغامرة القرد على السطح. وصف له رامداس بوضوح العليّة البائسة وعن أرضها العارية والقار المتكسر والموقد الفارغ والسرير الصلب الضيق.

قال لربّ العائلة الكبيرة بعد أن سمع هذا الوصف:

- كارمايكل، أتساءل كم من العليّات في هذه الساحة تشبه تلك العليّة، وعن عدد الخادمات الصغيرات البائسات اللواتي ينمن على أسرة كتلك، بينما أتقلّب أنا على الوسائد، مهموماً ومثقلاً بثروة، أكثرها لا يعود لي.

أجاب السيّد كارمايكل ببهجة:

- يا صديقي العزيز، من الأفضل لك أن تكفّ عن تعذيب نفسك. حتّى لو كنت تملك كلّ ثروة الهند، فلن تستطيع

إصلاح كلّ مشاكل العالم، ولو بدأت بترميم كلّ العليّات في هذه الساحة فستبقى كلّ عليّات باقي الساحات وباقي الشوارع لإصلاحها، وهكذا دواليك!

جلس السيّد كارسفورد وأخذ يقضم أظافره وهو يحدّق في الجمر المتوهج في الموقد.

قال ببطء بعد لحظة من الصمت:

- هل تظن أنّ الطفلة الأخرى -التي لا أكف عن التفكير بشأنها- يمكن أن تكون في حالة مشابهة للفتاة المسكينة التي تعيش في البيت المجاور؟

نظر السيّد كارمايكل إليه في قلق. كان يعلم أنّ أسوأ ما يمكن أن يفعله الرجل لصحّته ولصوابه أن يفكّر بهذه الطريقة وفي هذا الموضوع بالذات.

أجاب بترفّق:

- إذا كانت الطفلة التي في مدرسة مدام باسكال في باريس هي التي تبحث عنها، فهي تحت في رعاية أشخاص يستطيعون الاعتناء بها. لقد قامت العائلة بتبنّيها لأنّها كانت الصديقة المفضّلة لابنتهم المتوفاة. ولم يكن لديهم أطفال آخرين، وقالت مدام باسكال أنّهم عائلة روسيّة ثريّة للغاية.

صاح السيّد كارسفورد:

- والمرأة اللعينة لا تعرف إلى أين أخذوها!

هز السيّد كارمايكل كتفيه.

- إنّها امرأة فرنسية محنّكة وذات خبرة، وقد كانت سعيدة بالتخلص من الفتاة بسهولة عندما خلّفها موت والدها دون أيّ مال. النساء أمثالها لا يزعجن أنفسهّن بمستقبل أطفال قد يشكّلون عبئاً عليهنّ. والوالدان المتبنّيان اختفيا بدون أن يتركا خلفهما أيّ أثر.

- لكنّك تقول لو كانت هي التي أبحث عنها. تقول (لو). لسنا متأكّدين أنّها هي. هناك اختلاف في الاسم.

- مدام باسكال نطقت الاسم كارو بدلاً كرو، لكن ربّما كانت المسألة مجرّد اختلاف في النطق. ظروف الفتاتين متشابهة لحدّ بعيد. ضابط في الهند يسجّل ابنته التي فقدت والدتها في مدرسة. ويموت فجأة بعد أن يفقد ثروته.

صمت السيّد كارمايكل للحظة، وكأنّ فكرة جديدة خطرت على باله:

- هل أنت متأكّد من أن الفتاة تُركت في مدرسة في باريس؟ هل أنت متأكّد من أنّها في باريس؟

اندفع كارسفورد باستياء ومرارة:

- يا صديقي العزيز، لست متأكّداً من شيء. لم أرَ الفتاة ولا أمّها من قبل. أنا ورالف كرو كنا نحب بعضنا منذ صغرنا، ولم نتقابل منذ أيّام الدراسة، حتّى التقينا في الهند. كنت

مسحوراً بمسألة المناجم. وقد سُحر هو بالأمر أيضاً. المسألة بأكملها كانت ضخمة ومغرية وكدنا أن نفقد نصف عقولنا. لم نكن نتحدث عن أيّ شيء آخر عندما كنا نتقابل. كنت أعلم فقط أنّه أرسل ابنته إلى مدرسة في مكان ما. لا أستطيع أن أتذكّر الآن كيف عرفت ذلك حتّى.

كان قد بدأ يضطرب. وكان يضطرب دائماً عندما تثار ذكريات نكبات الماضي في عقله الذي لا يزال ضعيفاً.

راقبه السيّد كارمايكل في قلق. كان يجب أن يسأله بضع أسئلة، لكن توجّب عليه أن يطرحها بهدوء وحذر.

- لكن كان لديك سبب لتعتقد أنّ المدرسة في باريس؟

أجاب:

- أجل، لأنّ أمّها امرأة فرنسية، وسمعت أنّها كانت تريد لابنتها أن تتعلّم في باريس. لذا ظننت أنّها هناك على الأغلب.

قال السيّد كارمايكل:

- أجل، هذا محتمل للغاية.

انحنى السيّد الهنديّ للأمام وضرب الطاولة بيد طويلة هزيلة، وقال:

- كارمايكل. يجب أن أجدها. إذا كانت لا تزال حيّة فهي في مكان ما. وإذا كانت وحيدة وبدون مال فأنا السبب في ذلك. كيف يمكن لرجل أن يستعيد أعصابه وهو مثقل

بأمر كهذا في عقله؟ عندما تغير حظّنا بغتة في المناجم تحقّقت أعظم أحلامنا، بينما قد تكون ابنة كرو المسكينة تتسوّل في الشوارع الآن!

قال كارمايكل:

- لا، لا. حاول أن تهدأ قليلاً. واسِ نفسك بحقيقة أنّك عندما تجدها ستسلّم لها ثروة عظيمة.

وتأوّه كارسفورد في عصبيّة يائسة:

- لماذا لم أكن رجلاً بما فيه الكفاية كي لا أستسلم عندما بدت الأمور سيئة؟ كان عليّ ألّا أستسلم بما أنّي كنت مسؤولاً عن أموال أشخاص آخرين وليس عن مالي فقط. المسكين كرو وضع كلّ قرش يملكه في المشروع. لقد وثق بي وأحبّني. ومات وهو يعتقد أنّي دمرته؛ أنا توم كارسفورد، الذي كنت ألعب معه الكريكت في كلية إيتون. أيّ نذل اعتقدني؟

- لا تحمّل نفسك كلّ هذا اللوم.

- لست ألوم نفسي على كون توقعاتنا كادت تُنذر بالفشل، بل ألوم نفسي لأنّي فقدت شجاعتي. هربت كمحتال سارق، لأنّي لم أستطع مواجهة صديقي الحميم وإخباره أنّي دمّرته هو وابنته.

وضع ربّ العائلة الكبيرة الطيّب يده على كتف كارسفورد ليواسيه، قائلاً:

- هربت لأنّ عقلك انهار تحت طائلة كلّ ذلك العذاب النفسي، كنت مصاباً بالحمى وتهذي بالفعل، ولو لم تكن مريضاً لبقيت وحاربت. كنت في المشفى، مقيداً على سرير، مهتاجاً من الحمّى الدماغيّة بعد يومين من مغادرتك المكان. تذكّر هذا.

أسند كارسفورد جبهته على يديه، وقال:

- يا إلهي الرحيم! لقد فقدت عقلي من الخوف والذعر. لم أكن قد نمتُ لأسابيع. في الليلة التي غادرت فيها المنزل الذي كنت أبقى فيه، بدا لي أنّ الهواء مليء بمخلوقات بشعة تسخر منّي وتصيح في وجهي.

قال السيّد كارمايكل:

- هذا التبرير كافٍ بحد ذاته. كيف يمكن لرجل على وشك الإصابة بالحمى الدماغيّة اتّخاذ قرار متعقّل!

هز كارسفورد رأسه المحنيّ.

- عندما عدت لوعيي كان المسكين كرو قد توفى ودفن. ولم أتذكّر أيّ شيء. لم أتذكر الفتاة لشهور وشهور. ولغاية أن تذكرت أنّها موجودة، بدا كلّ شيء ضبابياً.

توقّف للحظة وفرك جبهته.

- ومازال الأمر كذلك حتّى الآن عندما أحاول التذكر. لابد أنّني سمعت كرو يتحدث عن المدرسة التي أرسلها إليها، ألا تعتقد ذلك؟

- ربّما لم يذكرها بشكل واضح. إذ لا يبدو أنك تعرف اسمها الحقيقيّ حتّى.

- اعتاد على مناداتها باسم تدليل غريب قام باختراعه وهو (السيّدة الصغيرة)، لكنّ المناجم اللعينة أنستنا كلّ شيء آخر. لم نكن نتحدّث في أيّ شيء آخر. ولو كان قد تحدّث عن المدرسة فقد نسيت.. نسيت. والآن، لن يكون بإمكاني أن أتذكّر أبداً.

قال السيّد كارمايكل:

- هيّا، لاعليك. سنجدها. سنستمرّ في البحث عن العائلة الروسيّة الطيّبة التي تحدّثت عنها مدام باسكال. كانت تعتقد أنّهم يسكنون في موسكو لكنّها ليست متأكّدة. سيكون هذا دليلنا. سأذهب إلى موسكو.

قال كارسيفورد:

- لو كنتُ قادراً على السفر لرافقتك. ولكن ما بيدي غير الجلوس هنا مدّثراً بالفراء أرقب النار. عندما أنظر إلى النار أكاد أرى وجه كرو الشاب المرح ينظر إليّ ويبدو وكأنّه يسألني سؤالاً. أحياناً أحلم به في الليل، ودائماً ما يقف أمامي ويسألني نفس السؤال. هل تستطيع أن تحزر ما يقوله يا كارمايكل؟

أجاب السيّد كارمايكل بصوت منخفض:

- لا أعتقد أنّني أستطيع.

- إنّه يقول دائماً (توم... أيّها العجوز... توم... أين سيّدتي الصغيرة؟).

ثم أمسك السيّد كارسفورد بيد كارمايكل وتشبّث بها.

- يجب أن أجيبه... يجب! ساعدني على إيجادها. ساعدني.

على الجانب الآخر من الجدار، كانت سارا تجلس في عليّتها وتتحدّث مع ملكي صادق، الذي خرج ليتناول وجبة عشائه. قالت:

- كان صعباً أن أكون أميرة اليوم يا ملكي صادق. صار هذا أصعب من العادة. ويصعب أكثر عندما يزداد الجوّ برودة وتصبح الشوارع أكثر قذارة. عندما ضحكت لاڤينيا على تنّورتي الملطّخة بالوحل وأنا أمرّ من الردهة، فكّرت بلمح البصر في ردّ مناسب، لكنّي أوقفت نفسي في آخر لحظة. لا يمكنكِ أن تردّي على الناس سخريتهم عندما تكونين أميرة. يجب أن تعضّي على لسانك لتسيطري على نفسك، وقد عضضت لساني. كان الجوّ بارداً فيما بعد ظهيرة اليوم يا ملكي صادق، وستكون ليلة باردة.

ثم أسندت رأسها على ذراعيها كما تفعل عادة عندما تكون لوحدها. همست:

- أوه يا بابا. مرّ وقت طويل منذ أن كنتُ (سيّدتك الصغيرة)!

هذا ما كان يحدث في ذلك اليوم على جانبي الجدار.

(١٣)

فرد من عامّة الشعب

كان شتاءً قاسياً. مرّت أيّام سارت فيها سارا عبر الثلج عندما يرسلونها للخارج، وكانت هناك أيّام أسوأ بعد أن ذاب الثلج واختلط مع الطين ليكوّن وحلاً جليديّاً، وأيّام أخرى كان فيها الضباب كثيفاً للغاية فتُضاء مصابيح الشارع طوال الوقت وتبدو لندن كما بدت في ذلك اليوم قبل عدّة سنين، حينما سارت عربة الأجرة عبر الشوارع الواسعة وسارا متربعة على المقعد، متكئة على كتف والدها. في مثل هذه الأيّام تبدو نوافذ منزل العائلة الكبيرة مريحة ومغرية، وغرفة مكتب السيّد الهنديّ تشعّ بالدفء والألوان الغنيّة، بينما تبدو العليّة كئيبة لدرجة لا تصفها الكلمات. لم يعد هناك شروق أو غروب شمس لتراهم، وبالكاد تظهر أيّة نجوم. بدا لسارا أنّ السحاب يتراكم على مستوى منخفض فوق نافذة السقف، ويكون لونه رماديّاً أو طينيّاً أو يتساقط منه مطر شديد. كان ضوء النهار يتلاشى بحلول الساعة الرابعة عصراً حتّى وإن لم يكن هناك الكثير من الضباب. ولو احتاجت أن تصعد لعليّتها لأيّ

سبب كانت فستُضطرّ لأن تشعل شمعة. شعرت النسوة في المطبخ بالإحباط، وجعل هذا أعصابهنّ أسوأ من أيّ وقت سابق. وأصبح الجميع يتسلطون على بيكي وكأنّها عبدة صغيرة.

قالت بيكي لسارا بصوت أجشّ، بعد أن تسلّلت إلى عليّتها:

- لولا وجودك يا آنستي.. لو لم تكوني موجودة أنتِ، والباستيل، وكوني السجينة في الزنزانة المجاورة، كنت سأموت. ألا يبدو هذا حقيقيّاً الآن؟ السيّدة الكبيرة تزداد شبهاً بآمرة سجن كلّ يوم، وأكاد أرى المفاتيح الكبيرة التي قلتِ أنّها تحملها. والطبّاخة هي أحد السجانين الأقلّ مرتبة. أخبريني بالمزيد رجاءً يا آنسة. أخبريني بالمزيد عن النفق الذي حفرناه أسفل الجدران.

ارتجفت سارا من البرد:

- سأحكي لكِ شيئاً أكثر دفئاً، أحضري غطاء سريرك ولفّيه حولكِ، وسأحضر غطائي، ولنجلس بقرب بعضنا على السرير، وسأحكي لكِ عن الغابة الاستوائيّة التي كان يعيش فيها قرد السيّد الهنديّ. عندما أراه جالساً على الطاولة التي بجانب النافذة ينظر إلى الشارع وعلى وجهه ذلك التعبير الحزين، أشعر أنّه يفكر بالغابة الاستوائية التي اعتاد على التأرجح بذيله من أشجار جوز الهند فيها. أتساءل من الشخص الذي أمسك به، وهل ترك خلفه عائلة تعتمد عليه لإحضار جوز الهند.

قالت بيكي بامتنان:

- هذا أكثر دفئاً بكثير يا آنستي، حتّى الباستيل يغدو أكثر دفئاً عندما تحكين عنه.

قالت سارا وهي تلفّ غطاء السرير حولها بحيث لم يظهر منها إلّا وجهها الأسمر الصغير:

- لأنّه يجعلكِ تفكّرين في شيء آخر. لقد لاحظت هذا. يجب أن تجعلي عقلك ينشغل بشيء آخر عندما يكون جسدك في حالة مزرية.

تلعثمت بيكي وهي تنظر إليها بعينين محبّتين:

- هل تستطيعين فعل هذا يا آنسة؟

قطّبت سارا حاجبيها للحظة ثمّ قالت بثقة:

- أحياناً أستطيع وأحياناً لا، لكن عندما أستطيع سأكون بخير. أعتقد أنّ بإمكاننا أن نفعل هذا دائماً لو تدرّبنا بما فيه الكفاية. كنت أتدرّب كثيراً مؤخراً، وأصبح الأمر الآن أسهل من السابق. عندما يصبح الوضع فظيعاً -فظيعاً للغاية- أفكّر بكلّ تركيزي أنّني أميرة. أقول لنفسي (أنا أميرة جنيّة، ولأنني جنيّة خيّالية فلا شيء يستطيع إيذائي أو إزعاجي) لا تعرفين كم يمكن لهذا أن يجعلكِ تنسين.

وضحكت.

كانت لديها الكثير من الفرص لتُشغل عقلها في أمر آخر،

وكثير من الفرص لتثبت لنفسها سواء كانت أميرة أو لا. لكن أكبر امتحان مرت به أتى في يوم كريه، ظلت تفكّر فيه لأيّام لاحقة، ولن يُمحى من ذاكرتها لسنين طويلة.

لم يتوقف المطر عن الهطول لعدّة أيّام، وأصبحت الشوارع باردة وقذرة، غطّاها ضباب كئيب بارد، وامتدّ الوحل في كلّ مكان -وحل لندن اللزج- وأحيط كلّ شيء برذاذ المطر والضباب. بالطبع كان على سارا أن تقوم بعدّة مهام طويلة ومتعبة -ودائماً ما تكون في أيّام كهذه- أرسلوها مرّة بعد مرّة، حتّى أصبحت ثيابها الرثّة مبلّلة، وصار الريش القديم على قبعتها أكثر قذارة وسوءاً من أي وقت مضى، وامتلأ حذاؤها المهلهل بالماء لدرجة لا يمكن معها أن يتشرّب المزيد منه. إضافة لهذا فقد حُرمت من عشائها، لأنّ الآنسة منشن قرّرت أن تعاقبها. كانت تشعر بالبرد والجوع والتعب لدرجة أن تعبيراً منكمشاً ظهر على وجهها، وبين حين وآخر يلقي عليها بعض المارة طيّبي القلوب نظرات شفقة. لكنها لم تعِ ذلك. إذ كانت تسير بسرعة محاولة إجبار عقلها على التفكير في شيء آخر. وكان هذا ضرورياً للغاية. كانت طريقتها تعتمد على (التظاهر) و(الافتراض) بكل القوّة المتبقية بداخلها. لكنّها هذه المرة وجدت أنّ الأمر أصعب من أيّ وقت آخر، وشعرت لمرّة أو اثنتين أنّه أزاد من شعورها بالبرد والجوع بدلاً من أن يقلّله. لكنّها حافظت على مثابرتها، والماء الموحل يُغرق حذاءها المهترئ، والرياح تبدو وكأنّها تحاول أن تجرّ معطفها الخفيف من على جسدها، تحدّثت مع نفسها وهي تسير، رغم أنّها لم تتكلم بصوت عال أو تحرّك شفتيها.

فكّرت:

«فلنفترض أنّني أرتدي ثياباً جافّة، فلنفترض أنّني أرتدي حذاء سليماً ومعطفاً سميكاً طويلاً، وجوارب من صوف المارينو[1] ومظلّة. ولنفترض -فرضاً- أنّني عندما اقتربت من مخبز يبيع كعكاً ساخناً، وجدت عملة نصف شلن ليست ملكاً لأحد. فلنفترض أنّ هذا حصل، عندها سأدخل المخبز وأشتري أسخن ستّ كعكات وآكلها كلّها بدون توقف».

أحياناً، تحصل أشياء غريبة للغاية في هذا العالم.

وهكذا حصل لسارا أمر غريب للغاية. كانت تقطع الطريق وهي تقول هذا لنفسها. وكان الوحل لا يحتمل، فخوّضت فيه بصعوبة. حاولت أن تسير بحذر شديد، لكن لم تستطع تجنيب نفسها الكثير، ولأنّها كانت تتخيّر طريقها، فقد كان عليها أن تنظر إلى قدميها والوحل، وبما أنّها كانت تنظر لأسفل -عندما وصلت للرصيف- فقد رأت شيئاً ما يلتمع في مجرى تصريف المياه. قطعة فضيّة صغيرة للغاية داست عليها العديد من الأقدام، ولكن مازال بها من الروح ما يكفي لكي تلتمع قليلاً. لم تكن نصف شلن، بل القطعة الأصغر منها بقليل؛ قطعة الأربعة بنسات.

خلال ثانية واحدة أصبحت في يدها الصغيرة التي احمرّت وازرقّت بفعل البرد.

---

(١) خراف المارينو: أصل هذا النوع من إسبانيا ويُنتج أفضل وأنعم الصوف.

شهقت:

- أوه! إنّها حقيقيّة! إنّها حقيقيّة!

ثمّ إن كنت ستصدّقني، نظرت إلى المتجر الذي أمامها مباشرة، فإذا به مخبزٌ، وثمّة امرأة سمينة موّردة الخدين تبدو كأمّ، تضع بنشاط وابتهاج صينية من الكعك الساخن اللذيذ في واجهة المتجر.. كعكات كبيرة ممتلئة لامعة عليها زبيب طازجة للتوّ طلعت من الفرن.

جعل هذا المنظر سارا تشعر بالدوار لعدة ثوانٍ من الصدمة؛ مظهر الكعكات، ورائحة الخبز الدافئ المبهجة الصادرة من نافذة القبو.

كانت تعرف أنّ عليها أن لا تتردّد في استخدام قطعة النقود. فقد كانت ملقاة في الوحل لبعض الوقت، وضاع مالكها في سيل المارّة الذين يتدافعون ويتزاحمون طوال اليوم.

قالت لنفسها بضعف:

- لكنّي مع ذلك، سأسأل المرأة التي في المخبز إن كانت قد أضاعت أيّ شيء.

لذا قطعت الرصيف ووضعت قدمها المبلّلة على العتبة. لكن وهي تفعل هذا، رأت شيئاً جعلها تتوقّف.

كان جسداً صغيراً لطفلة أكثر بؤساً منها، هو أقرب لكومة من الخرق من كونه جسداً، تظهر منه قدمان صغيرتان حافيتان حمراوان

ملطّختان بالوحل، لأنّ الأسمال التي كانت تحاول أن تتدثّر بها أقصر من أن تغطيها. فوق هذه الأسمال ظهرت كتلة كثّة من الشعر المتشابك، ووجه قذر وعينان واسعتان فارغتان جائعتان.

عرفت سارا أنّهما عينان جائعتان بمجرّد أن رأتهما، واعترتها شفقة مفاجئة.

قالت لنفسها وهي تتنهّد:

«إنها فرد من عامّة الشعب، وهي أكثر جوعاً مني».

حدّقت الطفلة -التي من عامة الشعب- في سارا، وسحبت نفسها قليلاً، لتسمح لها بالمرور. كانت معتادة على أن تفسح الطريق للجميع. وكانت تعلم أنّها لو رآها شرطيّ فسيقول لها «ابتعدي».

شدّت سارا قبضتها على القطعة النقديّة وتردّدت لعدّة ثوانٍ، ثمّ تحدّثت معها. سألتها:

- هل أنتِ جائعة؟

سحبت الطفلة نفسها والخروق التي تغطّيها أكثر، وقالت بصوت متحشرج:

- ألستُ كذلك؟ ألستُ كذلك؟

قالت سارا:

- هل تناولتِ طعام الغداء؟

قالت بصوت متحشرج وهي تسحب خرقها أكثر:

- لا غداء، ولا فطور، ولا عشاء. لا شيء.

سألتها سارا:

- منذ متى؟

- لا أعلم. لم أحصل اليوم على أي شيء، ولا في أيّ مكان. وكنتُ قد تسوّلت كثيراً، سألتُ وسألت...

كان مجرّد النظر إليها يجعل سارا تشعر بمزيد من الجوع والضعف. لكن في عقلها كانت تعتمل تلك الأفكار الغريبة، وكانت تتحدّث مع نفسها، رغم أنّ قلبها كان يتألم.

كانت تقول:

«لو كنتُ أميرة -لو كنت- فالأميرات يشاركن طعامهنّ مع عامّة الشعب عندما يصبحن فقيرات ويُطردن من عروشهنّ، لو صادفن شخصاً أفقر وأكثر جوعاً منهنّ. إنهنّ يشاركن طعامهنّ دائماً. كلّ كعكة ببنس واحد. ولو كان معي نصف شلن لأكلت ست كعكات. لن يكون هذا كافياً لكلينا ولكنّه أفضل من لا شيء».

قالت للطفلة المتسوّلة:

- انتظري لحظة.

ودخلت إلى المخبز، كان دافئاً ورائحته لذيذة. وكانت المرأة على وشك أن تضع كعكات ساخنة جديدة.

قالت سارا:

- لو سمحتِ، هل أضعتِ أربعة بنسات.. قطعة فضية؟

وقدمت القطعة الفضية البائسة لها.

نظرت المرأة إلى القطعة ثمّ إلى وجه حاملتها الصغير المعبّر وأسمالها التي كانت ثياباً فخمة في يوم ما.

أجابت:

- فليباركنا الرب، لا. هل وجدتها؟

قالت سارا:

- أجل. في مجرى تصريف المياه.

قالت المرأة:

- فلتحتفظي بها إذاً. قد تكون بقيت هناك لأسبوع، والرب وحده يعلم من أضاعها. لن تستطيعي إيجاده أبداً.

قالت سارا:

- أعلم، لكن فكّرت أن أسألكِ أولاً.

قالت المرأة وقد بدت عليها الحيرة والاهتمام والطيبة في وقت واحد.

- لن يفعل الكثيرون هذا.

وأضافت عندما رأت سارا تنظر إلى الكعكات:

- هل تريدين شراء شيء؟

قالت سارا:

- أربع كعكات لو سمحتِ، الكعكات التي ببنس واحد للقطعة.

اتّجهت المرأة إلى واجهة المتجر ووضعت بعض الكعكات في كيس ورقيّ.

لاحظت سارا أنّها وضعت ستّ كعكات.

قالت:

- أريد أربع كعكات فقط لو سمحتِ، ليس معي إلّا أربعة بنسات.

قالت المرأة وعلى وجهها تعبير طيبة:

- سأضيف كعكتين لأعادل الميزان، ربّما تستطيعين تناولها في وقتٍ لاحق. ألستِ جائعة؟

أصبحت الرؤية ضبابيّة أمام عيني سارا.

أجابت:

- أجل، أنا جائعة للغاية، وأنا شاكرة لكِ للغاية على لطفك، و..

كانت ستضيف «أن هناك طفلة بالخارج أكثر جوعاً مني». لكن في تلك اللحظة دخل زبونان أو ثلاثة إلى المتجر، وبدت عليهم العجالة، لذا لم تستطع إلّا أن تشكر المرأة من جديد وتخرج.

كانت الطفلة المتسوّلة لا تزال متكوّمة على نفسها في ركن

إحدى الدرجات. بدت محيفة في الخرق المبلّلة التي تحيط بها. كانت تحدّق أمامها مباشرة بنظرة معذّبة غبيّة، ورأتها سارا تمسح عينيها بظهر يدها السوداء الخشنة لتزيل الدموع، وبدت متفاجئة لأنها وجدت طريقاً لتتنزل من بين جفنيها. وأخذت تتمتم لنفسها.

فتحت سارا الكيس الورقيّ وأخرجت إحدى الكعكات الساخنة، التي أدفأت يديها الباردتين.

قالت وهي تضع الكعكة في حضنها:

- خذي، إنّها لذيذة وساخنة. كليها، ولن تشعري بكثير من الجوع.

تفاجأت الفتاة وحدّقت في وجهها، وكأنّ هذا الحظّ المباغت المذهل أخافها، ثمّ اختطفت الكعكة وبدأت تأكلها بقضمات كبيرة نهمة.

سمعتها سارا تقول بصوتها المتحشرج في بهجة بالغة:

- يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!

أخرجت سارا ثلاث كعكات إضافيّة ووضعتها. كان صوت الطفلة المتحشرج الجائع فظيعاً.

قالت لنفسها:

- إنّها أكثر جوعاً منّي، إنّها تتضوّر جوعاً!

لكنّ يدها ارتجفت وهي تضع الكعكة الرابعة، ثمّ قالت وهي تضع الكعكة الخامسة:

- لست أتضور جوعاً.

كانت المتشرّدة اللندنيّة الصغيرة لا تزال تلتهم الكعك عندما استدارت. كانت أكثر جوعاً من أن تقدّم أيّ نوع من الشكر، حتّى لو تعلّمت خلال حياتها الأدب، إلا أنّها لم تتعلم أي شيء. كانت مجرد حيوان بريّ صغير مسكين.

قالت سارا:

- إلى اللقاء.

عندما وصلت إلى الجانب الآخر من الشارع نظرت خلفها. كانت الطفلة تحمل كعكة في كلّ يد وتوقفت في منتصف قضمة لتراقبها. أومأت سارا برأسها، وبعد نظرة طويلة فضولية هزّت الطفلة رأسها الأشعث رداً عليها، وحتى اختفت سارا عن نظرها لم تأكل الفتاة أيّة قضمة أخرى أو تنهي التي بدأتها.

في تلك اللحظة ألقت الخبازة نظرة خارج نافذة المتجر.

هتفت:

- غير معقول! أعطت تلك الفتاة الشابة كعكاتها لطفلة متسوّلة! وليس لأنها لا تحتاج إليها. حسناً، حسناً، لقد بدت جائعة بما فيه الكفاية. أتمنّى أن أعرف لِمَ فعلت ذلك.

وقفت خلف واجهة المتجر لبضع دقائق وفكّرت في الأمر ملياً. لكن فضولها تغلب عليها في النهاية. ذهبت إلى الباب وتحدثت مع الفتاة المتسوّلة.

سألتها:

- من أعطاكِ هذه الكعكات؟

أشارت الفتاة برأسها صوب سارا البعيدة.

أكملت المرأة:

- ماذا قالت؟

أجابت بصوتها المتحشرج:

- سألتني إن كنت جائعة.

- وماذا قلتِ؟

- قلتُ إنّني جائعة.

- ثم دخلت واشترت الكعكات وأعطتها لكِ، صحيح؟

هزت الطفلة رأسها.

- كم عدد الكعكات التي أعطتكِ إياها؟

- خمس.

فكرت المرأة في الأمر ملياً، وقالت بصوت منخفض:

- لم تبقِ لنفسها إلّا واحدة، كان بإمكانها أن تأكل الست كعكات كاملة. رأيتُ هذا في عينيها.

لحقت بعينيها الجسد الصغير المبلل البعيد وشعرت بانزعاج شديد رغم مزاجها الجيد عادة.

قالت:

- أتمنّى لو أنّها لم تغادر بهذه السرعة. فليرحمني الرب إن لم يكن عليّ أن أعطيها دزينة.

ثم استدارت للطفلة وقالت:

- هل مازلتِ جائعة؟

أجابت:

- أنا أشعر بالجوع دائماً، لكنّي لست جائعة بالقدر الذي كنت عليه قبل قليل.

قالت المرأة وهي تمسك بباب المتجر لتبقيه مفتوحاً:

- تعالي، ادخلي.

وقفت الطفلة وجرجرت قدميها إلى الداخل. أمر رائع أن تُدعى لدخول مكان دافئ مليء بالخبز. لم تكن تعرف ماذا سيحصل، ولم تكن تهتمّ حتّى.

قالت المرأة وهي تشير إلى النار المشتعلة في الغرفة الخلفيّة الصغيرة:

- تدفئي. واسمعي، إذا كنت بحاجة لقليل من الخبز تعالي إلى هنا واطلبيه. فليباركني الرب إن لم أعطكِ لأجل تلك الفتاة الصغيرة.

وجدت سارا بعض الراحة في الكعكة المتبقية. على كلّ حال،

كانت ساخنة، وأفضل من لا شيء. كانت تكسر قطعاً صغيرة منها وتأكلها ببطء لتوفّرها لأطول وقت ممكن.

قالت:

- فلنفترض أنّها كعكة سحرية، وقضمة واحدة منها تساوي عشاء كاملاً، سأصاب بالتخمة إذا ما استمرّيت في الأكل على هذا النحو.

كان الظلام قد حلّ عندما وصلت إلى الساحة التي يقع فيها معهد النخبة. وكانت أضواء جميع المنازل مضاءة. لم تكن الستائر قد أُسدلت بعدُ في نوافذ الغرفة التي يُلمح فيها أفراد العائلة الكبيرة عادةً. في هذا الوقت من كلّ مساء يجلس الرجل الذي تدعوه بالسيّد مونتميرنسي على مقعد كبير، وأفراد عائلته يحيطون به وهم يتحدّثون ويضحكون ويجثم بعضهم على ذراع مقعده أو ركبتيه أو يتّكئ عليهما. هذه الليلة كانت عائلته تحيط به، لكنّه لم يكن جالساً. وكان هناك قدر كبير من الانفعال. كان واضحاً أنّ هناك رحلة، وأنّ السيّد مونتميرنسي هو من سيقوم بها. أمام الباب وقفت عربة صغيرة، وقد رُبطت عليها حقيبة سفر كبيرة. كان الأطفال يتدافعون حول أبيهم ويثرثرون ويتعلّقون به. وقفت الأمّ ذات الخدين الأحمرين بجانبه، وتحدثت وكأنّها تراجع معه بعض الأمور لآخر مرة. توقّفت سارا للحظة لترى السيّد مونتميرنسي يرفع الصغار واحداً واحداً ويقبّلهم وينحني على الكبار ويقبّلهم أيضاً.

فكرت:

«أتساءل إن كان سيغيب لوقت طويل، حقيبة السفر كبيرة للغاية. أوه، يا إلهي، سيشتاقون إليه كثيراً! حتّى أنا سأشتاق إليه، حتّى لو كان لا يعرف عن وجودي».

عندما فُتحت الباب ابتعدت سارا قليلاً -لأنها تذكّرت نصف الشلن- لكنها رأت المسافر يخرج ويقف أمام الردهة المضاءة، والأطفال الكبار مازالوا يتحلّقون حوله.

قالت الفتاة الصغيرة جانيت:

- هل موسكو مغطاة بالثلوج؟ وهل سيكون هنالك ثلج في كل مكان؟

قالت الأخرى:

- هل ستركب في الدروشكي[1]؟ هل سترى القيصر؟

أجاب وهو يضحك:

- سأكتب لكم عن كلّ شيء، وسأرسل لكم صور الموجيك[2] وأشياء أخرى. ادخلوا إلى المنزل، إنّها ليلة رطبة شنيعة. كنت سأفضّل البقاء معكم على السفر إلى موسكو. ليلة سعيدة! ليلة سعيدة يا أعزّائي! ليبارككم الربّ!

---

(١) الدروسكي، الدروشكي: عربة مفتوحة منخفضة بعجلات من النوع الذي كان يستخدم سابقًا في روسيا.

(٢) الموجيك: كلمة مستعارة من الروسيّة وتعني (مُزارع روسي)، وقد انتقل المصطلح للّغات الغربيّة من خلال ترجمات الأدب الروسيّ في القرن التاسع عشر.

صاح جاي كلارنس وهو يقفز على دوّاسة الباب:

- بلّغ محبتنا للفتاة الصغيرة حينما تجدها.

ثم دخلوا إلى المنزل وأغلقوا الباب.

قالت جانيت لنورا وهما في طريقهما للغرفة:

- هل رأيت (الفتاة الصغيرة التي ليست متسوّلة) وهي تمرّ؟ لقد بدت مبلّلة ومصابة بالبرد، ورأيتها تستدير وتنظر إلينا. ماما تقول أنّ ثيابها تبدو وكأن شخصاً ثرياً للغاية أعطاها إيّاها، أعطاها إيّاها لأنّها أصبحت أكثر اهتراءً من أن يرتديها. الأشخاص الذين في المدرسة يرسلونها إلى الخارج في أقسى الليالي والأيّام.

قطعت سارا الساحة إلى دهليز مطبخ الآنسة منشن، وهي تشعر بالدوار وجسدها يرتجف.

فكّرت:

«أتساءل من تكون الفتاة الصغيرة.. الفتاة الصغيرة التي ذهب ليبحث عنها».

نزلت الدرجات وهي تسحب سلّتها التي شعرت أنّها ثقيلة للغاية. بينما انطلقت عربة ربّ العائلة الكبيرة بسرعة في طريقها إلى المحطّة ليصعد القطار الذي سيحمله لموسكو، حيث سيبذل كلّ جهده ليبحث عن ابنة النقيب كرو الصغيرة المفقودة.

(١٤)

ما سمعه ملكي صادق ورآه

في عصر هذا اليوم، عندما كانت سارا في الخارج، حدث أمر غريب في العليّة. لم يسمعه أو يره أحد إلّا ملكي صادق، فشعر بالخوف والارتباك وهرول عائداً إلى حفرته واختبأ هناك، ثمّ اختلس النظر بمكرٍ وبحذرٍ شديد وهو يرتعد ويرتعش ليرى ما يجري.

ظلت العليّة هادئة للغاية طوال اليوم منذ أن غادرتها سارا في الصباح الباكر، ولم يكسر هذا الهدوء شيء إلّا وقع قطرات المطر على ألواح السقف والنافذة. شعر ملكي صادق بالملل، وعندما توقف المطر وحل الصمت المطبق من جديد، قرر أن يخرج ويستكشف المكان، رغم أن التجربة علمته أنّ سارا لن تعود إلّا بعد مضيّ بعض الوقت. كان يتجول ويتشمّم يميناً وشمالاً، فوجد -بشكل غير متوقع أو مفسّر- قطعة من الفُتات بقيت من آخر وجبة تناولها، لكن في تلك اللحظة جذب اهتمامه صوت صادر عن سقف العليّة. توقف ليستمع وقلبه يخفق بسرعة. كان الصوت لشيء يتحرك على

سطح العليّة، وهذا الشيء كان يقترب من نافذة السقف، ثمّ وصل إليها. فُتحت النافذة بشكل غامض، وظهر فيها وجه داكن ثمّ ظهر خلفه وجه آخر ونظر كلاهما إلى داخل العليّة في حذر واهتمام. كان هناك رجلان على السقف وكلاهما يستعد بهدوء للدخول عبر النافذة. أحدهما كان رامداس والآخر رجل شاب هو سكرتير السيّد الهنديّ، لكن ملكي صادق لم يكن بالطبع يعرف بهذا. كلّ ما كان يعرفه هو أنّ الرجلين يقتحمان صمت وخصوصية العليّة، وعندما انزلق صاحب الوجه الداكن من الفتحة بخفّة ومهارة دون أن يصدر أيّ صوت، استدار ملكي صادق وهرب بسرعة عائداً إلى حفرته. كان خائفاً حدّ الموت. كان قد تخلّى عن حذره مع سارا، وعرف أنّها لا تُلقي بشيء سوى الفُتات ولا تُصدر صوتاً إلّا الصفير المنخفض الناعم المتودّد، أمّا الرجال الغرباء فمن الخطر أن يبقى قربهم. انبطح قرب باب منزله، قريباً بما يكفي ليختلس النظر بعينيه المذعورتين اللامعتين. لا أعلم كم فهم من الكلام الذي سمعه، لكن حتّى لو فهم كلّ ما قيل، فسيظل على الأغلب محتاراً أشدّ الحيرة.

انزلق السكرتير الذي كان شاباً رشيقاً أبيض البشرة، عبر النافذة بدون أيّ صوت كما فعل رامداس، والتقط لمحة أخيرة لذيل ملكي صادق قبل أن يختفي في الحفرة.

سأل رامداس هامساً:

- هل كان ذلك جرذاً؟

أجاب رامداس همساً أيضاً:

- أجل إنّه جرذ، يا صاحب. هناك الكثير منها داخل الجدران.

صاح الرجل الشاب:

- يا للقرف! أمر عجيب أنّ الطفلة لا تشعر بالرعب منها.

أشار رامداس بيده وابتسم في احترام. كان والحالة هذه، يلعب دور نصير سارا المقرّب، رغم أنّها لم تتحدّث معه إلّا مرّة واحدة.

أجاب:

- هذه الفتاة الصغيرة صديقة لكلّ الأشياء يا صاحب، ليست كالأطفال الآخرين. أنا أراها عندما لا تراني. ففي ليالٍ عديدة أتسلّل عبر ألواح السقف وأنظر إليها لأتأكّد من أنّها بأمان. وأراقبها من نافذتي عندما لا تعرف أنّني بقربها. إنّها تقف على تلك الطاولة وترفع رأسها للسماء وكأنّها تتحدّث معها. وعصافير الدوريّ تجيب نداءها. وقد أطعمَت الجرذ وروّضَته في وحدتها. خادمة المنزل المسكينة تأتي إليها بحثاً عن عزاء. وهناك طفلة صغيرة تزورها سرّاً، وأخرى أكبر سنّاً تحبّها بشدّة وتودّ أن تستمع إلى حديثها للأبد إن أمكنها. هذا ما كنت أراه عندما أتسلّل عبر السقف. سيّدة المنزل -وهي سيّدة شريرة- تعاملها كمنبوذة، لكنّها تملك صبر وجلد من يحمل دماء الملوك!

قال السكرتير:

- يبدو أنّك تعرف الكثير عنها.

أجاب رامداس:

- أعرف ما تفعله في حياتها كلّ يوم، أعرف متى تخرج ومتى تعود، وأحزانها وأفراحها البسيطة، وبردها وجوعها. أعرف عندما تسهر وحيدة حتّى منتصف الليل تدرس كتبها، وأعرف عندما يتسلّل إليها أصدقاؤها السريّون فتبتهج -كما يبتهج الأطفال حتّى في ظلّ الفقر- بقدومهم ويمكنها أن تضحك وتتحدّث معهم همساً. ولو أصابها المرض سأعرف، وسآتي وأخدمها إذا أمكنني فعل ذلك.

- أأنت متأكّد أن لا أحد يأتي إلى هذا المكان غيرها، وأنها لن تعود وتفاجئنا؟ ستشعر بالرعب لو وجدتنا هنا، وستفسد خطّة صاحب كارسفورد.

سار رامداس بخفّة إلى الباب ووقف بقربه، وقال:

- لا أحد يصعد إلى هنا غيرها يا صاحب. لقد خرجت تحمل سلّتها وقد تغيب لعدّة ساعات. لو وقفتُ هنا فسأستطيع سماع صوت خطوات أيّ شخص قبل أن يصل إلى آخر درجات السلّم.

أخرج السكرتير قلم رصاص ودفتر من جيب صدره وقال:

- أبقِ على أذنيك مفتوحتين.

وبدأ يدور ببطء وهدوء في الغرفة الصغيرة البائسة يتفقّد

محتوياتها، وهو يدوّن ملاحظات سريعة في دفتر ملاحظاته. في البداية مضى إلى السرير الضيّق وضغط المرتبة بيده فأصدر صيحة تعجب.

قال:

- إنّها قاسية كالصخر. يجب أن تُبدّل عندما تخرج الفتاة في يوم ما. يمكن أن نقوم برحلة خاصة لجلب المرتبة لكن لا يمكننا فعلها الليلة.

ورفع الغطاء وتفقّد الوسادة الوحيدة الهزيلة، وقال:

- غطاء السرير قذر ومهترئ، والبطانيّة خفيفة، والبياضات مرقّعة ورثّة. يا لهُ من سرير لتنام به طفلة وفي منزل يصف نفسه بالمحترم!

وأدار نظره إلى الموقد الصدئ:

- لم تُشعل نار في ذلك الموقد منذ وقت طويل.

قال رامداس:

- ليس منذ أن رأيته. سيّدة هذا المنزل ليست من النوع الذي يتذكّر أنّ الأشخاص الآخرين قد يشعرون بالبرد أيضاً.

كتب السكرتير بسرعة في دفتره ورفع رأسه وهو يمزّق صفحة من الورق ويضعها في جيب صدره.

قال:

- ستكون هذه طريقة غريبة لتنفيذ الأمر، من خطّط له؟

انحنى رامداس معتذراً باحترام وقال:

- صحيح أنّ الفكرة الأولى كانت لي يا صاحب، إلّا أنّها كانت مجرّد أمنية. لقد أحببت هذه الطفلة، فكلانا وحيد. إنّها تروى خيالاتها لأصدقائها السريّين. وكنت حزيناً ذات ليلة، فاستلقيت قرب نافذتها المفتوحة واستمعت. كانت تصف ما يمكن أن تصبح عليه هذه الغرفة البائسة إذا ما احتوت على وسائل راحة. لقد بدت وكأنّها تراها وهي تتحدّث، وازدادت سروراً وانشراحاً وهي تتكلّم. في اليوم التالي حكيت للصاحب عنها لأسلّيه واشغله عن مرضه وحزنه. لم تبدُ إلّا كحلم لكن الصاحب ابتهج، كان يستمتع بحديثي عمّا تفعله هذه الطفلة. تضاعف اهتمامه بها وبدأ يطرح الأسئلة عنها. وفي النهاية أحبّ فكرة تحقيق خيالاتها في الواقع.

اقترح السكرتير:

- هل تعتقد أنّ بإمكاننا فعل هذا بينما هي نائمة؟ افترض أنّها استيقظت.

كان واضحاً أن هذه الخطة، أياً كانت، أثارت اهتمامه وأعجبته كما أعجبت الصاحب كارسفورد.

أجاب رامداس:

- يمكنني أن أتحرك وكأنّ قدميّ مصنوعتان من المخمل، والأطفال ينامون بعمق.. حتّى التعساء منهم. كان بإمكاني

أن أدخل إلى هذه الغرفة مرّات عديدة في الليل، دون أن أجعلها تنقلب على مخدّتها. ولو ناولني شخص آخر الأشياء عبر النافذة، فسأستطيع فعلها دون أن أقلق نومتها. وعندما ستستيقظ ستظنّ أنّ ساحراً زار المكان.

ابتسم وكأنّ قلبه اختلج سعادة تحت ردائه الأبيض، فردّ السكرتير له الابتسامة.

قال:

- سيكون هذا كقصص ألف ليلة وليلة. هذا شيء لن يخطّط له إلّا شخصٌ شرقيّ، لا ينتمي لضباب لندن.

لم يمكثا لوقت طويل، لحسن حظ ملكي صادق، الذي وإن لم يفهم محادثتهما، شعر بأن حركتهما وهمساتهما منذرة بسوء. فالسكرتير الشاب كان فضولياً. وكتب ملاحظات عن الأرض، والموقد، ومسند القدمين المكسور، والطاولة القديمة، والجدران التي ظل يلمسها بيده مراراً وتكراراً، وبدا سعيداً عندما وجد أن هناك عدداً من المسامير مثبتة في مواضع مختلفة.

قال:

- يمكنك أن تعلّق عليها أشياء.

ابتسم رامداس بغموض، وقال:

- عندما خرجَت الفتاة بالأمس، دخلتُ أنا حاملاً معي مسامير صغيرة حادة يمكن كبسها في الجدار بدون ضربات

مطرقة. ثبتُّ عدداً كبيراً منها في القار في المواضع التي قد أحتاجها فيها. إنّها جاهزة.

وقف سكرتير السيّد الهنديّ في مكانه بهدوء وهو يدسّ دفتره داخل جيب صدره.

قال:

- أعتقد أنّ الملاحظات التي كتبتها كافية، يمكننا أن نغادر الآن. قلب الصاحب كارسفورد طيب. من المؤسف أنّه لم يجد الفتاة المفقودة.

قال رامداس:

- لو وجدها فستعود إليه قوّته. قد يقودها ربّه إليه في النهاية.

ثم خرجا من نافذة السقف بدون صوت كما دخلا. شعر ملكي صادق براحة عظيمة عندما تأكّد من مغادرتهما المكان، وفي غضون بضع دقائق شعر بالأمان بما فيه الكفاية كي يخرج من فتحته مجدداً ويتجوّل في المكان على أمل أنّ البشر، وحتى المخيفين منهم كهؤلاء، يحملون فتات في جيوبهم ويسقطون قطعة أو اثنتين منها على الأرض.

(١٥)
السحر

عندما عبرت سارا أمام المنزل المجاور رأت رامداس يغلق مصاريع النوافذ، والتقطت لمحة لما بداخل هذه الغرفة أيضاً.

خطر ببالها:

«مرّ وقت طويل لم أكن فيه داخل غرفة جميلة».

كانت النار تتوهج في الموقد كالعادة، والسيّد الهنديّ يجلس أمامها، متكئاً على راحة يده، وبدا وحيداً وتعيساً كما هو شأنه دائماً.

قالت سارا:

- أيّها الرجل المسكين! أتساءل ماذا تفترض.

وهذا ما كان (يفترضه) في تلك اللحظة.

كان يفكر:

«فلنفترض، فلنفترض -حتى لو استطاع كارمايكل تتبّع أولئك الأشخاص إلى موسكو- أنّ الفتاة التي أخذوها من مدرسة

مدام باسكال في باريس ليست هي التي نبحث عنها. فلنفترض أنّها طفلة مختلفة. ماذا سأفعل عندها؟».

حين دخلت سارا إلى المنزل قابلت الآنسة منشن، التي نزلت إلى الطابق السفليّ لتوبخ الطبّاخة.

قالت لها:

- أين كنتِ تضيّعين وقتك؟ بقيتِ في الخارج لساعات.

أجابت سارا:

- الشوارع مبلّلة وموحلة للغاية، وحذائي تالف لذا كان ينزلق هنا وهناك فيغدو السير صعباً.

قالت الآنسة منشن:

- لا تختلقي الأعذار ولا تلفّقي الأكاذيب.

دخلت سارا حيث الطبّاخة، التي كانت بدورها قد تلقّت محاضرة قاسية فأصبح مزاجها مخيفاً. لذا ابتهجت لوجود شخص تستطيع التنفيس عن غضبها فيه، وكانت سارا الشخص المناسب، كالعادة.

صرخت:

- ولماذا لم تبقي خارجاً طوال الليل؟

وضعت سارا المشتريات على الطاولة وقالت:

- ها هي الأغراض.

تفقّدت الطبّاخة المشتريات وهي تتذمّر. كانت في حالة مزاجيّة همجية للغاية.

سألتها سارا بضعف:

- هل لي بشيء لأتناوله؟

وكانت الإجابة:

- لقد انتهى وقت تناول الشاي. هل توقّعتِ مني أن أبقيه ساخناً لأجلك؟

وقفت سارا بصمت لعدّة ثوانٍ، ثمّ قالت بصوت خفيض للغاية:

- أنا لم أتناول طعام الغداء.

وقد أبقته خفيضاً لأنها خافت أن يرتعش وهي تتحدّث.

قالت الطبّاخة:

- هناك بعض الخبز في حجرة المؤونة، وهذا هو كلّ ما ستحصلين عليه في هذا الوقت من اليوم.

ذهبت سارا وتناولت الخبز. كان قديماً ومتصلّباً وجافاً. وكان مزاج الطبّاخة أسوأ من أن تعطيها شيئاً لتأكله معه، فلطالما وجدت أن تنفيس غضبها على سارا آمن وسهل. عانت الطفلة وهي تصعد السلالم الثلاثة الطويلة المؤدية لعليّتها. وكانت تجد أن هذه السلالم تغدو طويلة وشديدة الانحدار عندما تكون متعبة، لكن هذه الليلة

شعرت أنّها لن تصل إلى الطابق العلويّ أبداً، واضطرت للتوقّف عدّة مرّات لترتاح. عندما وصلت إلى بسطة السلّم الأخيرة، ابتهجت لرؤية وهج ضوء قادم من أسفل باب غرفتها. كان هذا يعني أن إرمينغارد استطاعت أن تتسلّل لتزورها. أحسّت ببعض الراحة، فهذا أفضل من أن تدخل الغرفة وحدها لتجدها فارغة وكئيبة. فمجرد وجود إرمينغارد البدينة المسليّة ملتفة بشالها الأحمر سيُزيد من دفء الغرفة.

أجل، كانت إرمينغارد تجلس هناك عندما فتحت الباب. كانت تجلس في منتصف السرير وساقاها مطويّتان تحتها، فهي لم تستطع تكوين علاقة حميمة مع ملكي صادق وعائلته أبداً، رغم أنهم استمالوها. فأصبحت تفضّل الجلوس على السرير عندما تجد نفسها وحيدة في العليّة حتّى تصل سارا. وهذه المرة بالذات شعرت بالتوتّر لأن ملكي صادق ظهر وتجوّل في المكان وتشمّمه لوقت طويل، وجعلها تطلق صيحة مكبوتة في إحدى المرّات حين جلس على قائمتيه الخلفيّتين وهو ينظر إليها، وأخذ يتشمّم الهواء في اتجاهها.

صاحت:

- أوه، سارا. سعيدة لأنّكِ أتيت. ملكي يتشمّم المكان كثيراً. حاولت أن أُقنعه بالعودة إلى حفرته، لكنّه لم يعد، وبقي لوقت طويل. تعلمين أنّني أحبّه، لكنّني أشعر بالذعر عندما يتشمّم الهواء في اتجاهي مباشرة. هل تعتقدين أنّه ربما سيقفز؟

أجابت سارا:

- كلّا.

زحفت إرمينغارد على السرير واقتربت لتلقي نظرة أفضل عليها.

قالت:

- تبدين متعبة يا سارا، أنت شاحبة للغاية.

قالت سارا وهي تلقي بجسدها على مسند القدمين المائل:

- أنا كذلك. أوه، ها هو ملكي صادق، المسكين. أتى يطلب عشاءه.

خرج ملكي صادق من حفرته وكأنّه كان يتتبّع صوت خطواتها. كانت سارا متأكّدة من أنّه يميّزها. وتقدّم وعلى سيماه تعبير مُحبّ مُترقب، بينما وضعت سارا يدها في جيبها وقلبته إلى الخارج، وهي تهزّ رأسها.

قالت:

- أنا آسفة جداً. لم يتبقّ معي أيّ فتات. اذهب إلى منزلك يا ملكي صادق، وخبّر زوجتك أن ليس هناك شيء في جيبي. أخشى أنّني نسيت لأن مزاج الآنسة منشن والطبّاخة كان متعكراً.

بدا أنّ ملكي صادق فهم ما قالته، وعاد مستسلماً أو بالأصح قانعاً إلى منزله.

قالت سارا:

- لم أتوقّع رؤيتكِ الليلة، إرمي.

شدّت إرمينغارد الوشاح الأحمر حول نفسها وفسّرت لها:

- ذهبت الآنسة أميليا لتمضي الليلة مع عمّتها العجوز. لا أحد غيرها يأتي لتفقّد غرف النوم بعد أن نذهب للفراش. يمكنني أن أبقى هنا حتّى الصباح.. إن راق لك ذلك.

ثم أشارت بكآبة إلى الطاولة التي أسفل نافذة السقف. لم تنظر سارا إليها عندما دخلت، كان هناك عدد من الكتب مكوّمة فوقها.

قالت:

- بابا أرسل لي المزيد من الكتب يا سارا، ها هي هنا.

نظرت سارا حولها ثمّ نهضت على الفور. أسرعت إلى الطاولة، والتقطت الكتاب الذي في أعلى الكومة، وقلّبت صفحاته بسرعة. نسيت للحظة شعورها بالتعب.

صاحت:

- آه، يالجماله! تاريخ الثورة الفرنسيّة بقلم توماس كارليل. كنت أتحرّق شوقاً لأقرأه!

قالت إرمينغارد:

- أمّا أنا فلا، وسيغضب أبي إذا لم أقرأها. سيتوقّع منّي أن أعرف محتواها عندما أعود إلى المنزل لقضاء العطلة. ماذا يجب أن أفعل؟

توقفت سارا عن تقليب الصفحات ونظرت إليها وقد احمرّ خدّاها من الحماس.

هتفت:

- انظري، إذا أعرتِني هذه الكتب، سأقرأها وأخبرك بكلّ ما فيها فيما بعد. وسأرويها لكِ بطريقة تجعلكِ تتذكّرينها أيضاً.

صاحت إرمينغارد:

- أوه، يا إلهي! هل تستطيعين؟

أجابت سارا:

- أنا على يقين من أنّني أستطيع. الفتيات الصغيرات يتذكّرن ما أرويه لهنّ دائماً.

قالت إرمينغارد ووجهها المستدير يشعّ بالأمل:

- سارا، إذا كنتِ ستفعلين هذا، وتجعلينني أتذكّر، سأعطيكِ أيّ شيء تريدينه.

قالت سارا:

- لا أريدكِ أن تعطيني أيّ شيء. أريد كتبكِ.. أريدها!

ثم اتّسعت عيناها واختلج صدرها.

قالت إرمينغارد:

- خذيها إذن. أتمنّى لو كنت أريدها.. لكنني لا أريدها. لست ذكيّة، وأبي ذكيّ، لذا يعتقد أنّني يجب أن أصبح مثله.

فتحت سارا الكتاب تلو الآخر، ثمّ سألتها وشكّ طفيف يراود ذهنها:

- ماذا ستقولين لوالدك؟

أجابت إرمينغارد:

- أوه، ليس عليه أن يعرف بالأمر، سيعتقد أنّني قرأتها بنفسي.

وضعت سارا الكتاب وهزّت رأسها ببطء وقالت:

- هذا كالكذب تقريباً، والكذب ليس أمراً شرّيراً فحسب، بل مبتذل أيضاً. أحياناً أفكّر أنّني سأُقدم على فعل أشياء شريرة، كأن أصاب بنوبة غضب وأقتل الآنسة منشن، تعرفين، عندما تسيء معاملتي، لكن لا يمكن أن أصبح مبتذلة. لم لا تستطيعين إخبار والدك أنّني أنا من سيقرؤها؟

قالت إرمينغارد وقد خاب أملها قليلاً بهذا التحوّل المفاجئ في الحال:

- إنّه يرغب في أن أقرأها أنا.

قالت سارا:

- بل يرغب في أن تعرفي محتواها، ولو استطعتُ أن أحكيه لكِ بطريقة بسيطة تجعلكِ تتذكّرينها، فأعتقد أنّه سيحبّ هذا.

قالت إرمينغارد بحزن:

- سيحب أن أتعلّم أيّ شيء بأيّة طريقة كانت، كنتِ ستشعرين بنفس الطريقة لو كنت والدي.

قالت سارا:

- ليس خطؤكِ أنّكِ..

ثمّ تراجعت وسكتت فجأة. كانت ستقول «ليس خطؤكِ أنّكِ غبية».

سألتها إرمينغارد:

- أنّني ماذا؟

عدّلت سارا كلماتها:

- أنّكِ لا تستطيعين تعلّم الأشياء بسرعة، إذا كنتِ لا تستطيعين فأنتِ لا تستطيعين. وإذا كنتُ أستطيع.. يا للعجب، فأنا أستطيع، هذا كلّ ما في الأمر.

لطالما كانت سارا تشعر بالتعاطف مع إرمينغارد، وحاولت أن لا تُشعرها بالفرق الكبير بين أن تكون قادراً على تعلّم أي شيء فوراً، وأن لا تستطيع تعلّم أيّ شيء على الإطلاق. وخطرت ببالها إحدى أفكارها الحكيمة الحصيفة وهي تنظر لوجهها السمين.

قالت:

- ربّما القدرة على تعلّم الأشياء بسرعة ليست هي الأهم. أن تكوني لطيفة مع الآخرين هذا هو الأهم. لو كانت الآنسة

منشن تعرف كلّ شيء على سطح الأرض وهي على ما هي عليه الآن، فستظل مخلوقة كريهة. الكثير من الأشخاص الأذكياء كانوا أشراراً وتسبّبوا بالأذى. انظري إلى روبسبير[1].

وتوقّفت وتفحّصت وجه إرمينغارد، الذي بدت عليه الحيرة، سألتها:

- ألا تتذكّرين؟ حكيت لكِ عنه قبل فترة قصيرة. أعتقد أنّكِ نسيتِ.

اعترفت إرمينغارد:

- حسناً، لا أتذكر كلّ شيء عنه.

قالت سارا:

- حسناً، انتظري لحظة، سأخلع ثيابي المبلّلة وألفّ نفسي بالغطاء وأحكي لكِ عنه من جديد.

خلعت سارا قبعتها ومعطفها وعلّقتهما على مسمار في الجدار، وبدّلت حذاءها بخفّ قديم. ثمّ قفزت على السرير ودثّرت كتفيها بالغطاء وأحاطت ركبتيها بذراعيها، وقالت:

- والآن، أنصتي.

ثمّ غاصت في تاريخ الثورة الفرنسية الدمويّ، وأخذت تحكي

---

(١) ماكسميليان روبسبير: محامي وسياسي فرنسي، أصبح من الشخصيات البارزة في فترة الثورة الفرنسية. تسبب في إعدام عدد كبير من زعماء الثورة ومناصريها وصل عددهم إلى ستة آلاف شخص في ستة أسابيع، فسمي عهده بعهد الإرهاب.

قصصاً جعلت إرمينغارد تحبس أنفاسها وتفتح عينيها على وسعهما ذعراً. ورغم أنّها كانت تشعر بالرعب إلّا أنّها أحست بلذّة مثيرة وهي تستمع لهذه القصص، وهي على الأغلب لن تنسى روبسبير مجدداً، أو تحتار في أمر أميرة دي لومبال[1].

شرحت سارا:

- تعرفين أنّهم رفعوا رأسها على رمح ورقصوا حوله، كانت تملك شعراً ذهبياً جميلاً مسترسلاً، وعندما أفكّر فيها، لا أرى رأسها على جسدها أبداً، بل على رمح، وحشود الأشخاص الغاضبين تصيح وترقص حوله.

وهكذا اتفقتا على أن تخبر إرمينغارد السيّد سانت جون بالخطة التي وضعتاها، وأن تبقى الكتب في العليّة في الوقت الحالي.

قالت سارا:

- فلنتبادل الآن الأخبار، كيف تسير دروس اللغة الفرنسية معك؟

- أفضل بكثير من آخر مرّة أتيتُ فيها إلى هنا وشرحتِ لي أدوات الربط، لم تتمكن الآنسة منشن من أن تفهم كيف قمتُ بحلّ التمارين بشكل صحيح ذلك الصباح.

---

(١) أميرة دي لومبال: كانت صديقة ماري انطوانيت الأثيرة، خلال مذابح سبتمبر هوجم السجن الذي كانت تقبع فيه وقتلت طعناً بعد محاكمة قصيرة. ثمّ قطع رأسها وعرض على رمح في أرجاء المدينة وأسفل نافذة ماري انطوانيت في سجن تمبل.

ضحكت سارا ضحكة قصيرة وأحاطت ركبتيها بذراعيها. قالت:

- كما أنّها لا تفهم كيف تمكّنت لوتي من عمليات جمع الأرقام بشكل جيّد، لكن هذا لأنها تتسلّل إلى هنا لأساعدها.

ونظرت حولها في الغرفة. وقالت:

- كانت العليّة ستكون لطيفة لو لم تكن كئيبة للغاية.

ثمّ أكملت وهي تضحك من جديد:

- إنّها مكان يصلح تماماً للتظاهر.

الحقيقة هي أنّ إرمينغارد لم تكن تعرف شيئاً عن الجانب الذي لا يحتمل أحياناً من الحياة في العليّة، ولم تكن تمتلك مخيلة واسعة بما يكفي لتتصوّره بنفسها. وفي المرّات القليلة التي تصل فيها إلى غرفة سارا لم تكن ترى إلّا الجانب المثير الذي «تتظاهر» به والقصص التي تحكيها، فكانت زياراتها تشبه المغامرات. ورغم أنّ سارا كانت تبدو شاحبة في بعض الأوقات، ولا يمكن إنكار أنّها أصبحت هزيلة للغاية، إلّا أن كبرياءها لم يكن يسمح لها بالتذمر. لم تعترف أبداً أنه قد مرّت عليها أوقات كانت تتضور فيها جوعاً، مثل هذه الليلة. كانت تنمو بسرعة، والسير والركض المستمرّان كانا سيجعلان شهيّتها قويّة حتّى لو كانت تتناول وجبات كبيرة منتظمة مغذّية بدلاً من الطعام الرديء المنفّر الذي تختطفه في أوقات متفاوتة حسب ظروف المطبخ. وبدأت تعتاد على شعور دائم بالفراغ في معدتها الصغيرة.

كانت دائماً ما تقول لنفسها:

«أفترض أنّ الجنود يشعرون بنفس الشيء خلال الزحف الطويل المتعب».

وكانت تحبّ جملة (الزحف الطويل المتعب) كونها تُشعرها بأنها جنديّة. كما كان لديها إدراك غريب بكونها مضيّفة في العليّة.

كانت تناقش نفسها:

«لو كنت أعيش في قلعة، وإرمينغارد سيّدة قلعة أخرى أتت لزيارتي، وبرفقتها الفرسان والمرافقون والأتباع، يحملون الرايات المرفرفة، فسأنزل لاستقبالها عندما أسمع أصوات الأبواق عند الجسر المتحرّك، وسأقيم مأدبة في قاعة الاحتفالات وأحضر الموسيقيّين ليغنّوا ويمثّلوا ويحكوا القصص الرومانسيّة. لا أستطيع إقامة مأدبة عندما تأتي لزيارتي في العليّة، لكن يمكنني أن أروي القصص، وأخفي عنها الأمور المزعجة. لابد أن ربّات المنازل فعَلن هذا في أوقات المجاعات، عندما كانت أراضيهنّ تُنهب».

كانت هي نفسها ربّة منزل شجاعة فخورة، تقدّم لضيوفها بسخاء، الضيافة الوحيدة التي تستطيع توفيرها، وهي الأحلام التي تحلمها، والرؤى التي تراها، والخيالات التي تعزّيها وتبهجها.

لذا، وبينما كانت تجالسها، لم تكن إرمينغارد تعرف أنّها تشعر بالوهن والجوع، وأنّها تتساءل بين حين وآخر وهي تتحدّث إذا ما كانت ستستطيع النوم رغم إحساسها بالجوع عندما تُترك وحدها. بدا لها أنّها لم تشعر بهذا الجوع الشديد من قبل.

قالت إرمينغارد فجأة:

- أتمنّى لو كنتُ نحيلة مثلكِ يا سارا. أعتقد أنّكِ أصبحت أنحل من السابق. عيناك تبدوان كبيرتين، وانظري إلى العظام الصغيرة الحادّة التي تبرز من مرفقك!

سحبت سارا كمّها الذي كان قد ارتفع إلى الأعلى من تلقاء نفسه، وقالت بشجاعة:

- لطالما كنت طفلة نحيلة، ولطالما امتلكت عينين كبيرتين خضراوين.

قالت إرمينغارد وهي تنظر إلى عينيها بإعجاب ومحبة:

- أحبّ عينيكِ الغريبتين، تبدوان دوماً وكأنّهما شهدتا طريقاً طويلاً. أحبّهما وأحبّ لونهما الأخضر رغم أنّهما تبدوان سوداوين في أغلب الأوقات.

ضحكت سارا:

- إنّهما كعيون القطط، لكنّني لا أستطيع الرؤية في الظلام بهما، حاولت ولم أستطع. أتمنّى لو كنت أستطيع.

في تلك اللحظة حدث شيء خارج نافذة السقف لم تره أيّ منهما، ولو أنّ إحداهما استدارت ونظرت لتفاجأت بمنظر وجه داكن يسترق النظر إلى الغرفة في حذر ثمّ يختفي بسرعة وبنفس الهدوء الذي ظهر به تقريباً. لكن ليس بنفس الهدوء تماماً. كانت سارا تملك أذنين مرهفتين، فاستدارت قليلاً ونظرت إلى السقف.

قالت:

- هذا ليس صوت ملكي صادق، ليس به ما يكفي من الصرير.

قالت إرمينغارد وقد تفاجأت قليلاً:

- ماذا؟

سألتها سارا:

- ألم تسمعي صوتاً؟

تلعثمت إرمينغارد:

- لا.. لا. هل سمعتِ أنتِ شيئاً؟

قالت سارا:

- ربّما كنت أتوهّم، لكنّ أظن أنّني سمعتُ صوتاً، بدا كشيء يتحرّك على ألواح السقف. شيء يتسحّب بهدوء.

قالت إرمينغارد:

- ماذا يمكن أن يكون؟ أيمكن أن يكونوا لصوصاً؟

قالت سارا بمرح:

- لا، ما من شيء هنا يدعو للسرقة..

توقفت سارا في منتصف جملتها، فقد سمعت كلا الفتاتين الصوت الذي لاحظته سابقاً، لكنّه لم يكن على ألواح السقف، بل أسفل السلّم، وهو صوت الآنسة منشن الغاضب. قفزت سارا من على السرير وأطفأت الشمعة.

همست من مكانها في الظلام:

- إنها توبّخ بيكي، ستدفعها للبكاء.

همست إرمينغارد وقد تملّكها الرعب:

- هل ستأتي إلى هنا؟

- لا، ستعتقد أنّني في الفراش. لا تخافي.

يندر أن تصعد الآنسة منشن السلّم الأخير المؤدي لطابق العليّة. لم تتذكر سارا إلّا مناسبة واحدة فعلت فيها هذا. لكن يبدو أنّها كانت غاضبة بما يكفي الآن كي تصعد إلى منتصف السلّم، وبدا أنّها تدفع بيكي أمامها.

سمعتاها تقول:

- أيتها الطفلة الوقحة المخادعة! الطبّاخة أخبرتني أنّها تفقد الأشياء من المطبخ باستمرار.

قالت بيكي وهي تبكي:

- لستُ أنا يا سيدتي. كنت جائعة ولكنني لم آخذ أي شيء.. أبداً!

قالت الآنسة منشن:

- تستحقين أن تُرسلي إلى السجن. تسرقين وتنهبين! نصف فطيرة لحم كاملة!

بكت بيكي:

- لم أفعل ذلك. كان بمقدوري أن آكل فطيرة كاملة، لكنني لم أضع إصبعاً عليها.

كانت أنفاس الآنسة منشن قد انقطعت بين الغضب وصعود السلالم. وكانت الفطيرة مجهّزة لأجل عشائها المتأخّر الخاصّ. وبدا واضحاً من الصوت أنّها قرصت أذني بيكي.

قالت:

- كفاكِ كذباً. اذهبي إلى غرفتك الآن.

كلٌّ من سارا وإرمينغارد سمعتا صوت صفعة، ومن ثم صوت بيكي وهي تركض بحذائها المهترئ على درجات السلّم وتدخل عليّتها، وسمعتا صوت بابها يغلق، وعلمتا أنّها ألقت بنفسها على سريرها.

سمعتاها تقول باكية ووجهها مدفون في وسادتها:

- كان بمقدوري أن آكل فطيرتين، لكنّي لم آكل ولا حتّى قضمة. إنّها الطبّاخة تعطي الفطائر لزوجها الشرطيّ.

وقفت سارا في منتصف الغرفة في الظلام. كانت تصكّ على أسنانها الصغيرة وتقبض وتفرد يديها الممدودتين. بالكاد حافظت على هدوئها، لكنها لم تجرؤ على التحرك حتّى نزلت الآنسة منشن السلالم وعاد الهدوء للمكان.

انفجرت:

- يالها من مخلوقة قاسية شرّيرة! الطبّاخة تأخذ الأشياء وتقول

أن بيكي تسرقها. إنّها لا تسرق! لا تسرق! أحياناً تكون جائعة لدرجة أنّها تأكل كِسر الخبز من برميل الرماد!

أخفت سارا وجهها بكلتا يديها وانفجرت في نوبة بكاء قصيرة. أمّا إرمينغارد فقد شعرت بالرهبة لأنّها شهدت هذا. سارا تبكي! سارا التي لا تُقهر! بدا أنّ هذا يدلّ على شيء جديد؛ حالة مزاجية لم تعرفها من قبل. فلنفترض -فلنفترض- أنّ احتمالاً مخيفاً جديداً ظهر في عقلها الصغير البطيء اللطيف فجأة. زحفت من فوق السرير في الظلام ووجدت طريقها إلى الطاولة التي كانت عليها الشمعة. قدحت عود كبريت وأشعلت الشمعة. عندما أشعلتها، انحنت للأمام وتفقّدت سارا، والفكرة الجديدة التي تعكس في رأسها ذعراً حقيقيّاً على عينيها.

قالت بصوت خجول يكاد أن يكون مصعوقاً من الدهشة:

- سارا، هل.. هل.. لم تخبريني من قبل.. لا أريد أن أكون وقحة، لكن.. هل تشعرين بالجوع أحياناً؟

كان ذلك كثيراً للغاية في تلك اللحظة، فانهار الحاجز. رفعت سارا رأسها من بين يديها وقالت بطريقة منفعلة لم ترها من قبل:

- أجل، أجل، أنا كذلك. أنا جائعة الآن لدرجة أنّني أستطيع أكلكِ أنتِ. ويزداد الأمر سوءاً عندما أسمع بيكي المسكينة. إنّها أكثر جوعاً مني.

شهقت إرمينغارد في حزن:

- أوه، أوه! أنا لستُ على علمٍ بهذا، أبداً!

قالت سارا:

- لم أكن أريدك أن تعرفي، لأن هذا سيُشعرني بأنني كأيّ من متسوّلي الشوارع. أعلم أنّني أبدو مثلهم.

هتفت إرمينغارد:

- لا، لستِ كذلك.. لست كذلك! ثيابك غريبة قليلاً.. لكن لا يمكن أن تكوني كمتسوّلي الشوارع. وجهك لا يشبه وجوه متسوّلي الشوارع.

قالت سارا وهي تضحك ضحكة قصيرة رغماً عنها:

- ذات مرّة أعطاني طفل صغير نصف شلن كصدقة.

وسحبت الشريط النحيل من حول رقبتها:

- ها هو ذا. لم يكن ليعطيني نصف الشلن الخاص به في عيد الميلاد لو لم أبدُ أنّني في حاجة إليه.

كان مظهر نصف الشلن الصغير العزيز حسِناً لكلتيهما. فدفعهما للضحك قليلاً رغم أنّ الدموع كانت لا تزال في أعينهما.

سألتها إرمينغارد وهي تتفقّده وكأنّه ليس مجرد نصف شلن عادي:

- من هو الطفل؟

قالت سارا:

- إنّه طفل صغير لطيف كان في طريقه لحضور حفل. وهو أحد أبناء العائلة الكبيرة، الصبيّ الصغير ذو الساقين السمينتين والذي أدعوه جاي كلارنس. أعتقد أنّ غرفة الحضانة الخاصة به مكتظّة بهدايا عيد الميلاد وسلال الكعك والأشياء الأخرى، ورأى أنّي لا أملك شيئاً.

ارتعدت إرمينغارد وتراجعت إلى الخلف. الجملة الأخيرة ذكّرت عقلها المضطرب بشيء وأعطتها إلهاماً مفاجئاً.

صاحت:

- أوه، سارا! يا لي من فتاة سخيفة لأنّني لم أفكّر فيه!

- في ماذا؟

قالت إرمينغارد في حماس وعجلة:

- شيء رائع! في ما بعد ظهيرة اليوم أرسلت لي ألطف عمّاتي صندوقاً. وهو مليء بالأشياء اللذيذة. لم ألمسه، لأنني تناولت الكثير من المهلبيّة على الغداء، وكنت منزعجة للغاية من كُتب أبي.

وأخذت كلماتها تتعثر فوق بعضها:

- بداخله كعك، وفطائر لحم صغيرة، وفطائر مربى وفطائر متنوعة، وبرتقال وشراب زبيب أحمر، وتين وشوكولا. سأتسلّل إلى غرفتي وأحضره في هذه اللحظة وسنتناوله معاً.

كاد أن يغمى على سارا. أحياناً عندما تشعر بدوار من شدّة الجوع يصبح لذكر الطعام تأثير مثير للاهتمام عليك. تشبّثت بذراع إرمينغارد.

هتفت:

- هل تعتقدين.. هل يمكنكِ؟

قالت إرمينغارد وهي تسرع إلى الباب:

- أعلم أنّني أستطيع.

فتحت الباب بهدوء، وأخرجت رأسها في الظلام مُصغية. ثمّ عادت إلى سارا وقالت:

- لقد أُطفئت الأنوار، وخلد الجميع إلى لنوم. يمكنني أن أتسلّل دون أن يسمع أحد.

كان هذا مبهجاً لدرجة أنّهما أمسكتا بأيدي بعضهما، وبرقت عينا سارا بنور مفاجئ.

قالت:

- إرمي! لنتظاهر! لنتظاهر بأن هذه حفلة! أوه، ألن تدعي السجينة التي في الزنزانة المجاورة؟

- أجل! أجل! لندقّ على الجدار الآن. لن تسمعنا آمرة السجن.

اقتربت سارا من الجدار، فاستطاعت أن تسمع من خلاله صوت بيكي وهي تبكي بصوت منخفض. دقّت عليه أربع مرّات موضّحة:

- هذه تعني تعالي لزيارتي من خلال الممر السريّ أسفل الجدار. لديّ ما أقوله لك.

جاءت الإجابة على شكل خمس دقّات.

قالت:

- إنّها قادمة.

وفي اللحظة نفسها فُتح باب العليّة وظهرت بيكي. كانت عيناها حمراوين وقلنسوّتها مائلة، عندما رأت إرمينغارد بدأت تمسح وجهها بمريلتها في توتّر.

صاحت إرمينغارد:

- لا عليكِ مني يا بيكي!

قالت سارا:

- لقد دعتك الآنسة إرمينغارد لأنها ستُحضر صندوقاً مليئاً بالأشياء اللذيذة إلى هنا.

كادت أن تسقط القلنسوة من على رأس بيكي من شدة الحماس الذي أصابها.

قالت:

- لنأكلها يا آنسة؟ أشياء لذيذة لنأكلها؟

أجابت سارا:

- أجل، وسنتظاهر بأنها حفلة.

أضافت إرمينغارد:

- يمكنكما أن تأكلا بقدر ما تريدان، سأذهب لأحضره الآن!

كانت في عجلة من أمرها فسقط شالها الأحمر دون أن تنتبه حين تسلّلت خارجة من العليّة على أطراف أصابع قدميها. ولم ينتبه له أحد لعدّة دقائق. بيكي كانت مصعوقة بهذا الحظّ الجيّد الذي سقط عليها فجأة.

شهقت:

- أوه، يا آنسة! أوه، يا آنسة! أعرف أنّكِ التي طلبتِ منها دعوتي. أشعر أنّني.. أنّني سأبكي حين أفكّر في هذا.

ووقفت إلى جانب سارا وهي تنظر إليها بتبجيل.

توهّج في عيني سارا الجائعتين ذلك الضوء القديم، وبدأ يحوّل لها عالمها. فهنا، في هذه العليّة المحاطة بالليل البارد؛ حصل هذا الشيء البسيط المبهج وكأنّه سحر، وهي التي مرّت بشقاء ما بعد ظهيرة قضتها في الشوارع الزلقة، ومازالت في بالها ذكرى النظرة الفظيعة الجائعة في عيني الطفلة المتسوّلة.

التقطت سارا أنفاسها، وصاحت:

- بطريقة ما، دائماً ما يحدث شيء قبل أن تصل الأمور إلى الأسوأ. وكأنّه من فعل السحر. فقط لو كان لي أن أضع هذا بحسباني طوال الوقت، الأسوأ لا يحدث أبداً.

أمسكت ببيكي وهزّتها هزّة خفيفة، وقالت في ابتهاج:

- لا، لا! يجب ألّا تبكين! علينا أن نعجّل في تجهيز الطاولة.

قالت بيكي وهي تحملق حولها في الغرفة:

- نجهّز الطاولة يا آنسة؟ نجهّزها بماذا؟

حملقت سارا حولها بدورها، وأجابت نصف ضاحكة:

- يبدو أنّنا لا نملك الكثير.

لكن في تلك اللحظة لمحت شيئاً وانقضّت عليه. كان شال إرمينغارد الأحمر الملقى على الأرض.

هتفت:

- هاهو الشال، أعرف أنّها لن تمانع. سيكون مفرش طاولة أحمر جميل.

سحبتا الطاولة القديمة إلى الأمام، ووضعتا الشال عليها. الأحمر لون جميل ومريح، وقد جعل الغرفة على الفور تبدو وكأنّها مؤثثة.

هتفت سارا:

- ستبدو أرضية الغرفة رائعة لو كانت عليها سجّادة حمراء! لنتظاهر بأنّ هناك واحدة!

وألقت نظرة سريعة على الألواح العارية في إعجاب، ومن ثم، ها هي ذي السجّادة قد مُدّت على الأرض.

قالت وهي تطلق ضحكة قصيرة تعرف بيكي معناها:

- إنّها سميكة وناعمة للغاية!

رفعت قدمها ووضعتها من جديد بنعومة وكأنّها تتحسّس شيئاً تحتها.

أجابت بيكي وهي تراقبها بسرور بالغ، فلطالما كانت مشاعرها قوية:

- نعم يا آنسة.

قالت سارا:

- وماذا بعد؟

ووقفت ساكنة وقد غطت عينيها بيديها، ثمّ قالت بصوت ناعم مترقّب:

- ستخطر في بالي فكرةٌ ما، إن فكّرت وانتظرت قليلاً، سيخبرني السحر.

إحدى خيالاتها المفضلة كانت أنّ الأفكار توجد في (الخارج)، هكذا تسمّيه، في انتظار دعوة الناس لها لتستجيب. رأتها بيكي تقف وتنتظر مرّات عديدة من قبل، وعرفت أنّها ستكشف يديها عن وجه مبتهج ضاحك خلال ثوان.

وفعلت ذلك بعد دقيقة.

صاحت:

- عرفت! لقد أتت! أعرف الآن! يجب أن أبحث في محتويات الصندوق القديم الذي كنت أمتلكه عندما كنت أميرة.

أسرعت إلى ركن الغرفة وجثمت على ركبتيها. لم يوضع هذا الصندوق في العليّة لأجلها، بل لأنّه لم يكن هناك مكان آخر له. وهو لم يبق بداخله شيء سوى القمامة، إلّا أنّها كانت تعلم أنّها ستجد شيئاً. فالسحر يستطيع تدبّر أمر كهذا بطريقة أو أخرى دوماً.

في زاوية الصندوق كانت هناك حزمة مهملة لم يهتمّ لأمرها أحد، وعندما وجدتها هي نفسها احتفظت بها كتذكار. بداخلها دزينة من المناديل البيض الصغيرة. تناولتها في ابتهاج وأسرعت عائدة إلى الطاولة. بدأت ترتّبها على المفرش الأحمر، وهي تثنيها وتمسّدها لتتّخذ شكلاً جديداً، فأصبح الطرف المحاط بشريط الدانتيلا النحيل مثنياً على الجهة الخارجية، ومضى السحر في عمله لأجلها، فيما هي تفعل هذا.

قالت:

- هاهي الأطباق، إنّها مصنوعة من الذهب. وهذه مناديل أنيقة مطرّزة بفخامة. طرّزتها الراهبات في أديرة إسبانيا.

هتفت بيكي وقد رفعت المعلومة من روحها المعنوية:

- أحقّاً يا آنسة؟

قالت سارا:

- يجب أن تتظاهري بهذا، لو تظاهرتِ بقوّة فسوف ترينها.

قالت بيكي:

- أجل يا آنسة.

عادت سارا إلى الصندوق وبذلت كلّ جهدها لتحقّق النتيجة المرغوبة في النهاية.

ثمّ استدارت فجأة فوجدت بيكي تقف إلى جانب الطاولة، وهي تبدو غريبة للغاية. كانت قد أغلقت عينيها، وأخذت تلوي وجهها وتقلّصه بطريقة متشنّجة غريبة، ويداها ممدودتان على جانبيها بتصلّب. وكأنّها تحاول أن ترفع شيئاً ثقيلاً للغاية.

صاحت سارا:

- ما الخطب يا بيكي؟ ماذا تفعلين؟

فتحت بيكي عينيها متفاجئة، وأجابت بقليل من الخجل:

- كنت أتظاهر يا آنسة. كنت أحاول أن أرى ما ترينه. وكدت أن أفعل.

وأكملت بابتسامة أمل:

- لكن هذا يتطلّب الكثير من القوّة.

قالت سارا بتعاطف ودود:

- لربّما يحتاج فعلاً لكلّ هذا الجهد إن لم تكوني معتادة عليه، لكن سيصبح سهلاً للغاية إن قمت به بشكل متكرّر. لا تحاولي بقوّة في البداية، وسيكون بين يديك بعد فترة وجيزة. سأخبرك أنا عن ماهيّة الأشياء. انظري إلى هذه.

كانت تحمل قبّعة صيفيّة قديمة مزيّنة بإكليل ورد أخرجتها من قاع الصندوق. خلعت الإكليل، وقالت بوقار:

- هذا إكليل من ورود المأدبة، إنّها تملأ الهواء بالشذى. هناك كوب على المغسلة يا بيكي. أوه، واحضري صحن الصابون لنضعه في منتصف الطاولة.

ناولتها بيكي الأشياء بتوقير، وسألت:

- ماذا أصبحا الآن يا آنسة؟ قد يعتقد المرء أنّهما مصنوعان من الفخّار، لكنّني أعلم أنّهما ليسا كذلك.

قالت سارا وهي تنسّق سيقاناً ملتفّة أخذتها من الإكليل حول الكوب:

- هذا إبريق منقوش، وهذا..

وانحنت على صحن الصابون وكدّست الورد عليه:

- .. طبق من المرمر الخالص مرصّع بالجواهر.

كانت تلمس الأشياء برقّة، وابتسامة سعيدة تتكوّن على شفتيها، فبدت وكأنّها مخلوق قادم من الأحلام.

همست بيكي:

- يا إلهي، كم هو جميل!

غمغمت سارا:

- فقط لو كنّا نملك شيئاً ليكون طبقاً للحلوى، وجدتها!

وأسرعت إلى الصندوق مجدّداً:

- أعتقد أنّني رأيت شيئاً قبل دقيقة.

كانت مجرّد حزمة صوف ملفوفة بورق أحمر وأبيض، ولكن سرعان ما لُفّ الورق على هيئة أطباق صغيرة، واستُخدمت باقي الورود لتزيين الشمعدان الذي سيضيء المأدبة. وحده السحر بمقدوره أن يجعلها أكثر من مجرد طاولة قديمة مغطّاة بشال أحمر وعليها خرداوات من صندوق لم يُفتح منذ زمن بعيد. لكن سارا تراجعت للخلف ونظرت إليها، فرأت العجائب، وحدّقت بيكي في الأشياء ببهجة ثمّ تحدّثت بأنفاس مقطوعة.

قالت وهي تلقي نظرة على العليّة من حولها:

- هل هذا الباستيل الآن.. أم أنّها تحوّلت لشيء آخر؟

قالت سارا:

- أوه، أجل، أجل! مكان مختلف للغاية. إنّها قاعة احتفالات!

هتفت بيكي:

- لا أصدّق عينيّ يا آنسة! قاعة احتفالات!

واستدارت حول نفسها لترى الأشياء الجميلة التي تحيط بها في ذهول وحيرة.

قالت سارا:

- قاعة احتفالات، غرفة واسعة تقام فيها المآدب. سقفها مقبّب، وفيها شرفة يعزف عليها الموسيقيّون، ومدفأة ضخمة مليئة بخشب البلّوط المشتعل، ومضاءة بالشموع الطويلة من كلّ جانب.

شهقت بيكي من جديد:

- لا أصدّق عينيّ يا آنسة سارا!

ثم فُتح الباب ودخلت إرمينغارد وهي تترنّح قليلاً من ثقل سلّتها. وحين رأت ما أمامها ارتعدت وأطلقت صيحة فرح. عندما تدخل من الظلام الدامس البارد إلى غرفة تجد فيها بشكل غير متوقع طاولة معدّة للاحتفال، مغطاة بالأحمر، ومزيّنة بمناديل بيضاء مكلّلة بالورود، فإنّك ستشعر أنّها مذهلة بالتأكيد.

صاحت:

- أوه، سارا! أنتِ أذكى فتاة رأيتها في حياتي!

قالت سارا:

- أليست جميلة؟ إنّها أشياء من صندوقي القديم. لقد سألت سحري، وأخبرني أن أبحث فيه.

هتفت بيكي مناشِدة سارا:

- لكن أوه، يا آنسة، انتظري حتّى تخبرك ما هي هذه الأشياء! ليست مجرد.. أوه، آنسة سارا، أخبريها رجاءً!

لذا أخبرتها سارا، ولأنّ سحرها ساعدها، فقد جعلتها ترى كلّ شيء تقريباً؛ الأطباق الذهبيّة، السقف المقبّب، قطع الحطب اللّاهبة، والشموع الطويلة المشتعلة. أصبحت المأدبة رائعة المظهر بعدما أُخرجت الأشياء من السلة، الكعكات المزينة بالكريمة والفواكه والحلوى والشراب.

هتفت إرمينغارد:

- إنّها حفلة حقيقيّة!

تنهدت بيكي:

- إنّها تشبه مائدة الملكة.

ثم خطرت على بال إرمينغارد فكرة رائعة. قالت:

- سأخبركِ أمراً يا سارا. تظاهري بأنّكِ أميرة وأنّ هذه مأدبة ملكيّة.

قالت سارا:

- لكن هذه مأدبتك، يجب أن تكوني أنتِ الأميرة، وسنكون وصيفتيك.

قالت إرمينغارد:

- أوه، لا أستطيع. أنا سمينة للغاية، ولا أعرف كيف. فلتكوني أنتِ الأميرة.

قالت سارا:

- حسناً، إذا كان هذا ما تريدين.

لكنها فكّرت في شيء آخر فجأة، وأسرعت إلى الموقد الصدئ. هتفت:

- هناك الكثير من الورق والقمامة محشوّة هنا! لو أشعلناها، فستضيء الغرفة لعدّة دقائق، وسنشعر بأنّها نار حقيقيّة.

ثم قدحت عود كبريت وأشعلتها، فتوهّج المكان بضوء مشرق جميل.

قالت سارا:

- عندما تتوقّف عن التوهّج سننسى أنّها ليست حقيقيّة.

ووقفت في الوهج المتراقص وابتسمت. قالت:

- ألا تبدو حقيقيّة؟ الآن سنبدأ الحفلة.

قادت الطريق إلى الطاولة. وأشارت بيدها مرحّبة بإرمينغارد وبيكي. كانت في منتصف حلمها الخاص.

قالت بصوتها الحالم السعيد:

- تقدّما أيّتها الآنستان الجميلتان، واجلسا على الطاولة. أبي النبيل، الملك، غائب في رحلة طويلة، وأمرني أن أقيم لكما مأدبة.

وأدارت رأسها إلى ركن الغرفة قليلاً:

- هيّا، أيها الموسيقيّون! اضربوا على الكمانات وانفخوا في المزامير.

وشرحت بسرعة لإرمينغارد وبيكي:

- الأميرات عندهنّ موسيقيّون ليعزفوا في ولائمهنّ دوماً. لنتظاهر بأنّ هناك شرفة للموسيقيّين في ذاك الركن. الآن سنبدأ.

وبالكاد، فما أن أخذت كلّ منهنّ قطعة الكعك الخاصة بها في يدها، ولم يكن لأيّ منهنّ الوقت الكافي للقيام بأكثر من ذلك؛ حتّى قفزن ثلاثتهنّ على أقدامهنّ وأدرن وجوههنّ الشاحبة إلى باب الغرفة، وأصغين.

كان أحدٌ ما يصعد السلالم من دون شك. وميّزن ثلاثتهنّ وقع الخطوات الصاعدة الغاضبة، وعرفن عندها أنّ نهاية كلّ شيء قد حانت.

اختنقت بيكي وأسقطت قطعة الكعك من يدها على الأرض:

- إنها.. السيّدة!

قالت سارا وعيناها تتّسعان من الصدمة في وجهها الصغير الشاحب:

- أجل، لقد عرِفت الآنسة منشن بأمرنا.

فتحت الآنسة منشن الباب بضربة واحدة من يدها. كانت شاحبة هي نفسها، لكن من الغضب. نقلت نظرها من الوجوه المرعوبة إلى طاولة المأدبة ومن طاولة المأدبة إلى آخر قطعة ورق محترقة في الموقد.

صاحت:

- لقد كنت أشكّ في حدوث شيء من هذا القبيل، لكن لم تكن حتّى في أحلامي مثل هذه الوقاحة. لاڤينيا كانت تقول الحقيقة.

وبهذا عرفن أن لاڤينيا علمت بسرهنّ بطريقة ما، وأقدمت على هذه الخيانة. اندفعت الآنسة منشن إلى حيث تقف بيكي وقرصت أذنيها مرّة أخرى.

قالت:

- أيّتها المخلوقة الوقحة! ستغادرين هذا المنزل في الصباح!

وقفت سارا بصمت، وقد اتّسعت عيناها وشحب وجهها. أمّا إرمينغارد فقد انفجرت بالبكاء.

قالت وهي تجهش بالبكاء:

- أوه، لا تطرديها، عمّتي أرسلت السلة. لقد.. كنا نقيم.. حفلة فحسب.

قالت الآنسة منشن بازدراء:

- ها قد فهمت. والأميرة سارا تجلس على رأس الطاولة.

واستدارت إلى سارا وصرخت بشراسة:

- أعلم أنّ هذا من تخطيطك. لم تكن إرمينغارد لتفكّر في شيء كهذا. أنتِ زيّنتِ هذه الطاولة، كما أفترض، بهذه القمامة.

ثمّ دفعت بيكي بقدمها وقالت آمرةً:

- اذهبي إلى عليّتك!

خرجت بيكي ووجهها مخبّأ خلف مريلتها، وكتفاها يرتعشان.

ثم حان دور سارا من جديد.

- أمّا أنتِ فسأهتم بأمرك غداً. ولن تتناولي فطوراً أو غداءً أو عشاءً!

قالت سارا بضعف:

- لكنّي لم أتناول غداء ولا عشاء اليوم يا آنسة منشن.

- وهذا أفضل. ليكون درساً لكِ تتذكّرينه. لا تقفي هناك. ضعي كلّ هذه الأشياء في السلّة من جديد.

بدأت الآنسة منشن بجمع الأشياء من على الطاولة في السلّة بنفسها، ولمحت كتب إرمينغارد الجديدة.

قالت لإرمينغارد:

- وأنتِ، أحضرت كتبك الجديدة الجميلة إلى هذه العليّة القذرة. خذيها وعودي إلى فراشك. ستبقين في غرفتك طوال يوم الغد، وسأكتب لوالدك. ماذا سيقول لو عرف أين كنتِ الليلة؟

ولكن شيئاً ما في نظرة سارا الحزينة الثابتة في هذه اللحظة جعلها تلتفت إليها بغضب. أمرتها:

- فيم تفكّرين؟ لم تنظرين إلي هكذا؟

أجابت سارا كما أجابت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى في غرفة الصفّ:

- كنت أتساءل.

- تتساءلين عن ماذا؟

كان هذا الموقف يشبه ما حصل في غرفة الصف ذلك اليوم. لم تكن هناك وقاحة في سلوك سارا، بل بدت حزينة وهادئة فقط.

قالت بصوت منخفض:

- كنت أتساءل عمّ سيقوله والدي أنا، إن عرف أين أنا الليلة.

اشتعل غضب الآنسة منشن، وكالمرة السابقة أفلتت العنان لنفسها. انقضت على سارا وبدأ تهزّها.

صرخت:

- أيّتها الطفلة الوقحة العنيدة! كيف تجرُئين! كيف تجرُئين!

أخذت الكتب، وكوّمت ما تبقى من المأدبة في السلّة بدون نظام، وحشرتها بين يدي إرمينغارد، ثمّ دفعتها أمامها إلى الباب.

قالت:

- سأتركك تتساءلين، اذهبي لفراشك في هذه اللحظة.

وأغلقت الباب خلفها بنفسها وإرمينغارد المسكينة تتعثّر أمامها، تاركة وراءها سارا تقف وحدها.

كان الحلم قد بلغ منتهاه. خمدت آخر شعلة في الورق المحشوّ في الموقد مخلّفة هباباً أسود فقط؛ وتركت الطاولة عارية، وتحّولت الأطباق الذهبيّة والمناديل المنقوشة الثمينة وأكاليل الورد من جديد إلى مناديل قديمة وقصاصات من الورق الأحمر والأبيض وورد صناعيّ مهمل، وكلّ هذا منثور على الأرض.

غادر الموسيقيّون من على الشرفة وصمتت الكمانات والمزامير. كانت إميلي تجلس مستندة بظهرها على الجدار، وهي تحدّق أمامها بتركيز. رأتها سارا فحملتها بيدين مرتجفتين.

قالت:

- لم تعد هناك مأدبة يا إميلي، ولا أيّة أميرات. لم يبق شيء سوى سجناء الباستيل.

وجلست ثمّ أخفت وجهها خلف يديها.

ماذا كان سيحدث لو أنّها لم تُخفِ وجهها في تلك اللحظة، لو نظرت إلى النافذة فوقها في اللحظة الخطأ، لا أعرف، فلربّما أصبحت نهاية هذا الفصل مختلفة للغاية، لأنّها لو نظرت إلى النافذة لتفاجأت بالتأكيد مما كانت ستراه. كانت سترى الوجه نفسه مضغوطاً على الزجاج يراقبها كما راقبها في وقت سابق من اليوم وهي تتحدّث مع إرمينغارد.

لكنها لم ترفع رأسها. جلست ورأسها الأسود بين ذراعيها لبعض الوقت. كانت تجلس هكذا دوماً عندما تحاول تحمّل شيء ما بصمت. ثمّ نهضت ومضت إلى فراشها ببطء.

قالت:

- لن يكون بإمكاني التظاهر فيما أنا مستيقظة بعد الآن، ليست هناك فائدة من المحاولة. لكن إذا خلدت للنوم، فلربّما سأرى حلماً يعوّضني عن التظاهر.

شعرت فجأة بتعب شديد -ربّما بسبب جوعها- فجلست على طرف السرير بضعف شديد.

غمغمت:

- فلنفترض أنّ هناك ناراً متوهّجة في الموقد، فيها الكثير من الشعلات الصغيرة الراقصة. فلنفترض أنّ أمامها مقعد مريح، ولنفترض أنّ إلى جانبه طاولة صغيرة عليها عشاء، عشاء ساخن. ولنفترض..

وغطّت نفسها بالغطاء الخفيف:

- ولنفترض أنّ هذا سرير ناعم جميل، عليه بطّانيات من الصوف ووسادات كبيرة ناعمة. فلنفترض.. فلنفترض.

وكان تعبها في صالحها، لأن عينيها انغلقتا، وغطّت في النوم سريعاً.

لم تعرف كم من الوقت نامت. لكنّها كانت متعبة بما فيه الكفاية كي تنام بعمق واستغراق، أكثر عمقاً واستغراقاً من أن يقلق نومها أيّ شيء، حتّى صرير وهرولة عائلة ملكي صادق بأكملها، فيما لو قرر أبناؤه وبناته الخروج من الحفرة للتشاجر أو الشقلبة واللّهو.

استيقظت بشكل مفاجئ، ولم يكن هناك أيّ شيء محدّد قد أيقظها.

لكنّ الحقيقة هي أنّها استيقظت بسبب صوت -صوت حقيقيّ- نافذة السقف وهي تُغلق بعد أن تسلّل عبرها رجل يرتدي البياض

وربض بجانبها على ألواح السقف، قريباً بما يكفي كي يشاهد ما يحدث في العليّة، ولكن ليس ليراه أحد.

في البداية لم تفتح عينيها. شعرت بنعاس شديد وبدفء وراحة غريبين. كانت دافئة ومرتاحة لدرجة أنّها لم تصدق أنّها مستيقظة فعلاً. لم تكن تشعر بهذه الدفء والراحة إلّا في الأحلام الجميلة.

غمغمت:

- ياله من حلم جميل! أشعر بالدفء. لا.. أريد.. أن.. أستيقظ.

طبعاً كان هذا حلماً. شعرت بأن هناك أغطية فخمة دافئة مكوّمة فوقها. بل استطاعت أن تشعر بوجود بطانيّات، وعندما مدّت يدها لمست شيئاً يشبه الألحفة المغطاة بالحرير. يجب إن لا تستيقظ من هذا الحلم الجميل. عليها أن تبقى هادئة وتدعه يستمر.

لكنها لم تستطع رغم أنّها أبقت عينيها مغلقتين بقوّة. شيء ما أجبرها على الاستيقاظ، شيء ما في الغرفة. كان شعوراً بوجود ضوء وصوت، صوت طقطقة واشتعال نار صغيرة.

قالت بحزن:

- أوه، إنّني أستيقظ، لا يمكنني أن أقاوم. لا يمكنني.

فتحت عينيها رغماً عنها. ثمّ ابتسمت لأن ما رأته لم يكن شيئاً موجوداً في العليّة من قبل، وكانت تعلم أن عليها أن لا تراه.

همست وقد تجرّأت على أن تتكئ على مرفقها وتنظر حولها:

- أوه، لم أستيقظ بعد، ما زلت أحلم.

كانت تعلم بدون أيّ شكّ أنّ هذا حلماً، لأنها إن استيقظت لم تكن لتوجد أشياء كهذه.

هل تتساءلون لِمَ كانت متأكّدة للغاية من أنّها لم تعُد بعد لعالمنا الأرضيّ؟ لأنّ هذا ما رأته:

في الموقد كانت هناك نارٌ مشتعلة متأجّجة، وعلى الصفيحة غلّاية نحاسيّة صغيرة تهسّ وتغلي، وعلى الأرض سجّادة حمراء سميكة دافئة، وأمام النار مقعد قابل للطيّ، مفتوح وعليه وسادات، وبجانب المقعد طاولة صغيرة قابلة للطيّ أيضاً، مفتوحة ومغطّاة بمفرش أبيض اللون، عليها أطباق صغيرة مغطّاة، وفنجان، وطبق، وإبريق شاي، على السرير كان هناك غطاء جديد دافئ ولحاف مغطىً بالحرير، وعلى طرفه روب حريريّ مبطّن، وخفّان دافئان، وبعض الكتب. يبدو أنّ غرفة العليّة التي في حلمها تحولت إلى أرض خيال، وكانت تتوهّج بضوء دافئ، لأنّ على الطاولة مصباح مغطّى بغطاء أحمر.

جلست وهي متّكئة على مرفقها، وقد أصبحت أنفاسها سريعة وقصيرة.

قالت وهي تلهث لتلتقط أنفاسها:

- إنّه لا يتلاشى. أوه، لم أحلم حلماً كهذا من قبل.

لم تجرؤ على التحرّك، لكنّها أخيراً دفعت أغطية السرير جانباً، ووضعت قدميها على الأرض باستمتاع وعلى وجهها ابتسامة.

سمعت صوتها يقول:

- إنّني أحلم أنّني أنهض من الفراش.

ثمّ وهي تقف في منتصف كلّ هذا، وتدور من جهة لأخرى ببطء:

- إنّني أحلم أن يظلّ حقيقياً! إنّني أحلم بأن يشعرني أنّه حقيقيّ. إنّ الغرفة مسحورة.. أو أنا مسحورة. لكنّني أعتقد أنّني أرى كلّ هذا.

ثمّ أخذت كلماتها تتسارع:

- لو كنت أستطيع أن أستمرّ بالتفكير فيه..

ثمّ صرخت:

- لا أهتم! لا أهتم!

وقفت تلهث لتستعيد أنفاسها للحظة، ثمّ صرخت من جديد.

قالت:

- إنّه ليس حقيقيّاً! لا يمكن أن يكون حقيقيّاً! لكن أوه، كم يبدو حقيقيّاً!

أغرتها النار المتأجّجة بالاقتراب منها، فانحنت وقرّبت يدها منها. قرّبتها لدرجة أنّ الحرارة جعلتها تتراجع فجأة.

هتفت:

- النار في أحلامي لن تكون ساخنة.

قفزت من مكانها وتلمّست الطاولة، والأطباق، والسجادة، ثمّ عادت للسرير وتحسّست البطانيّات. ثمّ رفعت الروب المبطّن الناعم، وضمّته لصدرها فجأة ووضعت خدّها عليه.

كادت أن تبكي:

- إنّه دافئ. إنّه ناعم! إنّه حقيقيّ. يجب أن يكون كذلك!

ألقت به على كتفيها، وأدخلت قدميها في الخفّين.

صاحت:

- إنّهما حقيقيّان أيضاً. كلّه حقيقيّ! أنا لست.. أنا لست أحلم!

كادت أن تتعثّر وهي تركض نحو الكتب وفتحت الكتاب الأوّل. كان هناك شيء ما مكتوب على الصفحة الفارغة في أوّل الكتاب؛ كلمات معدودة فحسب، هي:

(إلى الفتاة الصغيرة قاطنة العليّة. من صديق).

عندما رأت ذلك -وكان أمراً غريباً أن يصدر من سارا- وضعت وجهها على الصفحة وانفجرت بالبكاء.

قالت:

- لا أعرف من يكون، لكن شخصاً ما يهتمّ بأمري. لديّ صديق.

أخذت شمعتها وتسلّلت من غرفتها إلى غرفة بيكي، ووقفت بجانب سريرها.

همست بأعلى صوت تجرؤ على استخدامه:

- بيكي، بيكي! استيقظي!

عندما استيقظت بيكي، جلست باستقامة وهي تحدّق بذعر، كان وجهها لا يزال ملطخاً بآثار الدموع. بجانبها وقفت فتاة صغيرة ترتدي روباً حريراً مبطّناً فاخراً أحمر اللون، لها وجه جميل مشعّ. إنّها الأميرة سارا -كما تتذكّرها- تقف إلى جانبها وهي تحمل شمعة بيدها.

قالت:

- تعالي. أوه، بيكي، تعالي!

كانت بيكي مذعورة أكثر من أن تتكلّم. لكنها نهضت وتبعتها ببساطة، فيما عيناها متّسعتان وفمها مفتوح، بدون أن تنطق بكلمة.

عندما عبرتا عتبة الغرفة، أغلقت سارا الباب بلطف وسحبتها إلى غمرة دفء ووهج الأشياء التي جعلت عقلها يترنح وحواسّها الجائعة تضعف.

صاحت سارا:

- إنّها حقيقيّة! إنّها حقيقيّة! لقد تفحّصت كلّ شيء. كلّ شيء حقيقيّ مثلنا. لقد أتى السحر وفعل هذا يا بيكي، بينما كنا نياماً؛ السحر الذي لا يسمح لأسوأ الأشياء أن تحدث أبداً.

(١٦)

الزائر

تخيّل -لو كان بإمكانك- كيف مضت بقيّة الأمسية. كيف جثمتا إلى جانب النار التي أخذت تتأجّج وتستعر بكلّ قوّتها في الموقد الصغير. كيف رفعتا الأغطية عن الأطباق فوجدتا حساء دسماً ساخناً شهياً، يكفي ليكون وجبة كاملة، وشطائر وخبزاً محمّصاً وكعكاً بما يكفي لكلتيهما. استُخدم كوب المغسلة كفنجان شاي لبيكي، وكان الشاي لذيذاً لدرجة أنّه لم تكن هناك حاجة للتظاهر بأنّه أيّ شيء آخر. شعرتا بالدفء والشبع والسعادة، وكالعادة بالنسبة لسارا، وبما أنّها وجدت حظّها الجيّد الغريب حقيقيّاً؛ فلسوف تستمتع به إلى أقصى درجة ممكنة. كانت قد عاشت حياة ملؤها الخيال، لذا كانت مستعدّة لتقبّل أيّ شيء رائع قد يحدث، وسرعان ما كانت تفقد دهشتها.

قالت:

- لا أعرف شخصاً في العالم قد يفعل شيئاً كهذا، ولكن هذا الشخص موجود. وها نحن نجلس بقرب ناره.. و.. و..

هذا حقيقيّ! وأيّاً كان -وأينما كان- فلديّ صديق يا بيكي..
شخص ما صديقي.

لا يمكن إنكار أنّهما شعرتا ببعض الخوف والذهول وكانتا تتبادلان نظرات الشكّ وهما جالستان أمام النار تأكلان الطعام المغذي اللذيذ.

تردّدت بيكي وقالت هامسة:

- هل تعتقدين أنّها ستختفي يا آنسة؟ إلّا يجب أن نسرع؟

ثم حشرت شطيرتها في فمها بسرعة. لو كان هذا مجرّد حلم، فيمكن والحالة هذه الغضّ عن آداب المائدة.

قالت سارا:

- لا لن تختفي. إنّني أتناول هذه الكعكة وأتذوّق طعمها. في الأحلام لا تأكلين أيّ شيء فعلياً، أنتِ تظنين أنّكِ تأكلين الطعام. بالإضافة لأنّي أقرص نفسي باستمرار لأصحو، ولمست قطعة فحم ساخنة للتوّ، عن قصد.

تغلّب عليهما في النهاية إحساس سماويّ بالراحة والنعاس، نعاس الشبع والطفولة السعيدة. فجلستا في وهج النار واستمتعتا به حتّى وجدت سارا نفسها تستدير لتنظر إلى سريرها المختلف الآن.

كانت هناك بطانيّات كافية لتتشاركها مع بيكي. وفي تلك الليلة أصبحت الأريكة الضيّقة في العليّة المجاورة أكثر راحة مما قد

حلمت به شاغلتها أبداً. عندما خرجت بيكي من الغرفة استدارت عند عتبة الباب والتهمت المكان بعينيها.

قالت:

- إذا اختفت هذه الأشياء في الصباح يا آنسة، فهي كانت موجودة هنا طوال المساء، وعلى كلّ حال لن أنسى ذلك مطلقاً.

ونظرت إلى كلّ شيء، وكأنّها تحاول حفظه في ذاكرتها، ثمّ قالت وهي تشير بإصبعها:

- النار كانت هناك، والطاولة أمامها، والمصباح هناك، وكان ضوؤه أحمر، وكان هناك لحاف حريريّ على سريرك، وسجّادة دافئة على الأرض، وبدا كلّ شيء جميلاً، و..

وتوقّفت للحظة ووضعت يدها على معدتها بحنان:

- كان هناك حسّاء وشطائر وكعك.. كانت موجودة.

وغادرت وهي مصدّقة بهذا الإيمان كحقيقة.

من خلال وكالة الأنباء الغامضة التي تعمل في المدارس وبين الخدم، كان الجميع يعرفون في الصباح أنّ سارا كرو في حالة فظيعة من الإذلال، وأنّ إرمينغارد معاقبة، وأنّ بيكي كانت ستغادر المنزل قبل موعد الإفطار، لولا أنّه لا يمكن الاستغناء عن خادمات غسل الأطباق فوراً.

كان الخدم يعرفون أنّها قد سُمح لها بالبقاء لأنّ الآنسة منشن لا

تستطيع أن تجد بسهولة مخلوقة أخرى عاجزة وذليلة لتعمل كخادمة مقابل بضعة شلنات قليلة في الأسبوع. وكانت الفتيات الكبيرات في غرفة الصف يعرفن أن الآنسة منشن لم تطرد سارا لحسابات عمليّة تخصّها.

قالت جيسي للاڤينيا:

- إنها تكبر بسرعة وتتعلّم الكثير بطريقة ما، لذا سيوكل إليها تعليم بعض الصفوف قريباً، والآنسة منشن تعلم أنّها ستعمل بدون مقابل. كان ذلك قذراً منكِ نوعاً ما يا لاڤي، أن تفشي أمر استمتاعها بوقتها في العليّة. كيف عرفتِ عن الأمر؟

- عرفتُ ذلك من لوتي. إن تفكيرها الطفولي لم يدعها تعلم أنّها كانت تخبرني. وليست هناك أيّة قذارة في إفشاء الأمر للآنسة منشن. شعرتُ أن هذا من واجبي..

وأكملت بتزمّت:

- كانت تحتال عليهم. ومن السخف أن تحاول أن تبدو عظيمة، أو أن تُعطى أيّة أهمية، وهي في خرقِها وأسمالها.

- ماذا كنّ يفعلن عندما أمسكت بهنّ الآنسة منشن؟

- يتظاهرن بشيء سخيف. أخذت إرمينغارد سلّتها لتشاركها مع سارا وبيكي. إنّها لا تشارك معنا أيّ شيء أبداً، وليس وكأني أهتم، لكن من الابتذال أن تشارك الطعام مع

الخادمات في العليّة. أتساءل لِمَ لا تطرد الآنسة منشن سارا، حتّى لو كانت تريدها أن تعمل كمعلّمة.

سألت جيسي بقليل من القلق:

- إلى أين ستذهب لو طردتها؟

صاحت لاڤينيا:

- وكيف سأعرف؟ أعتقد أنّها ستبدو غريبة للغاية عندما تدخل غرفة الصف اليوم بعد ما حدث. لم تتناول الغداء بالأمس ولن تتناول أيّ شيء اليوم.

لم تكن جيسي خبيثة النفس بقدر ما كانت سخيفة. التقطت كتابها وهي ترتجف ارتجافة صغيرة.

قالت:

- حسناً، أعتقد أنّ هذا فظيع، ليس لديهم الحق في تجويعها حتّى الموت.

عندما دخلت سارا إلى المطبخ في ذلك الصباح نظرت إليها الطبّاخة بريبة واستنكار، وكذلك بقيّة الخادمات، لكنّها مرت بسرعة من جوارهم. كانت قد تأخرت في النوم قليلاً، وبما أن بيكي فعلت نفس الشيء، لم تملكا أيّ وقت للتقابل، ونزلت كلّ منهما بعجلة إلى الأسفل.

دخلت سارا إلى حجرة غسيل الأطباق. كانت بيكي تفرك غلّاية بعنف، وهي تدندن أغنية ما. رفعت رأسها وعلى وجهها بهجة مجنونة.

همست بحماس:

- كانت البطانيّة موجودة عندما استيقظتُ يا آنسة. إنّها حقيقيّة كما كانت الليلة الماضية.

قالت سارا:

- ومثلها بطانيّتي. كلّ شيء موجود وباقٍ إلى الآن، كلّ شيء. وبينما كنت أرتدي ثيابي أكلت بعض الأشياء الباردة التي تركناها.

هتفت بيكي متأوّهة في سعادة:

- أوه، يا إلهي! أوه، يا إلهي!

وأخفضت رأسها فوق الغلّاية في اللحظة التي دخلت فيها الطبّاخة من المطبخ.

كانت الآنسة منشن تتوقع أن ترى في وجه سارا ما توقعت لافينيا أن تراه عندما تدخل إلى غرفة الصف. كانت سارا اللغزاً مزعجاً بالنسبة لها دوماً، لأنّ القسوة لا تجعلها تبكي أو تخاف. وعندما كانت توبّخها كانت سارا تقف بهدوء وتستمع بتهذيب وعلى وجهها نظرة وقار، وعندما تعاقبها فإنّها تؤدّي مهامها الإضافيّة أو لا تأكل وجباتها بدون تذمّر أو أيّة إشارة على التمرّد. وبدا للآنسة منشن أنّ عدم إجابتها عليها بوقاحة أبداً كان في حدّ ذاته نوعاً من الوقاحة. لكن بعد حرمانها من وجبات الطعام بالأمس، والعنف الذي حدث في الليلة الماضية، واحتماليّة التضوّر جوعاً اليوم؛ فلا

بدّ أنّها كسرتها. سيكون الأمر غريباً إن لم تنزل من السلّم وخدّاها شاحبان وعيناها محمرّتان ووجهها حزين ومذلول.

رأتها الآنسة منشن لأوّل مرّة حين دخلت إلى غرفة الصف لتستمع إلى الطالبات الصغيرات في صف الفرنسيّة يتلون دروسهنّ ولتشرف على أداء التمارين. دخلت بخطوات مرحة وخدّاها محمرّان، وابتسامة تحوم في زاويتي ثغرها. كان هذا أكثر شيء مذهل رأته الآنسة منشن خلال حياتها. وصدمها هذا بقوة. ممّ صُنِعت هذه الطفلة؟ وماذا يعني هذا؟ استدعتها إلى طاولتها على الفور.

قالت:

- يبدو أنّكِ لا تشعرين بالخزي. هل اعتدت على الأمر؟

والحقيقة هي أنّه عندما يكون المرء طفلاً -وحتى إن كان بالغاً- وقد تناول طعاماً مشبعاً وحظي بنومة طويلة دافئة مريحة، كما لو نام في منتصف قصّة خيالية واستيقظ ليجدها حقيقة واقعة؛ فلا يمكن أن يبدو هذا الشخص حزيناً أو أن يحزن، ولا يمكن للمرء -حتّى إن حاول- أن يخفي بريق السعادة من عينيه. خلّفت النظرة في عيني سارا الآنسة منشن وهي بكماء من الصدمة، عندما أجابتها باحترام بالغ.

- أستميح العذر يا آنسة منشن، أعلم أنّني يجب أن أشعر بالخزي.

- إذن كوني خلوقة كما ينبغي لتتذكّري هذا، ولا تبدي وكأنّ

الحظّ ابتسم لك فجأة. فهذه وقاحة. وتذكّري أنّكِ لن تتناولي أيّ طعام اليوم.

أجابت سارا:

- أجل يا آنسة منشن.

واختلج قلبها طرباً عندما تذكّرت ما حدث في الليلة الماضية. وفكّرت:

«كم كان هذا سيكون فظيعاً، لو لم ينقذني السحر في آخر لحظة!».

همست لاڤينيا:

- لا تبدو في غاية الجوع، انظري إليها. ربّما تتظاهر بأنّها تناولت وجبة إفطار جيدة.

وضحكت ضحكة حقودة.

قالت جيسي وهي تراقب سارا مع صف الصغيرات:

- إنّها مختلفة عن بقية الأشخاص. أحياناً أشعر ببعض الخوف منها.

هتفت لاڤينيا:

- يا لسخافتك!

خلال اليوم بطوله كان وجه سارا يشعّ ضوءاً، وخدّاها محمرّين. كان الخدم ينظرون إليها نظرات ريبة وشكّ ويهمسون لبعضهم، وظهرت الحيرة على عيني الآنسة أميليا الزرقاوين الصغيرتين. لم

تستطع أن تفهم معنى النظرة الجريئة السعيدة في ظلّ هذا السخط المنذر بالسوء. لكن كان هذا كعادة سارا العنيدة الغريبة على أيّة حال، فقد كانت مصمّمة على تحمّل الأمر بشجاعة على الأغلب.

كانت سارا قد تفكّر تمليّاً فيما حدث وعزمت على فعل شيء واحد. يجب أن تبقى الأعجوبة التي حدثت سرّاً، إذا كان هذا ممكناً. لو قرّرت الآنسة منشن أن تصعد إلى العليّة من جديد، فستكتشف كلّ شيء بالتأكيد. لكن بدا أنّها لن تفعل ذلك على الأغلب لبعض الوقت، إلّا لو شكّت في الأمر. ستراقب إرمينغارد ولوتي بصرامة ولن تجرؤا على مغادرة فراشيهما ثانية. يمكن لها أن تحكي الأمر لإرمينغارد وتتوثّق من أن تُبقي الأمر سراً. ولو اكتشفت لوتي أيّ شيء، يمكن أن تلزمها بإبقاء الأمر سرّاً أيضاً. وربّما يتدخل السحر بنفسه ويُبقى على أعاجيبه سرّاً.

ظلّت سارا تقول لنفسها طوال اليوم:

«لكن مهما حدث.. مهما حدث، فهناك شخص ما في هذا العالم لطيف للغاية هو صديقي.. صديقي. حتّى لو لم أعرف من هو أبداً -ولو لم أستطع شكره أبداً- فلن أشعر بكلّ تلك الوحدة. أوه، كم كان السحر طيّباً معي!».

لو كان ممكناً للجوّ أن يصبح أسوأ مما كان عليه باليوم السابق، فقد كان أسوأ اليوم؛ أكثر بللاً، وأكثر برودة، والوحل منتشر في كلّ مكان. كان عليها القيام بمزيد من المهام، كانت الطبّاخة أشد غضباً من الليلة السابقة، وبما أنّها تعلم أنّ سارا معاقبة، فقد صارت

أكثر وحشيّة من المعتاد. لكن ماذا يهمّ عندما يُثبت سحرك لك أنّه صديقك. عشاء سارا في الليلة الماضية أعطاها القوة، وكانت تعلم أنّها ستنام براحة ودفء، ورغم أنّها بدأت تشعر بالجوع من جديد قبل المساء، فقد شعرت بأنّها تستطيع أن تتحمّل حتّى موعد الإفطار في اليوم التالي، عندما تعود لتناول وجباتها من جديد. كان الوقت متأخّراً للغاية عندما سمحوا لها أخيراً بالصعود إلى الأعلى. وكانوا قد أمروها بأن تذهب إلى غرفة الصفّ وتدرّس حتّى العاشرة مساء، لكن الكتب أثارت اهتمامها، فبقيت لمزيد من الوقت.

عندما وصلت إلى أعلى الدرج ووقفت أمام باب العليّة، يجب الاعتراف أنّ قلبها أخذ ينبض بسرعة، همست لنفسها محاولة أن تتحلّى بالشجاعة:

- من الممكن طبعاً أن كلّ شيء قد استرجع، قد يكون أعارني هذه الأشياء فقط لتلك الليلة الفظيعة. لكنّه أعارني أنا، إياها.. كانت لديّ. كانت حقيقيّة.

دفعت الباب ودخلت. عندما أصبحت بداخل الغرفة، شهقت شهقة صغيرة، وأغلقت الباب، ووقفت خلفه وهي تنظر من جانب إلى جانب.

كان السحر هناك مرّة أخرى. كان هناك فعلاً، وقد قدّم أكثر ممّا قدّمه في المرّة السابقة. كانت النار تتأجّج وشعلاتها تتراقص بسعادة أكثر من أيّ وقت مضى. أُحضرت عدّة أشياء جديدة إلى العليّة غيّرت من مظهرها تماماً، ولو أنّها لم تتجاوز مرحلة الشك بما

حدث؛ لفركت عينيها. كانت هناك على الطاولة المنخفضة وجبة عشاء أخرى، وهذه المرة بأطباق وأكواب لبيكي ولها، وقد غُطّي رفّ المدفأة المحطّم بقطعة قماش مطرّزة غريبة، لها لون مشرق، ووُضعت عليها بعض من قطع الزينة. أُخفيت كلّ الأشياء القبيحة العارية بالستائر فبدت جميلة للغاية. وثُبّتت على الجدار بعض المواد الغريبة غنيّة الألوان باستخدام مسامير، مسامير حادّة للغاية يمكن كبسها عبر القار والخشب بدون ضربات من المطرقة، عُلّقت مراوح كبيرة جميلة، وكانت هناك عدّة وسائد كبيرة، ذات حجم وثبات مناسبين لتُستخدم كمقاعد. وكان هناك صندوق خشبيّ مغطّى بسجّادة وعليه بعض الوسائد، لذا بدا كأريكة حقيقيّة.

ابتعدت سارا عن الباب ببطء، وجلست ببساطة وأخذت تقلّب نظرها في الأشياء، مرة بعد مرة.

قالت:

- كما وكأنّ الخيال أصبح حقيقة، ليس هناك أيّ فرق. أشعر أنّني أستطيع أن أتمنّى أيّ شيء؛ ماساً أو أكياساً مليئة بالذهب، فستظهر! لن يكون ذلك أكثر غرابة من هذا. هل هذه عليّتي؟ هل أنا نفس سارا المبلّلة التي تشعر بالبرد وترتدي الأسمال؟ كنت أتظاهر وأتظاهر بأن الجنيات حقيقيّات! الشيء الذي لطالما أردته هو أن أرى قصّة خياليّة تتحقّق على أرض الواقع. لكنّني أعيش في قصّة خياليّة الآن. وأشعر أنّني قد أكون جنيّة أنا نفسي، وأستطيع أن أحوّل الأشياء لأيّ شيء آخر.

وقفت سارا وطرقت على الجدار لتستدعي السجينة في الزنزانة المجاورة، فأتت السجينة. عندما دخلت كادت أن تسقط متكومّة على الأرض. ولعدّة ثوانٍ فقدت أنفاسها تماماً.

شهقت:

- أوه، يا إلهي! أوه يا إلهي يا آنسة!

قالت سارا:

- كما ترين.

في تلك الليلة جلست بيكي على وسادة فوق السجادة أمام الموقد وكان لديها كوب شاي وطبق خاصّين بها.

وعندما استلقت سارا في فراشها وجدت مرتبة جديدة سميكة ومزيداً من الوسادات الناعمة. فنقلت مرتبها ووسادتها القديمتين لبيكي، وبالتالي، مع كلّ هذه الإضافات تزوّدت بيكي بوسائل راحة لم تحصل عليها من قبل.

أقدمت بيكي على سؤال سارا:

- من أين يأتي كلّ هذا؟ من يفعل هذا بحقّ السماء يا آنسة؟

قالت سارا:

- دعينا لا نسأل حتّى، لو لم أكن أرغب في قول (أوه، شكراً لك) فسأفضّل أن لا أعرف. فهذا يجعله أكثر جمالاً.

منذ ذلك الوقت أصبحت الحياة أروع يوماً بعد يوم. واستمرت

القصّة الخياليّة. تقريباً كلّ يوم يظهر شيء جديد. وسيلة راحة جديدة أو قطعة زينة تظهر في كلّ مرّة تفتح فيها سارا الباب في المساء، حتّى أصبحت العليّة غرفة صغيرة جميلة مليئة بكل أنواع الأشياء الغريبة والثمينة بعد بعض الوقت. أصبحت الجدران القبيحة مغطّاة بالستائر واللوحات، كما ظهرت قطع أثاث مذهلة قابلة للطيّ، وعُلّق رفّ ومُلئ بالكتب، وظهرت رفاهيّات ووسائل راحة واحدة تلو الأخرى حتّى بدا وكأنّه لم يبقَ شيء لتتمنّاه.

عندما تنزل سارا إلى الطابق السفليّ في الصباح تبقى بقايا العشاء من الليلة الماضية على الطاولة، وعندما تعود إلى عليّتها في المساء، يكون ساحرها قد أزالها واستبدلها بوجبة أخرى لذيذة. كانت الآنسة منشن قاسية ومهينة كما هي دوماً، والآنسة أميليا نكدة على الدوام، والخدم بذيئين ووقحين كالعادة. وكانت سارا تُرسَل في مشاوير في كلّ الأحوال الجويّة، وتُنبذ وتُوبّخ هنا وهناك، ونادراً ما سُمح لها بالتحدّث مع إرمينغارد أو لوتي، كانت لاڤينيا تسخر من ثيابها التي تزداد رثاثة، وكانت بقيّة الفتيات يحدّقن فيها بفضول عندما تدخل إلى غرفة الصفّ. لكن ما أهمية كلّ هذا إذا كانت تعيش هذه القصّة الغامضة الرائعة؟ كانت أكثر رومانسيّة وإبهاجاً من أيّ شيء اخترعته لتريح روحها الصغيرة الجائعة وتقي نفسها من اليأس. أحياناً كانت بالكاد تمنع نفسها من الابتسام عندما يوبّخونها.

كانت تقول لنفسها:

- لو كنتم تعلمون! لو كنتم تعلمون!

الراحة والسعادة التي كانت تعيشهما جعلتاها أقوى، وكانت تتطلع إلى هذه الأشياء دوماً. إذا عادت إلى المنزل من مشاويرها وهي مبلّلة ومتعبة وجائعة، فإنها تعلم أنّها ستكون دافئة وستأكل حتّى تشبع بعد أن تصعد درجات السلّم. في أصعب الأيّام كانت تُشغِل نفسها بالتفكير فيما ستراه عندما تفتح باب العليّة، وعن الشيء المبهج الجديد الذي تمّ تحضيره لها. بعد فترة قصيرة بدأت تبدو أقل نحافة. وعاد اللون إلى خديّها، ولم تعد عيناها تبدوان كبيرتين في وجهها.

علّقت الآنسة منشن بانزعاج لأختها:

- سارا كرو تبدو مُعافاة إلى حدٍ يثير الذهول.

أجابت الآنسة أميليا السمينة السخيفة:

- أجل، لقد ازداد وزنها بالتأكيد. كانت قد بدأت تبدو كغراب صغير مجوّع.

هتفت الآنسة منشن بغضب:

- مجوّع! ما من سبب لتبدو معه وكأنّها مجوعّة. إنّها تحصل على الكثير من الطعام طوال الوقت!

وافقتها الآنسة أميليا بإذعان، وقد أخافها أنّها قالت الشيء الخطأ كالعادة:

- بالـ.. بالتأكيد.

قالت الآنسة منشن، في غرور وغموض:

- هنالك شيء مثير للمُقت في رؤية مثل هذا الشيء على طفلة في مثل عمرها.

غامرت الآنسة أميليا بسؤالها:

- أيّ شيء؟

أجابت الآنسة منشن بضيق:

- يُمكن أن يُقال عنه التحديّ.

أمّا شعورها بالضيق فقد كان لأنها تعلم أنّ ما تكرهه فيها ليس هو التحدي، ولم تعرف أيّة كلمة أخرى كريهة تستخدمها لوصفه.

- إنّ روح وإرادة أية طفلة أخرى كانت ستُكسر وتُذل تماماً بسبب التغيّرات التي أجبرت على أن تمرّ فيها. لكن يا للمفاجأة! لا يبدو عليها الانهزام وكأنّها.. وكأنّها أميرة.

أضافت الآنسة أميليا الحمقاء:

- هل تتذكّرين ماذا قالت لكِ في غرفة الصف ذلك اليوم عمّا ستفعلينه إذا عرفت أنّها..

قالت الآنسة منشن:

- لا، لا أتذكر. لا تتحدّثي بالهراء.

لكنها كانت تتذكّر بوضوح.

كنتيجة طبيعية، فحتّى بيكي قد بدأت تبدو أسمن وأقلّ ذعراً.

لم تكن لتستطيع أن تمنع هذا. كان لها نصيبها من القصّة الخياليّة أيضاً. أصبح لديها مرتبتان ووسادتان وكثير من الأغطية، وعشاء ساخن في كلّ مساء ومقعد على الوسائد بجانب النار. ها قد تلاشى الباستيل. ولم يعد للسجينتين من وجود، وجلست بدلاً منهما طفلتان هانئتان في وسط كلّ هذه المباهج. أحياناً كانت سارا تقرأ لها بصوت عالٍ من كتبها، وأحياناً كانت تدرس، وأحياناً كانت تحدّق في النار وتحاول تخيّل هويّة صديقها، وتمنت لو أنّها تستطيع أن تبوح له ببعض الأشياء التي في قلبها.

لكن حدث شيء آخر مذهل. قدم رجل إلى الباب وترك عدّة طرود. كُتب عليها جميعاً بحروف كبيرة (إلى الفتاة الصغيرة القاطنة في العليّة التي على الجانب الأيمن).

أُرسلت سارا نفسُها لتفتح الباب وتدخل الطرود. وضعت أكبر طردين على طاولة الردهة، وكانت تقرأ العنوان، عندما نزلت الآنسة منشن من السلّم ورأتها.

قالت بحدّة:

- خذي الطرود للسيّدة الصغيرة التي أُرسلت إليها. لا تقفي هناك وتحدّقي فيها.

أجابت سارا بهدوء:

- إنّها مرسلة إلي.

هتفت الآنسة منشن:

- إليكِ؟ ماذا تعنين؟

قالت سارا:

- لا أعلم من أين أُرسلت، لكنّها مرسلة إليّ. أنا أنام في العليّة التي على الجانب الأيمن. وبيكي في العليّة الأخرى.

وقفت الآنسة منشن بجانبها ونظرت إلى الطرود بحماس.

سألتها:

- ماذا في داخلها؟

أجابت سارا:

- لا أعلم.

أمرتها:

- افتحيها.

فعلت سارا ما أُمرت به. عندما فُتحت الطرود أصبح التعبير الذي على وجه الآنسة منشن فريداً. رأت داخل الطرود ثياباً جميلة ومريحة؛ ثياباً منوّعة: أحذية، جوارب، قفّازات، ومعاطف جميلة دافئة. وكانت هناك قبّعة لطيفة ومظلّة حتّى. جميعها كانت أشياء جيّدة وثمينة، وعلى جيب المعطف كانت هناك ورقة مثبّتة مكتوبة عليها هذه الكلمات: (للاستخدام اليوميّ. ستُستبدل بأُخرى عندما تدعو الحاجة لذلك).

اضطربت الآنسة منشن للغاية. فتحت هذه الحادثة احتمالات

غريبة في عقلها الخسّيس. هل يُعقل أنّها أخطأت، وأن للطفلة المنبوذة صديقاً قويّاً غريب الأطوار بعيداً عن الأنظار، ربّما كان هنالك قريب لم يُعرف عنه شيء من قبل، تتبّع آثارها حتّى عرف مكانها، وقرر أن يتولّى مصاريفها بهذه الطريقة المذهلة والغامضة؟ أحياناً يكون الأقارب غريبي الأطوار للغاية، خصوصاً الأعمام العزّاب الأثرياء المتقدّمون في العمر، الذين لا يفضّلون وجود الأطفال حولهم. رجلٌ من هذا النوع قد يفضّل رعاية شؤون قريبته الصغيرة عن بُعد. لكنّ رجلاً كهذا سيكون ميّالاً للعصبية وسريع الغضب بما يكفي ليشعر بالإهانة بسهولة. لن يكون الوضعُ جيّداً لو كان هناك شخص كهذا، وسيعرف كلّ التفاصيل بشأن الثياب الخفيفة الرثّة، والطعام القليل والعمل المضني. شعرت بشعور غريب للغاية، وبالحيرة الشديدة، ونظرت إلى سارا نظرة جانبيّة.

قالت بنغمة صوت لم تستخدمها معها منذ أن توفي والد الطفلة:

- حسناً، هناك شخص ما لطيف للغاية معكِ. بما أنّه أرسل الأغراض، وستحصلين على ثياب جديدة عندما تهترئ ثيابك، عليكِ على أيّة حال، أن تذهبي لارتدائها لتبدي أكثر احتراماً. بعد أن ترتديها يمكنكِ أن تأتي إلى الأسفل وتتلقّي دروسك في غرفة الصفّ. ليس هنالك حاجة لقيامك بأيّة مهام أخرى اليوم.

بعد نصف ساعة، عندما فتح باب غرفة الصف ودخلت سارا، شعر المعهد كله بالصدمة.

هتفت جيسي وهي تهز مرفق لاڤينيا:

- يا إلهي! انظري إلى الأميرة سارا!

حدّق بها الجميع، وعندما نظرت إليها لاڤينيا احمر وجهها.

لقد كانت الأميرة سارا بالتأكيد. لم تبدُ هكذا منذ أن انتهت الأيّام التي كانت فيها أميرة وولّت. لم تكن نفس سارا التي رؤوها تنزل السلالم الخلفيّة قبل ساعة واحدة. كانت ترتدي فستاناً من النوع الذي كانت لاڤينيا تحسدها على امتلاكه. كان لونه داكناً ودافئاً ومصنوعاً بمهارة. بدت قدماها الصغيرتان كما بدتا عندما أُعجبت بهما جيسي، وخصلات شعرها الكثيفة التي تجعلها تبدو كمهر من جزر شتلاند عندما تحيط بوجهها؛ مربوطة بشريط خلف رأسها.

همست جيسي:

- ربّما خلّف لها شخص ما ثروة، لطالما ظننت أن شيئاً ما سيحدث لها. إنّها غريبة للغاية.

قالت لاڤينيا بمرارة:

- ربّما ظهرت مناجم الماس فجأة مرّة أخرى، لا تسعديها بالتحديق فيها هكذا أيّتها السخيفة.

قالت الآنسة منشن بصوتها العميق:

- سارا. تعالي واجلسي هنا.

بينما كانت فتيات الصف بأكمله يحدّقن ويتدافعن بالمرافق،

وبالكاد يبذلن أيّ جهد ليخفين فضولهن وحماسهن؛ جلست سارا على مقعدها الشرفيّ السابق، وأحنت رأسها على كتبها.

في تلك الليلة، عندما صعدت لغرفتها، وبعد أن تناولت هي وبيكي عشاءهما، جلست وحدّقت في النار بجديّة لوقت طويل.

سألتها بيكي بصوت خفيض واحترام:

- هل تختلقين شيئاً في عقلكِ يا آنسة؟

في العادة، عندما تجلس سارا بصمت وتحدّق في الجمر بعينين حالمتين، فإنّ هذا يعني أنّها تختلق حكاية جديدة. لكنها لم تكن تفعل ذلك هذه المرة، وهزت رأسها.

أجابت:

- لا، كنت أتساءل عمّ يجب عليّ فعله.

ظلّت بيكي تحدّق فيها باحترام. كانت يملؤها إحساس يقارب التبجيل بصدد كلّ ما تقوله سارا وتفعله.

شرحت لها سارا:

- لا يمكنني التوقف عن التفكير في صديقي. لو كان يرغب في إبقاء هويّته سريّة، فمن الوقاحة أن أحاول اكتشاف من هو. لكنّني أريده أن يعرف كم أنا ممتنّة له وكم جعلني سعيدة. أيّ شخص لطيف سيحب أن يعرف عندما يُسعَد الآخرون. إنهم يهتمّون بهذا أكثر من اهتمامهم بشكر الناس لهم. أتمنّى.. أتمنّى..

وتوقّفت في اللحظة التي وقعت فيها عيناها على شيء موضوع على طاولة في الركن. كان شيئاً وجدته في الغرفة عندما دخلت إليها قبل يومين. وهي حقيبة كتابة مليئة بالورق والمظاريف والأقلام والحبر.

هتفت:

- أوه، لماذا لم أفكّر في هذا من قبل؟

وقفت واتّجهت إلى الركن وأحضرت الحقيبة معها جوار النار.

قالت بمرح:

- يمكنني أن أكتب إليه ملاحظة، وأتركها على الطاولة. عندها ربّما يقوم الشخص الذي يأخذ الأشياء بأخذها أيضاً. لن أطلب منه أيّ شيء. أشعر أنّه لن يمانع شكري له.

ثمّ كتبت ملاحظة، هذا ما قالته فيها:

«أتمنّى ألّا تعتبر كتابتي هذه الملاحظة لك، بينما ترغب بإخفاء هويتك؛ وقاحة. أرجوك، صدّق أنّني لا أقصد أن أكون وقحة أو أحاول اكتشاف أيّ شيء، أريد فقط أن أشكرك على لطفك معي؛ كل هذا اللطف السماويّ، ومحاولتك صنع كل شيء كقصّة خيالية. أنا ممتنة لك جداً، وأنا سعيدة للغاية، وكذلك بيكي. بيكي تشعر بنفس الامتنان الذي أشعر به، وهذا جميل ورائع بالنسبة لها كما هو بالنسبة لي. اعتدنا على أن نشعر بالوحدة والبرد والجوع، والآن.. أوه، فقط فكّر في كلّ ما فعلته لأجلنا! فقط اسمح لي بقول هذه

الكلمات رجاء. أشعر أنّني يجب أن أقولها. شكراً لك.. شكراً لك.. شكراً لك!».

الفتاة الصغيرة قاطنة العليّة

في الصباح التالي تركت هذه الورقة على الطاولة الصغيرة، وفي المساء كانت قد أُخذت مع أشياء أخرى، لذا عرفت أن ملاحظتها وصلت إلى الساحر، وصارت أسعد بهذه الفكرة. كانت تقرأ أحد كتبها الجديدة لبيكي قبل أن تذهب كلّ منهما لسريرها، حين أثار انتباهها صوتٌ في نافذة السقف. عندما رفعت رأسها من صفحة الكتاب رأت أن بيكي سمعت الصوت أيضاً، لأنها أدارت رأسها لتنظر وكانت تصغي ببعض التوتّر.

همست:

- شيء ما هناك يا آنسة.

أجابت سارا ببطء:

- أجل، يبدو كصوت قطة تحاول الدخول.

تركت مقعدها وذهب لنافذة السقف. كان الصوت الذي سمعته غريباً ومنخفضاً، كصوت الخدش الناعم. تذكرت شيئاً فجأة وضحكت. تذكرت الدخيل الصغير الظريف الذي دخل إلى العليّة ذات مرة. كانت قد رأته فيما بعد ظهيرة ذلك اليوم، يجلس بتعاسة على الطاولة أمام نافذة منزل السيّد الهنديّ.

همست بصوت متحمّس سعيد:

- فلنفترض.. فقط فلنفترض أنّ القرد يحاول الدخول مجدّداً. أوه أتمنّى ذلك!

صعدت على كرسي، ورفعت النافذة بحذر شديد، ثمّ استرقت النظر منها. كان الثلج يتساقط طوال اليوم. بجانبها تماماً، جثم مخلوق صغير يرتجف، وتجعّد وجهه الأسود في شفقة عندما رآها.

صاحت:

- إنّه القرد، لقد تسلّل من عليّة اللاسكار، ورأى الضوء.

أسرعت بيكي لجانبها. وقالت:

- هل تنوين السماح له بالدخول يا آنسة؟

أجابت سارا بسرور بالغ:

- أجل، الجو بارد للغاية بالنسبة للقرود كي تبقى خارجاً. إنّهم مرهفو الأحاسيس. سأغريه بالدخول.

مدّت يدها خارجاً برقّة، وهي تتحدّث بصوت محبّب -كما تتحدّث مع عصافير الدوريّ وملكي صادق- وكأنّها هي نفسها حيوان صغير ودود.

قالت:

- هيا، تعال أيها القرد العزيز. لن أؤذيك.

عرف أنّها لن تؤذيه. كان يعرف هذا قبل أن تضع يدها الناعمة

وتربّت عليه وتقرّبه منها. شعر بالحب البشريّ في اليدين السمراوين النحيلتين لرامداس، وشعر به في يديها. سمح لها بحمله عبر نافذة السقف، وعندما وجد نفسه بين ذراعيها التصق بصدرها ونظر إلى وجهها.

دندنت وهي تقبل رأسه المضحك:

- قردٌ لطيف! قردٌ لطيف! أوه، أحبّ الحيوانات الصغيرة.

كان واضحاً أنّه سعيد بالوصول إلى نار، وعندما جلست وأمسكت به على ركبتيها حوّل نظره بينها وبين بيكي وفيهما تعبير ممزوج من الفضول والتقدير.

قالت بيكي:

- إنّه عاديّ المظهر أليس كذلك يا آنسة؟

ضحكت سارا:

- إنّه يبدو كطفل قبيح للغاية. اعذرني أيها القرد، لكن أنا سعيدة لأنك لست طفلاً. لم تكن أمك لتفخر بك، ولن يجرؤ أحد على قول إنّك تشبه أيّاً من أقاربك. أوه، إنّني أحبّك للغاية!

ثمّ اتكأت على مقعدها وأخذت تفكّر. قالت:

- ربّما يشعر بالأسف لأنّه قبيح للغاية، ويفكّر في الأمر طوال الوقت. أتساءل إن كان يملك عقلاً. أيها القرد، يا عزيزي، هل تملك عقلاً؟

لكن القرد وضع يده الصغيرة على رأسه وأخذ يهرش فقط.

سألتها بيكي:

- ماذا ستفعلين به؟

- سأدعه ينام معي الليلة، ثمّ سأعيده للسيّد الهنديّ في الغد. أعتذر على إرجاعك أيّها القرد، لكن عليك أن تذهب. يجب أن تحبّ عائلتك الحقيقيّة، وأنا ليست لي قرابة حقيقية معك.

عندما ذهبت إلى فراشها صنعت له عشاً عند قدميها، فتكوم هناك ونام وكأنّه طفل صغير راض بمأواه.

(١٧)

إنّها الطفلة!

في عصر اليوم التالي، جلس ثلاثة أفراد من العائلة الكبيرة في مكتبة السيّد الهنديّ، محاولين بذل قصارى جهدهم ليُبهجوه. وقد سُمح لهم بالدخول لأنّه دعاهم بشكل شخصيّ ليؤدوا هذه الخدمة له. كان يعيش حالة من القلق لبعض الوقت، وقد كان اليوم ينتظر حدثاً معيناً في توتّر وترقب. وهذا الحدث هو عودة السيّد كارمايكل من موسكو. كانت مدة إقامته قد تمدّدت من أسبوع لآخر، لأنّه عندما وصل لم يستطع تتبّع آثار العائلة التي يبحث عنها بشكل مرضٍ. وعندما شعر بأنّه متأكّد من أنه وجدهم أخيراً ذهب لزيارة منزلهم، قيل له أنّهم غادروا في رحلة. لم تُجدِ محاولاته في الاتّصال بهم، لذا قرّر البقاء في موسكو حتّى عودتهم. جلس السيّد كارسفورد على مقعد قابل للطيّ وجلست جانيت التي كان يحبّها للغاية على الأرض بجواره. بينما جلست نورا على مسند للقدمين، وأمتطى دونالد رأس النمر الذي يزيّن السجادة المصنوعة من جلده. ولابد من الاعتراف بأنّه كان يفعل ذلك بعنف.

قالت جانيت:

- فلتهدأ يا دونالد، عندما تأتي للتخفيف عن مريض فعليك أن لا تستخدم أعلى صوتك. هل يزعجُك الصوت يا سيّد كارسفورد؟

واستدارت إلى السيّد الهنديّ.

لكنه ربت على كتفها فقط، وأجاب:

- لا ليس كذلك، كما أنّه يُشغلني عن التفكير كثيراً.

صرخ دونالد:

- سأبقى هادئاً، جميعنا سنبقى هادئين كالفئران.

قالت جانيت:

- الفئران لا تصدر كلّ هذه الجلبة.

صنع دونالد من منديله لجاماً وأخذ يقفز على رأس النمر.

قال بمرح:

- ولكن قد تصدر مجموعة كبيرة من الفئران هذه الجلبة، قد يصدر هذه الجلبة ألف فأر.

قالت جانيت بصرامة:

- لا أعتقد أنّ خمسين ألف فأر حتّى سيفعلون كلّ هذا، وعلينا أن نبقى هادئين كفأر واحد.

ضحك السيّد كارسفورد وربت على كتفها مرّة أخرى.

قالت:

- لن يتأخّر أبي كثيراً الآن، هل يمكننا أن نتحدّث عن الفتاة المفقودة؟

أجاب السيّد الهنديّ وهو يجعّد جبهته في تعب:

- لا أعتقد أنّني أستطيع التحدث عن أيّ شيء آخر الآن.

قالت نورا:

- إنّنا نحبها للغاية، ونطلق عليها لقب الأميرة الصغيرة التي ليست جنّية.

سألها السيّد الهنديّ:

- لماذا؟

فقد ساعدته خيالات العائلة الكبيرة على النسيان دوماً.

أجابت جانيت:

- لأنّها، ورغم أنّها ليست جنيّة، ستصبح ثريّة للغاية عندما تجدها، كالأميرات في القصص الخياليّة. كنا نناديها بالأميرة الجنيّة في البداية، لكن لم يكن هذا مناسباً تماماً.

قالت نورا:

- أصحيح أن والدها أعطى كلّ ماله لصديقه ليضعه في منجم للماس، وظن الصديق أنّه خسر كلّ شيء وهرب لأنّه شعر بأنّه لصّ؟

أضافت جانيت بسرعة:

- لكنّه لم يكن كذلك فعلاً كما تعلمين.

أمسك السيّد الهنديّ بيدها بسرعة، وقال:

- لا، ليس كذلك فعلاً.

قالت جانيت:

- أشعر بالأسف للصديق. لا يمكنني أن أقاوم هذا الشعور. لم يكن يقصد فعل ذلك، ولابد أنّ هذا حطّم قلبه. متأكّدة من أن هذا حطّم قلبه.

قال السيّد الهنديّ، وهو يُمسك بيدها قريباً منه:

- أنت امرأة صغيرة متفهّمة يا جانيت.

صرخ دونالد من جديد:

- هل أخبرتما السيّد كارسفورد عن الفتاة التي ليست متسوّلة؟ هل أخبرتماه أنّها ترتدي ثياباً جميلة الآن؟ ربّما كانت مفقودة أيضاً ووجدها شخص ما.

هتفت جانيت:

- هذا صوت عربة أجرة! لقد توقّفت أمام الباب. إنّه بابا!

وركضوا جميعاً صوب النوافذ ليتطلّعوا.

أعلن دونالد:

- أجل، إنّه بابا، لكن ليست معه أيّة فتاة صغيرة!

ركضوا ثلاثتهم من الغرفة وتدافعوا عبر الردهة. كانوا يرحّبون بوالدهم هكذا دوماً. وكان بالإمكان سماع أصواتهم وهم يقفزون، ويصفّقون، وهم يُحملون ويُقبلون.

بذل السيّد كارسفورد جهداً لكي يقف لكنّه تهاوى في مقعده من جديد وقال:

– لا فائدة، يا لي من رجل محطم!

اقترب صوت السيّد كارمايكل من الباب. كان يقول:

– لا يا أطفال، يمكنكم أن تدخلوا بعد أن أتحدّث مع السيّد كارسفورد. اذهبوا والعبوا مع رامداس.

ثم فتح الباب ودخل. بدا متورّداً أكثر من قبل، دخل وأدخل معه هالة من الصحّة والانتعاش إلى الغرفة، لكن عينيه كانتا محبطتين وقلقتين عندما التقتا بالسؤال المتلّهف في نظرة الرجل المريض وهما يتصافحان.

سأله السيّد كارسفورد:

– ما الأخبار؟ أخبار الطفلة التي تبنّاها الروس؟

أجاب السيّد كارمايكل:

– ليست هي الطفلة التي نبحث عنها، إنّها أصغر بكثير من ابنة النقيب كرو الصغيرة. واسمها هو إميلي كارو. لقد قابلتها وتحدّثت معها. وأخبرني الروس بكل التفاصيل.

بدا السيّد الهنديّ قلقاً وبائساً! وافلتت يده من قبضة السيّد كارمايكل.

قال:

- إذن يجب أن نبدأ البحث من جديد، هذا كلّ شيء. تفضل بالجلوس رجاءً.

اتخذ السيّد كارمايكل مقعداً. بطريقة ما بدأ يحبّ هذا الرجل التعيس. كان هو نفسه سعيداً ومعافى ومحاطاً بالبهجة والحب، فبدا المرض والكآبة شيئين لا يحتملان ومثيرين للشفقة. لو كان هناك صوت واحد مرح يافع حادّ النبرة في هذا المنزل، لأصبح أقلّ بؤساً. والرجل مجبر على تحمّل فكرة أنّه أخطأ في حقّ طفلة وتخلى عنها وهذا ليس بالشيء الذي يستطيع المرء مواجهته.

قال بصوته المرح:

- هيا، هيا، سنجدها في النهاية بالتأكيد.

قال السيّد كارسفورد بقلق:

- يجب أن نبدأ على الفور ولا نضيّع أيّ وقت. هل لديك أيّ اقتراح.. أيّاً يكن؟

شعر السيّد كارمايكل بالاضطراب، فوقف وبدأ يتجوّل في الغرفة وعلى وجهه تعبير حائر مفكّر.

قال:

- حسناً، لا أعرف إن كان هذا الاقتراح يستحقّ أن يؤخذ في

الاعتبار، لكن خطرت على بالي فكرة وأنا أقلّب الأمر في دماغي خلال رحلة القطار من دوفر.

- ما هي؟ إذا كانت على قيد الحياة فهي في مكان ما.

- أجل، إنّها في مكان ما. لقد بحثنا في مدارس باريس. دعنا نترك باريس ونبحث في لندن. هذه هي فكرتي؛ أن نبحث في لندن.

قال السيّد كارسفورد:

- نعم، هناك ما يكفي من المدارس في لندن.

ثمّ شعر بصدمة خفيفة بسبب فكرة خطرت على باله وقال:

- بالمناسبة هناك واحدة بجوارنا.

- إذن سنبدأ منها، ليس هناك من مكان أقرب من المنزل المجاور لنبدأ منه.

قال السيّد كارسفورد:

- لا، هناك طفلة تثير اهتمامي فيها، لكنها ليست طالبة. وهي فتاة صغيرة سمراء بائسة، مختلفة كلّ الاختلاف عن ابنة كرو المسكينة.

ربّما بدأ السحر عمله من جديد في تلك اللحظة؛ السحر الجميل. حقّاً بدا كذلك. وإلّا ما الذي أتى برامداس إلى الغرفة في تلك اللحظة -وسيده يتحدث- لينحني في احترام، وعيناه اللامعتان تبرقان بلمسة إثارة خفيّة سريّة؟

قال:

- صاحب، الفتاة نفسها أتت؛ الفتاة التي يشعر الصاحب بالشفقة عليها. لقد أحضرت القرد الذي هرب إلى عليّتها من جديد عبر السطح. لقد طلبتُ منها أن تبقى. ظننت أنّ الصاحب سيبتهج لرؤيتها والتحدّث معها.

سأل السيّد كارمايكل:

- من هي؟

أجاب السيّد كارسفورد:

- الرب وحده يعلم. إنّها الطفلة التي أخبرتك عنها. الفتاة الصغيرة التي تعمل في المدرسة.

وأشار بيده لرامداس وقال له:

- أجل، سأحبّ أن أراها. أحضرها إلى هنا.

ثمّ استدار للسيّد كارمايكل وشرح له:

- عندما كنتَ مسافراً، شعرت باليأس. كانت الأيّام تمرّ طويلة وكئيبة. وأخبرني رامداس عن مآسي هذه الطفلة، ووضعنا معاً خطّة رومانسية لمساعدتها. أعتقد أنّه كان أمراً طفولياً لنفعله، لكنّه منحني أمراً لأنشغل فيه. وبدون مساعدة رجل شرقيّ رشيق خفيف الخطوات كرامداس، لما أمكن تنفيذ الأمر.

دخلت سارا إلى الغرفة وهي تحمل القرد بين ذراعيها، وكان

واضحاً أنّه لا ينوي الافتراق عنها، لو أمكنه ذلك. كان يتشبّث بها ويقهقه، وأضفت الحماسة والإثارة التي شعرت بها لوجودها في غرفة السيّد الهنديّ حمرة على خديها.

قالت بصوتها الجميل:

- هرب قردك مرّة أخرى، وأتى لنافذة عليّتي الليلة الماضية، فأدخلته لأن الجوّ كان بارداً للغاية. كنت لأعيده لو لم يكن الوقت متأخراً جدّاً. أعلم أنّك مريض وقد لا تحبّ أن يزعجك شيء.

ثبّت الرجل الهنديّ عينيه المجوّفتين عليها في اهتمام وفضول.

قال:

- كان هذا مراعياً منكِ للغاية.

نظرت سارا إلى رامداس الذي وقف بقربها، وسألت:

- هل أعطيه للّاسكار؟

قال السيّد الهنديّ وعلى وجهه ابتسامة صغيرة:

- كيف تعرفين أنّه لاسكار؟

قالت سارا، وهي تناوله القرد الذي أخذ يقاوم:

- أوه، أعرف اللّاسكار لأنني ولدت في الهند.

انتصب السيّد الهنديّ في جلسته فجأة، وتغير التعبير الذي على وجهه، ففاجأها قليلاً للحظة.

هتف:

- أحقّاً وُلدت في الهند؟ تعالي إلى هنا.

ومدّ لها يده.

تقدّمت سارا نحوه ووضعت يدها في يده، بما أنّه بدا وكأنّه يريد امساكها، ووقفت ساكنة في مكانها. التقت عيناها الخضراوان بعينيه في استغراب. كان هناك خطب ما به.

سألها:

- أتعيشين في المنزل المجاور؟

- أجل، أعيش في معهد الآنسة منشن.

- لكنّك لست إحدى طالباتها؟

ظهرت ابتسامة صغيرة غريبة على شفتي سارا. وتردّدت للحظة.

أجابت:

- لا أعتقد أنّني أعرف من أنا بالضبط.

- لمَ؟

- في البداية كنتُ طالبة خاصّة، لكن الآن..

- كنتِ طالبة! وما أنت الآن؟

ظهرت الابتسامة الصغيرة الحزينة على وجه سارا من جديد.

قالت:

- أنام في العليّة بجوار خادمة غسل الأطباق، وألبّي طلبات الطبّاخة. أقوم بأيّ شيء تأمرني بفعله، وأدرّس الطالبات الصغيرات.

قال السيّد كارسفورد وهو يتهاوى على مقعده وكأنّه فقد قوته:

- اسألها يا كارمايكل، اسألها فأنا لا أستطيع.

كان ربّ العائلة الكبيرة اللطيف يعرف كيف يُلقي الأسئلة على الفتيات الصغيرات. لاحظت سارا كم كان خبيراً بذلك عندما تحدّث معها بصوته اللطيف المشجّع.

سألها:

- ماذا تقصدين بقولك «في البداية» يا طفلتي؟

- أقصد عندما أحضرني بابا إلى هناك.

- أين والدك؟

قالت سارا بهدوء شديد:

- لقد مات، لقد خسر كلّ ثروته ولم يُبق لي على أيّ شيء. لم يكن هناك أحد ليعتني بي ويدفع للآنسة منشن.

صاح السيّد الهنديّ بصوت عال:

- كارمايكل! كارمايكل!

قال السيّد كارمايكل له بصوت منخفض على الفور:

- يجب ألّا نخيفها.

وأضاف بصوت عال لسارا:

- عندها تمّ إرسالك إلى العليّة، وجعلوك خادمة صغيرة، هذا هو كلّ ما في الأمر، صحيح؟

قالت سارا:

- لم يكن هناك أحد ليعتني بي، ولم يكن لديّ مال. ليس لديّ أيّ أقارب.

قال السيّد الهنديّ لاهثاً:

- كيف فقد والدك ثروته؟

أجابت سارا وحيرتها تزداد مع كلّ لحظة تمر:

- لم يخسرها بنفسه، كان لأبي صديق يحبّه، يحبّه للغاية. صديقه هذا أخذ كلّ ماله. كان يثق به أكثر من اللازم.

ازدادت سرعة تنفس السيّد الهنديّ. قال:

- ربّما لم يكن صديقه يقصد أن يؤذيه، ربّما حدث خطأ ما.

لم تكن سارا تعلم كم كان صوتها اليافع الهادئ صارماً وهي تجيب. لو كانت تعلم، لحاولت أن تخفّفه لأجل السيّد الهنديّ.

قالت:

- كان عذاب أبي عظيماً. لقد قتله.

قال الرجل الهنديّ:

- ماذا كان اسم والدك؟ أخبريني.

أجابت سارا وهي تشعر ببعض الدهشة:

- اسمه هو رالف كرو، النقيب كرو. لقد توفّي في الهند.

انقبض الوجه المنهك، وأسرع رامداس إلى جانب سيّده.

شهق الرجل المريض:

- كارمايكل، إنّها الطفلة.. الطفلة!

ظنّت سارا للحظة أنّه سيموت. سكب رامداس عدّة قطرات من زجاجة، وقربها من شفتيه. وقفت سارا قربه، وهي ترتجف قليلاً. ونظرت بحيرة إلى السيّد كارمايكل.

قالت بحيرة:

- أيّة طفلة أنا؟

أجاب السيّد كارمايكل:

- لقد كان صديق والدك، لا تخافي. لقد كنّا نبحث عنكِ منذ سنتين.

وضعت يدها على جبهتها، وارتجف فمها. وتحدّثت وكأنّها في حلم.

قالت شبه هامسة:

- وأنا التي كنت في منزل الآنسة منشن طوال هذا الوقت، على الجانب الآخر من الجدار فقط.

(١٨)

حاولت أن لا أكون

السيّدة كارمايكل الجميلة الودودة هي التي شرحت كلّ شيء. أرسلوا إليها لتحضر على الفور، فجاءت عبر الساحة لتحتضن سارا بين ذراعيها الدافئتين وتشرح لها كلّ ما حدث. كانت الصدمة غير المتوقعة والإثارة المترافقة معها مجهدة للغاية للسيّد كارسفورد بسبب ضعف حالته.

قال بضعف للسيّد كارمايكل، بعد أن اقترحوا أن تذهب الطفلة إلى غرفة أخرى:

- يا إلهي، أشعر أنّني لا أريد أن أبعد عينيّ عنها.

قالت جانيت:

- سأعتني بها أنا، وستأتي ماما خلال بضع دقائق.

وكانت جانيت هي من أخرجتها من الغرفة.

قالت لها:

- نحن سعيدون لأنّهم وجودك. لا تعرفين كم نحن سعيدون بهذا.

وقف دونالد ويداه في جيبيه، ونظر إلى سارا بعينين متفكّرتين مؤنّباً نفسه.

قال:

- لو أنّني سألتك عن اسمك يوم أعطيتك نصف الشلن، لأخبرتِني أنّه سارا كرو، وعندها كانوا سيجدونك خلال دقيقة.

عندها دخلت السيّدة كارمايكل. بدا عليها التأثر الشديد، ثمّ احتضنت سارا بين ذراعيها فجأة وقبلتها.

قالت:

- تبدين حائرة أيّتها الفتاة الصغيرة المسكينة، وهذا ليس بالأمر المستغرب.

لم تستطع سارا أن تفكّر إلّا في أمر واحد. قالت وهي تلقي نظرة جانبيّة على باب المكتبة المغلق:

- هل كان هو.. هل كان هو الصديق الشرّير؟ أوه، أخبريني أرجوك!

كانت السيّدة كارمايكل تبكي وهي تقبّلها مرّة أخرى. كانت تشعر أنّها يجب أن تقبَّل كثيراً لأنها لم تقبل منذ فترة طويلة.

أجابت:

- ليس رجلاً شريراً يا عزيزتي، إنّه لم يفقد أموال والدك حقاً. لقد ظنّ أنّه فقدها، ولأنّه كان يحبه للغاية أصابه حزنه بمرض شديد ولم يكن عقله سليماً لبعض الوقت. كاد أن يموت من الحمّى الدماغيّة. وقبل أن يتعافى بوقت طويل توفي والدك المسكين.

غمغمت سارا:

- ولم يعرف أين يجدني، رغم أني كنت قريبة للغاية.

لسبب ما لم تستطع أن تنسى أنّها كانت قريبة منه للغاية.

شرحت لها السيّدة كارمايكل:

- كان يعتقد أنّكِ في مدرسة في فرنسا. وقد ضلّلته الكثير من الأدلّة الزائفة. لقد بحث عنك في كلّ مكان. وعندما كان يراك تعبرين أمام المنزل كلّ يوم، ويبدو عليك الحزن والإهمال، لم يحلم حتّى أن تكوني ابنة صديقه المسكينة، لكن لأنّكِ كنت طفلة صغيرة أيضاً، شعر بالأسف لأجلك، وأراد إسعادك. فأخبر رامداس أن يتسلّق عبر نافذة عليّتك ويحاول أن يجعلك أكثر راحة.

ارتعدت سارا مأخوذة بهذه المفاجأة السعيدة، وتغيّر التعبير الذي على وجهها بالكامل.

هتفت:

- أهو رامداس من كان يحضر تلك الأشياء؟ هل أخبَر رامداس أن يفعل ذلك؟ هل كان هو من جعل الحلم حقيقة؟

- أجل يا عزيزتي أجل! إنّه رجل لطيف وطيب، وشعر بالأسف لأجلك، من أجل سارا كرو المسكينة المفقودة.

فتح باب المكتبة وظهر السيّد كارمايكل، واستدعى سارا بإشارة.

قال:

- السيّد كارسفورد أصبح أفضل حالاً، ويريدك أن تدخلي إليه.

أسرعت سارا، وعندما نظر إليها السيّد الهنديّ وهي تدخل، رأى أنّ وجهها مشرق.

ذهبت ووقفت أمام مقعده، ويداها متشابكتان أمام صدرها، وقالت بصوتها اليافع المبتهج بانفعال:

- أأنت من أرسل الأشياء لي؟ الأشياء الجميلة، الجميلة جداً؟ لقد كان أنت من أرسلها!

أجابها:

- أيّتها الطفلة المسكينة العزيزة، أجل لقد فعلت.

كان رجلاً ضعيفاً، حطمته المشاكل والمرض الطويل، ولكنه نظر إليها بطريقة ذكّرتها بنظرة عيني والدها؛ نظرة تعني أنّه يحبها ويرغب في احتضانها بين ذراعيه. جعلها هذا تجثم على ركبتيها بجانبه، كما

اعتادت على فعل ذلك مع والدها عندما كانا أعزّ صديقين وحبيبين في العالم.

قالت:

- إذن أنت صديقي، أنت هو صديقي!

وأحنت رأسها على يده النحيلة وقبّلتها مرّة تلو الأخرى.

قال السيّد كارمايكل لزوجته على انفراد:

- سيستعيد الرجل عافيته خلال ثلاثة أسابيع. فقط انظري إلى وجهه كيف تغيّر.

وكان يبدو، في الحقيقة، مختلفاً بالفعل. ها هي (السيّدة الصغيرة) هنا، وأصبحت لديه أشياء جديدة ليفكّر فيها ويخطّط لها. أولاً، هناك السيّدة منشن. يجب أن يقابلها ويخبرها بالتغيّر الطارئ على مستقبل طالبتها.

لن تعود سارا إلى المعهد أبداً. كان السيّد الهنديّ مصمّماً على هذه النقطة. يجب أن تبقى حيث هي، وسيذهب السيّد كارمايكل لمقابلة الآنسة منشن بنفسه.

قالت سارا:

- أنا سعيدة لأنّه ليس عليّ العودة، ستكون غاضبة للغاية. إنّها لا تحبني، وربّما يكون هذا خطئي، لأنّني لا أحبّها.

لكن، يا للغرابة، جعلت الآنسة منشن زيارة السيّد كارمايكل

لها بدون داع، فقد أتت بنفسها بحثاً عن طالبتها. كانت تريد سارا في أمر ما وحين سألت عنها سمعت شيئاً مذهلاً. رأتها إحدى الخادمات تتسلّل من دهليز المطبخ وهي تحمل شيئاً مخبّئاً أسفل عباءتها، ورأتها تصعد درجات المنزل المجاور وتدخل إليه.

صاحت الآنسة منشن مخاطبة الآنسة أميليا:

- ما الذي ترمي إليه بفعلتها هذه!

أجابت الآنسة أميليا:

- لا أعلم يا أختي، إلّا إن كانت قد أقامت معه صداقة لأنّه عاش في الهند.

قالت الآنسة منشن:

- لن أستغرب إن فرضَت نفسها عليه وحاولت استجداء عطفه بطريقة وقحة ما، لابد أنّها في منزله منذ ساعتين. لن أسمح بهذه الوقاحة. سأذهب وأستفسر عن الأمر، وأعتذر عن تطفّلها.

كانت سارا تجلس على مسند للقدمين قرب ركبة السيّد الهنديّ، تستمع لأمر من الأمور العديدة التي كان يشعر أنّ عليه تفسيرها لها، عندما أعلن رامداس عن وصول الزائرة.

وقفت سارا بغير إرادتها وقد شحب وجهها، لكن السيّد كارسفورد رأى أنّها وقفت بهدوء، ولم تظهر أيّاً من علامات خوف الأطفال المعتادة.

دخلت الآنسة منشن الغرفة بصرامة ووقار. كانت ترتدي ثياباً أنيقة مناسبة، وبدت مهذّبة ومتزمّتة.

قالت:

- أعتذر عن ازعاج السيّد كارسفورد، لكن لديّ ما أوضحه. أنا الآنسة منشن، مالكة معهد الفتيات الشابات المجاور لمنزلك.

تفحصها السيّد الهنديّ لدقيقة بصمت. كان رجلاً سريع الغضب بطبيعته، ولم يكن يرغب في أن يسمح لطبيعته هذه أن تُفلته من زمامه.

قال:

- أنت إذن الآنسة منشن؟

- أجل يا سيدي.

أجاب السيّد الهنديّ:

- في هذه الحالة، لقد وصلتِ في الوقت المناسب. كان المحامي الخاص بي السيّد كارمايكل على وشك القيام بزيارتك.

انحنى السيّد كارمايكل انحناءة صغيرة، ونقّلت الآنسة منشن نظرها منه إلى السيّد كارسفورد في ذهول.

قالت:

- محاميك! لا أفهم. لقد أتيت إلى هنا لأنّ هذا واجبي.

اكتشفت للتو أن وقاحة إحدى الطالبات جعلتها تتطفل عليك؛ طالبة خيرية. وأتيت لأشرح لك أنّها فعلت ذلك بدون علمي.

واستدارت إلى سارا وأمرتها بسخط:

- عودي إلى المنزل على الفور. ستُعاقبين على هذا بشدّة. اذهبي حالاً!

سحب السيّد الهنديّ سارا إلى جانبه وربت على يدها.

- لن تذهب.

شعرت الآنسة منشن أنّها فقدت عقلها بالتأكيد، كرّرت خلفه:

- لن تذهب!

قال السيّد كارسفورد:

- أجل، لن تذهب إلى المنزل، إذا كان هذا ما تطلقينه على ذلك المكان. منزلها سيكون معي منذ الآن وصاعداً.

تراجعت الآنسة منشن في غضب وذهول وقالت:

- معك! معك يا سيدي! ماذا يعني هذا؟،

قال السيّد الهنديّ:

- اشرح الأمر لو سمحت يا كارمايكل، وأنهِ هذا الأمر بأسرع ما يمكن.

وجعل سارا تجلس من جديد، وأمسك بيديها في يديه، وهي

حيلة أخرى من حيل والدها. بعدها شرح السيّد كارمايكل لها بهدوء وثبات واعتدال رجل خبير في القضية، وكلّ أهميتها القانونيّة، وهو أمر تفهمه الآنسة منشن كونها امرأة أعمال، وإن لم تكن تستمتع به.

قال:

- إنّ السيّد كارسفورد يا مدام، كان صديقاً مقرّباً من الراحل النقيب كرو. وكان شريكه في بعض الاستثمارات الضخمة. الثروة التي اعتقد النقيب كرو أنّه فقدها استعيدت، وهي بين يدي السيّد كارسفورد الآن.

صاحت الآنسة منشن:

- الثروة!

وشحب وجهها وهي تهتف:

- ثروة سارا!

أجاب السيّد كارمايكل ببرود:

- ستصبح ثروة سارا، وهي في الحقيقة ملك لها، الآن. ظروف معينة ضاعفت الأموال فأصبحت ثروتها هائلة. لقد أتت مناجم الماس أُكُلها.

شهقت الآنسة منشن:

- مناجم الماس!

لو كان هذا الأمر حقيقياً، فهذا يعني أنّه لم يمرّ بها شيء بهذه الفظاعة منذ اليوم الذي ولدت فيه.

كرر السيّد كارمايكل:

- مناجم الماس.

ولم يستطع مقاومة أن يضيف، بابتسامة خبيثة لا تناسب محامياً:

- هناك أميرات قليلات في هذا العالم أكثر ثراء مما ستصبح عليه طالبتك الخيرية سارا كرو يا آنسة منشن. كان السيّد كارسفورد يبحث عنها منذ سنتين تقريباً، ووجدها أخيراً وسيبقيها معه.

وبعد أن طلب من الآنسة منشن أن تجلس، بدأ يفسّر لها الأمور بوضوح، وتعمّقَ في التفاصيل بقدر الحاجة ليوضّح لها أنّ مستقبل سارا مضمون، وأنّ ما بدا مفقوداً سيُعاد إليها عشرة أضعاف، وأن السيّد كارسفورد سيكون وليّ أمرها وصديقها أيضاً.

لم تكن الآنسة منشن بالمرأة الذكية، وفي حالتها المنفعلة تلك كانت سخيفة بما يكفي لتحاول محاولة أخيرة يائسة لتستعيد ما لم تستطع تحمل رؤية نفسها تخسره بسبب حمقها وماديتها.

اعترضت:

- لقد وجدها في رعايتي، لقد فعلتُ كلّ شيء لأجلها. لولاي لتضوّرت جوعاً في الشوارع.

هنا فقد السيّد الهنديّ أعصابه.

قال:

- كانت لتتضوّر جوعاً في الشوارع، ولكنّها كانت لتكون في راحة أكبر مما كانت عليه في عليّتك.

جادلته الآنسة منشن:

- لقد تركها النقيب كرو في رعايتي، ويجب أن تبقى عندي حتّى تبلغ عمراً مناسباً. يمكنها أن تصبح طالبة ذات مميّزات من جديد. يجب أن تُكمل تعليمها. وسيحكم القانون لصالحي.

تدخل السيّد كارمايكل:

- لا، لا يا آنسة منشن، لن يفعل القانون شيئاً كهذا. لو كانت سارا نفسها تريد العودة إليكِ، أجرؤ على قول إن السيّد كارسفورد لن يمانع. لكن هذا يتوقف على سارا.

قالت الآنسة منشن:

- إذاً، أنا أناشد سارا.

قالت بحرج للفتاة الصغيرة:

- ربّما لم أدلّلكِ، لكنّك تعلمين أنّ والدك كان راضياً عن تقدّمك عندي. و.. إحم.. لطالما أحببتك.

ثبتت سارا عينيها الخضراوين عليها بالنظرة الهادئة الفطنة التي كانت الآنسة منشن تميّزها وتكرهها.

قالت:

- هل أحببتني حقاً يا آنسة منشن؟ لم أكن أعلم هذا.

احمرّ وجه الآنسة منشن ووقفت وقالت:

- كان يجب أن تعلمي هذا، لكنّ الأطفال للأسف لا يعرفون ما هو الأفضل لهم أبداً. لطالما قلت أنا وأميليا أنّكِ أذكى طالبة في المدرسة. ألن تقومي بواجبك تجاه والدك وتعودي معي إلى المنزل؟

تقدّمت سارا باتّجاهها خطوة ووقفت بهدوء. كانت تفكّر في اليوم الذي أخبرتها فيه أنّها لم تعُد تنتمي لأحد وأنّها مهدّدة بأن تُلقى في الشوارع، كانت تفكر في الساعات التي عانت فيها من البرد والجوع وحدها مع إميلي وملكي صادق في العليّة. ونظرت بثبات لوجه الآنسة منشن.

قالت:

- أنتِ تعرفين يا آنسة منشن لماذا لن أذهب معكِ، تعرفين ذلك حقّ المعرفة.

ظهرت حمرة شديدة على وجه الآنسة منشن الغاضب المتصلّب.

قالت:

- لن تقابلي زميلاتك بعد الآن، سأتأكّد من أن تبقى إرمينغارد ولوتي بعيدتين..

أوقفها السيّد كارمايكل بصرامة مهذبة.

قال:

- اعذريني، ستقابل أيّ شخص ترغب في مقابلته. لن يرفض آباء زميلات الآنسة كرو دعواتها إلى زيارتها في منزل وليّ أمرها. سيحرص السيّد كارسفورد على حصول ذلك.

يجب الاعتراف بأنّ الآنسة منشن جفلت. كان هذا أسوأ من العم الأعزب غريب الأطوار الذي قد يكون عصبيّ المزاج ويشعر بالإهانة من المعاملة التي تلقّتها ابنة أخيه. امرأة ذات عقل خسيس لن تُنكر حقيقة أنّ معظم الأشخاص لن يمنعوا أطفالهم من أن يبقوا أصدقاء مع وريثة مناجم ماس صغيرة. ولو قرر السيّد كارسفورد أن يخبر بعض عملائها عن كم كانت سارا كرو تعيسة، قد يتسبّب ذلك بعواقب وخيمة.

قالت للسيّد الهنديّ وهي تستدير لتخرج:

- المسؤولية التي تحمّلتُها ليست بالسهلة، وسرعان ما ستكتشف هذا. الفتاة ليست صادقة ولا تحفظ الجميل..

ثم وجهت كلامها لسارا:

- أفترض أنّكِ تشعرين بأنّكِ أميرة من جديد.

خفضت سارا نظرها واحمرّت قليلاً، لأنّها اعتقدت أنّ خيالها المفضّل لن يكون سهل الفهم أو القبول بالنسبة للغرباء، حتّى اللطفاء منهم.

أجابت بصوت منخفض:

- حاولت ألّا أكون أيّ شيء آخر، حتّى في أشد لحظات البرد والجوع. حاولت ألّا أكون.

قالت الآنسة منشن بحقد، فيما كان رامداس يرافقها للخروج من الغرفة:

- لن يكون عليكِ التظاهر بذلك بعد الآن.

عادت إلى المنزل ودخلت إلى غرفة جلوسها، واستدعت الآنسة أميليا على الفور. اختليتا لما تبقّى من فترة ما بعد الظهيرة، ولا بدّ من الاعتراف بأنّ الآنسة أميليا المسكينة مرّت بأكثر من ربع ساعة عصيبة. ذرفت فيها الكثير من الدموع، وفركت عينيها كثيراً. وكانت إحدى ملاحظاتها البائسة ستجعل أختها تخلع رأسها عن جسدها، ولكن بدلاً من ذلك نتج عنها سلوك غير اعتيادي.

قالت:

- أنا لست بذكائك يا أختي، وأحجم عن قول الكثير لأنني أخاف إغضابك. ولكن، ربّما لو لم أكن بهذا الجبن لكان هذا أفضل للمدرسة ولكلتينا. يجب أن أقول إنّني اعتقدت لوقت طويل أنّه من الأفضل أن تكوني أقلّ قسوة على سارا كرو، وأن توفّري لها ثياباً جيّدة وتحرصي على راحتها. كنت أعلم أنّها تقوم بعمل مضنٍ بالنسبة فتاة في عمرها، وكنت أعلم أنّها لا تأكل ما يكفي..

هتفت الآنسة منشن:

- كيف تجرُئين على قول ذلك؟

أجابت الآنسة أميليا بنوع من الشجاعة المتهوّرة:

- لا أعلم كيف أجرؤ، لكن سأكمل ما بدأته، مهما تكن العواقب. كانت طفلة ذكية وجيدة، وكانت لتردّ لكِ أيّ لطف تُظهرينه لها. لكنّك لم تُظهري لها أيّ لطف. والحقيقة هي أنّها كانت ذكيّة أكثر من اللازم بالنسبة لكِ، لطالما أبغضتِها لهذا السبب. كانت تقرؤنا كلتينا ككتاب مفتوح..

شهقت أختها الكبرى الغاضبة:

- أميليا!

وبدت وكأنّها ستقرص أذنيها وتضربها حتّى تُطيح بقلنسوّتها، كما تفعل لبيكي دوماً.

لكن الإحبّاط الذي شعرت به الآنسة أميليا جعلها هستيرية بما يكفي كي لا تهتم بما يمكن أن يحصل فيما بعد.

صرخت:

- كانت تفعل! كانت تفعل! لقد عرفتنا حق المعرفة. كانت تعلم أنّكِ امرأة قاسية ماديّة، وأنني حمقاء ضعيفة، وأنّ اثنتينا مبتذلتان وخسّيستان بما يكفي لنركع على ركبتينا لأجل أموالها، وأن نسيء معاملتها عندما تفقدها، رغم أنّها حافظت على أخلاقها كأميرة صغيرة حتّى عندما كانت متسوّلة. لقد فعلت.. لقد فعلت.. كأميرة صغيرة!

ثم سيطرت هذه النوبة الهستيريّة على المرأة المسكينة فبدأت تضحك وتبكي في نفس الوقت، وتأرجح جسدها للأمام والخلف.

صرخت بجنون:

- والآن خسرتها، ومدرسة أخرى ستحصل عليها هي ومالها، ولو كانت كأيّة طفلة أخرى فستحكي للجميع كيف عُوملت هنا، وسنخسر كلّ طالباتنا ونفلس. ونستحقّ هذا، ولكنك تستحقّين هذا أكثر مما أستحقّه أنا، لأنّك امرأة قاسية. ماريا منشن، أنت امرأة قاسية أنانيّة ماديّة!

كانت تصدر الكثير من الضجّة باختناقاتها وكركراتها الهستيريّة فأجبرت أختها على أن تذهب إليها وتقدّم لها أملاح الشم[1] ليعود لها صوابها وتهدأ، بدلاً من أن تصبّ جامّ سخطها عليها بسبب جرأتها.

وربّما يجب علينا أن نذكر، أنّه منذ تلك اللحظة، بدأت الآنسة منشن الأكبر عمراً تشعر ببعض الخوف من أختها، التي رغم أنّها تبدو غبيّة، إلّا أنّها ليست كذلك تماماً، وربّما كانت نتيجة لذلك، أنّها ستنفجر وتقول الحقائق التي لا يرغب الناس في سماعها.

في تلك الليلة عندما اجتمعت الطالبات أمام النار في غرفة الصفّ، كما هي عادتهنّ قبل الخلود إلى النوم، دخلت إرمينغارد حاملة رسالة وعلى وجهها المدوّر تعبير غريب. وكان غريباً لأنّه

(١) أملاح الشم: تعرف أيضاً باسم النشادر وهو مركب كيميائي يطلق غاز الأمونياك الذي يستخدم لإثارة الوعي.

خليط من البهجة والإثارة وذهول لا يتناسب إلّا مع صدمة كبيرة تلقّتها للتوّ.

هتف صوتان أو ثلاثة في نفس الوقت:

- ما الخطب؟

قالت لاڤينيا بلهفة:

- هل لهذا أيّة علاقة بالجلبة التي حصلت في المنزل اليوم؟ فقد كانت هناك جلبة عالية تصدر من غرفة الآنسة منشن، وأصيبت الآنسة أميليا بشيء كنوبة هستيريّة وكان عليها أن تذهب لفراشها.

أجابتهم إرمينغارد ببطء، وكأنّها شبه مصدومة، ومدّت يدها ليروا طول الرسالة:

- وصلتني هذه الرسالة للتوّ من سارا.

هتفت كلّ الأصوات في دهشة:

- مِن سارا!

صرخت جيسي:

- أين هي؟

قالت إرمينغارد:

- في المنزل المجاور، مع السيّد الهنديّ.

- أين؟.. أين؟... هل طُردت من المنزل؟.. هل تعرف الآنسة

منشن بهذا الأمر؟.. هل كانت الجلبة متعلّقة بهذا الأمر؟...
أخبرينا!.. أخبرينا!

وعمّ الصخب في المكان، وشرعت لوتي بالبكاء.

أجابتهنّ إرمينغارد ببطء، وكأنّها كانت غارقة في ما بدا كأكثر الأمور أهميّة ومنطقيّة في تلك اللحظة.

قالت بصيغة تأكيد:

- كانت هناك مناجم للماس، كانت موجودة!.

فُتحت العيون والأفواه أمامها.

أكملت بعجالة:

- كانت مناجم الماس حقيقيّة، وما حدث كان مجرّد خطأ. شيء ما حدث واستمرّ لبعض الوقت، واعتقد السيّد كارسفورد أنّهما أفلسا.

صرخت جيسي:

- من هو السيّد كارسفورد؟

- إنّه السيّد الهنديّ. وظنّ النقيب كرو ذلك أيضاً، وتوفي، وأصيب السيّد كارسفورد بحمى دماغيّة وهرب، وكاد أن يموت. لم يكن يعلم أين هي سارا. وفي النهاية اكتشفوا أن هناك ملايين وملايين من قطع الماس في المناجم، نصفها ملك لسارا. كانت تملك كلّ هذا بينما هي تعيش في العليّة،

وصديقها الوحيد هو ملكي صادق، والطبّاخة تتسلط عليها. وجدها السيّد كارسفورد عصر هذا اليوم، وأخذها لمنزله. لن تعود إلى هنا أبداً، وستعيش كأميرة أكثر من أيّ وقت مضى، أكثر بمائة وخمسين ألف مرة. وسأذهب لزيارتها عصر يوم الغد. هناك!

حتّى الآنسة منشن لم تكن لتستطيع السيطرة على الفوضى التي عمّت المكان بعد هذا، ورغم أنّها سمعت الضجيج، إلّا أنّها لم تحاول إيقافه. لم تكن في مزاج ملائم لمواجهة أيّ شيء أكثر مما واجهته في غرفتها. بينما كانت الآنسة أميليا تنوح في فراشها. كانت تعلم أن الأخبار عبرت من خلال الجدران بطريقة ما غريبة، وأن كلّ الأطفال والخدم سيناموين وهم يتناقشون في الأمر.

لذا، وحتّى منتصف الليل، ظلّ ساكنو المعهد بأكملهم متجمّعين حول إرمينغارد في غرفة الصفّ، وقد عرفوا بطريقة ما أنّ كلّ القوانين سيتمّ التغاضي عنها اليوم، واستمعوا عدّة مرّات للرسالة التي احتوت على قصّة رائعة كأيّ من القصص التي كانت سارا تختلقها، لكن كان لها سحر مذهل كونها حدثت لسارا نفسها والرجل الهنديّ الغامض في المنزل المجاور بالذات.

سمعت بيكي القصّة أيضاً، وتمكنت من التسلل للطابق العلويّ في وقت أبكر من العادة. أرادت أن تبتعد عن الناس وتلقي نظرة أخرى على الغرفة السحريّة الصغيرة. لم تكن تعلم ماذا سيحلّ بالغرفة. لكن على الأغلب لن تُترك الأشياء للآنسة منشن،

وستؤخذ بعيداً، وستعود العليّة فارغة وقبيحة من جديد. بقدر ما كانت سعيدة لأجل سارا، إلّا أنّها صعدت آخر سلم مؤدٍّ لطابق العليّة وغصّة تخنق حلقها والدموع تغشى عينيها. لن تكون هناك نار الليلة، ولا مصباح أحمر، ولا عشاء، ولا أميرة تجلس في الوهج تقرأ أو تروي القصص.. لا أميرة!

أوقفت شهقة كادت أن تفلت منها وهي تدفع باب العليّة، ثمّ انفجرت في بكاء مكتوم.

كان المصباح يتوهّج في الغرفة، والنار تتأجّج، والعشاء ينتظر، ورامداس يقف أمام وجهها المصدوم بابتسامة.

قال:

- لقد تذكّرت ميسي صاحب، وأخبرت الصاحب بكل شيء. وهي ترغب في أن تعلمي بأن الحظّ قد ابتسم لها. هناك رسالة على الصينيّة، كتبتها هي بنفسها لأنّها لم ترغب في أن تنامي تعيسة. الصاحب يأمركِ بالقدوم لزيارته بالغد. ستصبحين مرافقة لميسي صاحب. أمّا هذه الليلة فسأعيد هذه الأشياء عبر السطح.

وبعد أن قال كلّ هذا بوجه متوهّج، انحنى لها وتسلّل عبر نافذة السقف بهدوء ورشاقة أظهرا لبيكي كم كان سهلاً عليه فعل ذلك من قبل.

(١٩)

آن

لم يسبق للفرح أن خيّم على حضانة العائلة الكبيرة كما اليوم. لم يحلموا من قبل بمثل هذه المسرّات الناتجة عن علاقتهم المقرّبة من (الفتاة الصغيرة التي ليست متسوّلة). فالمعاناة والمغامرات التي خاضتها فحسب، جعلت وجودها بينهم لا يقدّر بثمن. أراد الجميع أن يُحكى لهم مرّة بعد أخرى عن الأشياء التي حدثت لها. عندما يجلس المرء أمام دفء النار في غرفة كبيرة مضاءة، فمن الممتع أن يستمع لقصّة تصف شدّة برودة عليّة. ولابد من الاعتراف بأنّ الجميع أحبّوا العليّة، وأنّ برودتها وفراغها يفقدان أهميتهما عندما يُذكر ملكي صادق، ويُسمع عن عصافير الدوري والأشياء التي يستطيع المرء رؤيتها إذا ما وقف على الطاولة وأخرج رأسه وكتفيه من نافذة السقف.

أكثر قصّة أحبّوها بالطبع هي قصّة الوليمة والحلم الذي تحقّق. حكت سارا لهم عن ذلك لأول مرّة في اليوم التالي لعثورهم عليها. قدِم عدد من أفراد العائلة الكبيرة ليشربوا الشاي معها، وروت

لهم القصّة بأسلوبها بينما جلس بعضهم أو استلقى على السجادة التي أمام المدفأة، وكان السيّد الهنديّ يستمع إليها ويراقبها. عندما انتهت نظرت إليه ووضعت يدها على ركبته.

قالت:

- هذا هو جانبي من القصّة، ألّا يجب أن تحكي عن جانبك منها الآن يا عم توم؟ لا أعرف ماذا حدث معك بعد، ولا بدّ أنّها قصّة جميلة.

وكان قد طلب منها أن تناديه بالعم توم دوماً.

لذا روى لهم كيف كان يجلس وحيداً يكابد المرض والاكتئاب والقلق، ورامداس يحاول تسليته بوصف العابرين أمام المنزل، وكانت هناك طفلة معينة تمرّ أكثر من أيّ شخص آخر، وبدأت تثير اهتمامه؛ ربّما كان جزءاً من السبب أنّه يفكّر كثيراً في طفلة صغيرة، والجزء الآخر لأن رامداس استطاع أن يحكي له عن حادثة زيارته لعليّتها وهو يلاحق القرد. حكى له عن مظهر الغرفة الموحش، ومعاناة الطفلة، التي بدت وكأنّها لا تنتمي لطبقة الخدم والكادحين. اكتشف رامداس تعاسة حياتها شيئاً فشيئاً، واكتشف حقيقة مدى سهولة تسلّق الياردات القليلة التي تفصل نافذة السقف عن عليّته، وهذه الحقيقة كانت بداية كلّ ما تلاها.

قال ذات يوم:

- صاحب، يمكنني أن أعبر على ألواح السقف وأشعل للفتاة

ناراً حين تخرج في مهمة ما. عندما تعود، وهي مبلّلة وتشعر بالبرد، وتجدها تتأجّج في الموقد، ستعتقد أنّ ساحراً فعل هذا.

كانت الفكرة عجيبة للغاية، حتّى أن وجه السيّد كارسفورد الحزين أضاء بابتسامة، وابتهج رامداس لهذا وأخذ يوسّع الفكرة وشرح لسيده كم سيكون سهلاً إنجاز عدد من الأشياء الأخرى أيضاً. وقد أظهر سروراً وابتكاراً طفوليّين، وملأ التخطيط لتنفيذ الخطّة الكثير من الأيّام بالإثارة بدلاً من السأم والضجر. في ليلة الوليمة الفاشلة كان رامداس يراقب ما يحدث، وجميع صناديقه جاهزة في العليّة الخاصة به، وانتظر معه الشخص الذي سيساعده، وقد أثارت المغامرة اهتمامه بنفس القدر. كان رامداس مستلقياً على ألواح السقف، ينظر عبر نافذة السقف، حين انتهت الوليمة بذلك الشكل الكارثي، كان واثقاً من أنّ سارا ستنام نوماً عميقاً بسبب الإرهاق، ثمّ وباستخدام مصباح قابل للإعتام، تسلل إلى الغرفة، بينما ظلّ رفيقه في الخارج وناوله الأشياء. حين تقلّبت سارا قليلاً في نومها أغلق رامداس مصراع المصباح واستلقى على الأرض. اكتشف الأطفال هذا وكثيراً من الأمور الأخرى المثيرة بإلقائهم ألف سؤال وسؤال.

قالت سارا:

- أنا سعيدة للغاية، أنا سعيدة للغاية لأنّك كنت صديقي!

قامت صداقة خاصة بين هذين الاثنين لم يُرَ لها مثيلٌ. كان واضحاً

أنّهما يناسبان بعضهما بطريقة جميلة. لم يحبّ السيّد الهنديّ رفيقة كما أحبّ سارا. وخلال شهر أصبح كما تنبّأ السيّد كارمايكل، رجلاً جديداً. كان سعيداً ومتحمّساً طوال الوقت، وبدأ يجد متعة حقيقيّة في امتلاك ثروة تخيّلَ في وقت ما أنّه يكرهها وأنّها تثقل كاهله. كانت هناك أشياء كثيرة ساحرة ليخطّطها لأجل سارا. وكانت هناك مزحة صغيرة بينهما على أنّه ساحر، وأنّ واحدة من مسرّاته هي اختراع الأشياء لمفاجأتها. فكانت تجد أزهاراً جميلة جديدة تنمو في غرفتها، أو هدايا صغيرة غريبة مخبّأة أسفل وسائدها، ومرة بينما كانا يجلسان معاً في المساء، سمعا صوت خدش مخلب كبير على الباب، وعندما ذهبت سارا لتفقد الأمر، وجدت كلباً كبيراً، كلباً روسيّاً ضخماً جميلاً، وعلى رقبته طوق ذهبيّ وفضيّ مكتوب عليه (أنا بوريس، خادم الأميرة سارا).

لم يكن السيّد الهنديّ يحبّ شيئاً أكثر من ذكرى الأميرة الصغيرة وهي ترتدي الأسمال والخرق. كانت الأيّام التي تأتي فيها العائلة الكبيرة أو إرمينغارد ولوتي للزيارة والاستمتاع بإمضاء الوقت معاً بهيجة للغاية، لكن الساعات التي تمضيها سارا والسيّد الهنديّ جالسين وحدهما يقرآن أو يتحدّثان معاً لها سحرها الخاص. وخلالها حدثت الكثير من الأمور المثيرة للاهتمام.

في إحدى الأمسيات رفع السيّد كارسفورد رأسه من كتابه، ولاحظ أنّ رفيقته لم تتحرك منذ بعض الوقت. كانت تجلس وتحدّق في النار.

سألها:

- ماذا «تفترضين» يا سارا؟

رفعت سارا رأسها وخدّاها محمرّان، قالت:

- كنت أفترض. تذكّرت يوماً شعرت فيه بالجوع، وطفلة رأيتها.

قال السيّد الهنديّ بنبرة حزينة في صوته:

- لكنّك شعرت بالجوع في أيّام كثيرة، أيّ يوم كان ذلك تحديداً؟

قالت سارا:

- نسيت أنّك لا تعلم. كان اليوم الذي تحقّق فيه الحلم.

ثم أخبرته بقصّة المخبز، والأربعة بنسات التي التقطتها من الوحل اللزج، والطفلة التي كانت جائعة أكثر منها. حكت له الأمر ببساطة شديدة، وبأقلّ كلمات ممكنة، ومع ذلك شعر الرجل الهنديّ بحاجة لأن يغطّي عينيه بيديه وينظر إلى السجّادة.

قالت، بعد أن انتهت:

- لذا كنت أفترض خطة، وأفكر أنّني أريد أن أقوم بشيء ما.

قال السيّد كارسفورد بصوت منخفض:

- ماذا؟ يمكنكِ أن تفعلي أيّ شيء ترغبين به يا أميرة.

ترددت سارا قليلاً:

- كنت أتساءل، كما تعلم، أخبرتَني أنّني أملك الكثير من المال، وكنت أتساءل إن كنت أستطيع زيارة بائعة الكعك وأخبرها أن تُدخل الأطفال الجياع وتعطيهم شيئاً ليأكلوه عندما يأتون -خصوصاً في أيّام رهيبة كتلك- ويجلسون على الدرجات التي أمام الباب أو ينظرون عبر واجهة المتجر، ويمكنها أن ترسل لي الفواتير. هل أستطيع فعل ذلك؟

قال الرجل الهنديّ:

- عليك بهذا في صباح الغد.

قالت سارا:

- شكراً لك، كما ترى، أنا أعرف معنى أن يكون المرء جائعاً، ويشتدّ الجوع عندما لا تستطيع التخلّص منه حتّى بالتظاهر.

قال الرجل الهنديّ:

- أجل، أجل يا عزيزتي. أجل، أجل، لابد أنّه كذلك. حاولي أن تنسي الأمر. تعالي واجلسي على مسند القدمين هذا بجانب ركبتي، انسي كل ذلك وتذكري فقط أنّكِ أميرة.

قالت سارا بابتسامة:

- أجل، ويمكنني أن أوزّع الكعك والخبز على عامة الشعب.

ذهبت وجلست على مقعد القدمين، وقام الرجل الهنديّ -الذي كان يحب أن تناديه بهذا أيضاً أحياناً- بوضع رأسها الصغير الأسود على ركبته وأخذ يمسّد شعرها.

في الصباح التالي، عندما نظرت الآنسة منشن خارج نافذتها، رأت أموراً ربّما صارت أكثر ما كرهته في حياتها. رأت عربة السيّد الهنديّ، والجياد الطويلة التي تجرّها تتوقف أمام باب المنزل المجاور، ومالكها وفتاة صغيرة تتدفأ بالفراء الثمين الناعم ينزلان درجات السلّم ليركبا فيها. كانت تعرف الفتاة الصغيرة، وذكّرها هذا بأيّام أصبحت من الماضي. لحقت بهما فتاة أخرى صغيرة مألوفة، وقد أثارت رؤيتها غضبها لأقصى حد. كانت الفتاة هي بيكي، وقد أصبحت مرافقة سعيدة، تصحب سيّدتها الصغيرة إلى العربة دوماً وهي تحمل الأغطية والمتاع. وقد أصبح وجهها مستديراً ومحمراً.

بعد مدة قصيرة توقّفت العربة أمام باب المخبز، وخرج راكبوها، ويا للغرابة، في اللحظة التي كانت فيها المرأة تضع صينية مليئة بالكعك الساخن الذي يتصاعد منه البخار في واجهة المتجر.

عندما دخلت سارا إلى المتجر، استدارت المرأة ونظرت إليها، ثمّ تركت الكعكات ووقفت خلف منضدة البيع. حدّقت في سارا بتركيز للحظة، ثمّ أضاء وجهها الطيب.

قالت:

– أنا على يقين من أنّني أتذكرك يا آنسة، ولكن..

قالت سارا:

– أجل، أعطيتني ستّ كعكات مقابل أربعة بنسات ذات مرة، و..

قاطعتها المرأة:

- وأعطيتِ خمسة منها لفتاة متسوّلة، لطالما تذكّرت هذا الأمر. لم أستطع فهمه في البداية.

ثمّ استدارت وتحدّثت مع السيّد الهنديّ:

- أعتذر يا سيدي، لكن لا يوجد الكثير من الأطفال الذين يستطيعون ملاحظة الوجوه الجائعة بتلك الطريقة، لذا ظللت أفكّر في الأمر.

ثمّ قالت لسارا:

- اعذري وقاحتي يا آنسة، لكنّك تبدين معافاة ومتورّدة.. وحسناً، أفضل من تلك.. تلك..

قالت سارا:

- أنا أفضّل بكثير، وأسعد، شكراً لكِ. وقد أتيت لأطلب منكِ معروفاً.

هتفت سيّدة الكعك وهي تبتسم بسعادة:

- منّي يا آنسة! ياللعجب، باركك الربّ! أجل، يا آنسة. ماذا أستطيع أن أفعل؟

ثم انحنت سارا على المنضدة وقدّمت اقتراحها الصغير المتعلّق بالأيّام الرهيبة والأطفال المشرّدين الجائعين والكعكات.

راقبتها المرأة، واستمعت إليها بوجه مذهول.

قالت مجدّداً بعد أن استمعت لكلّ شيء:

- ياللعجب، فليباركني الربّ! سيكون هذا من دواعي سروري. أنا امرأة عاملة ولا أستطيع فعل الكثير على حسابي، ويمكن للمرء أن يرى البؤس في كلّ جانب، لكن لو سمحتِ لي، فعليّ أن أقول أنّني وزعت الكثير من قطع الخبز منذ عصر ذاك اليوم الممطر، فقط لأنني كنت أفكّر فيكِ كم بدوت مبلّلة ومرتعشة وجائعة، ورغم ذلك تخلّيتِ عن كعكاتك كما لو كنت أميرة.

ابتسم السيّد الهنديّ بشكل لا إرادي عندما قالت ذلك، وابتسمت سارا قليلاً أيضاً، عندما تذكّرت ما قالته لنفسها حين وضعت الكعكات في حضن الطفلة التي تتضوّر جوعاً.

قالت:

- بدت جائعة للغاية، كانت أكثر جوعاً مني حتّى.

قالت المرأة:

- بل كانت تتضوّر جوعاً، لقد روت لي عن الأمر عدّة مرّات منذ ذلك الوقت، كيف كانت المسكينة الصغيرة تجلس هناك في البلل وهي تشعر أن ذئباً يمزّقها من داخلها.

هتفت سارا:

- أوه، هل رأيتِها بعد ذّاك؟ هل تعرفين أين هي؟

قالت المرأة وهي تبتسم بطيبة أكثر من قبل:

- أجل، أعرف. ياللعجب، إنّها هناك في تلك الغرفة الخلفيّة يا آنسة، وهي فيها منذ شهر، كم هي فتاة مهذّبة صالحة، تساعدني كثيراً في المتجر والمطبخ. ياله من شيء لا يُصدّق، نظراً لأنّك تعرفين نوع الحياة التي عاشتها.

وقفت على باب الغرفة الخلفيّة الصغيرة وقالت شيئاً ما، وفي اللحظة التالية خرجت فتاة ولحقت بها خلف منضدة البيع. وقد كانت هي نفسها الفتاة المتسوّلة، ولكن ترتدي ثياباً أنيقة نظيفة، وتبدو وكأنّها لم تشعر بالجوع منذ فترة طويلة. بدت خجولة، لكنّ وجهها أصبح لطيفاً، بما أنّها لم تعد متشرّدة، وانطفأت النظرة الشرسة التي كانت تطلّ من عينيها. عرفت الفتاة سارا على الفور، فوقفت ونظرت إليها وكأنّها لن تشبع من النظر إليها أبداً.

قالت المرأة:

- كما ترين، أخبرتها أن تأتي عندما تشعر بالجوع، وحينما كانت تفعل، كنت أكلّفها القيام بأعمال صغيرة مختلفة، فوجدتها راغبة في العمل، وأعجبتني لسبب ما، وفي النهاية أعطيتها عملاً ومأوى، وهي تساعدني وتتصرّف على نحو حسن، كما أنّها ممتنّة بقدر ما يمكن لفتاة أن تكون ممتنّة. اسمها هو آن، ولا تملك أيّ اسم لاحق.

وقفت الطفلتان تحدّقان في بعضهما البعض لعدّة دقائق، ثمّ أخرجت سارا يدها من قفّازها ومدّتها عبر منضدة البيع، فأمسكت بها آن، ونظرت كل واحدة منهما إلى عينيّ الأخرى.

قالت سارا:

- أنا سعيدة للغاية، وفكّرتُ في شيء ما للتوّ. ربّما ستسمح لكِ السيّدة براون أن تقدّمي الخبز والكعك للأطفال بنفسك. لعلّك ستحبّين فعل ذلك لأنّكِ تعرفين معنى أن تكوني جائعة مثلهم.

قالت الفتاة:

- أجل يا آنسة.

وشعرت سارا أنّها فهمتها بطريقة ما، رغم أنّها لم تقل إلّا القليل. وقفت ساكنة في مكانها تلاحقها بنظراتها وهي تخرج من المتجر برفقة السيّد الهنديّ، وركبا في العربة فانطلقت بهما بعيداً.

اكتسبت هذه الرواية شهرتها العربيّة من مسلسل (أنيمي) ياباني شهير أُنتج عام ١٩٨٥، حمل بالنسخة التي دُبلجت إلى العربيّة اسم (سالي). بيد أنّ السينما كانت قبل ذاك قد قدّمت الرواية للمشاهد في فيلم تم إنتاجه في العام ١٩٣٩ حاز على شهرة إضافيّة لما كان عليه هذا الأثر الكلاسيكيّ الخالد، ثمّ أعيد تصويره للسينما عام ١٩٩٥.

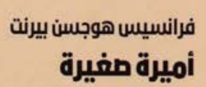
ويجدر القول أن هذه الرواية، كمجمل أعمال الكاتبة، قد لاقت استحساناً كبيراً منذ صدورها حتّى الآن، وقد وُضعت ضمن أفضل مائة كتاب للأطفال في عدّة تصنيفات، كما أنها تُرجمت إلى كلّ اللغات الحيّة تقريباً.

قد تكون (أميرة صغيرة) قصة خيالية، أو أنها قصة حقيقية بالاعتماد على طريقة تلقّي القارئ لها، فهي طفلة يتيمة تتعرض لشقاء يفوق قدرة عمرها اليانع، لكنها مع ذلك تتعامل مع ظرفها بطريقة "رصينة" تشبه طريقة السيدات الخبيرات. ولكي تتجاوز ظروفها الشقية، تضطر أن تنسج الحكايات الخيالية وتصادق الفئران في علّيتها بعدما فقدت كل شيء.

إن سارا طفلة صغيرة، لكنها تتحدث كالناضجين ولها آراء عن العالم تبدو معها وكأنها خبرت الحياة لسنين طويلة. هذه الطفلة تتمنى الفتيات أن تكون صديقتهن أو أن يكن مثلها، كما تتمنى الأمهات أن يكن بناتهن مثلها.

الناشر









www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com